

# الممالك الإسلامية :

في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى

الكتور زاهر رياض









اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمد دياب  
جراح بالمستشفى الملكي المصري





دكتور زاهر رمايض

معهد الدراسات الإفريقية  
جامعة القاهرة

# الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا

وانثرها في

تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى

١٩٦٨

ملزمة الطبع والنشر  
مكتبة الأنجلو المصرية  
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة



مكتبة المهتدين الإسلامية



هذه ترجمة كتاب

E. W. Bovill, The Golden Trade  
of the Moors.

Oxford 1961

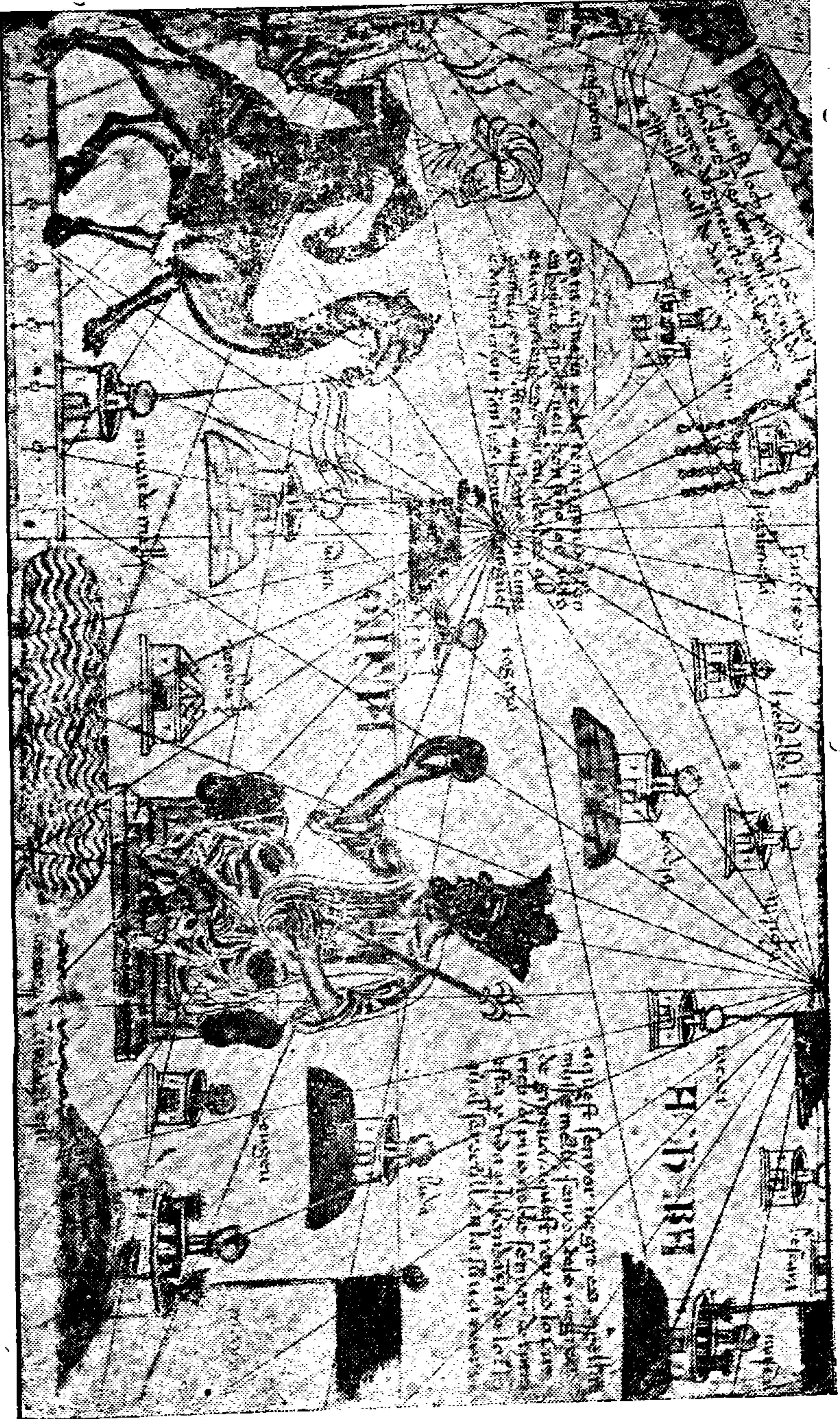
المطبعة الفنية الحديثة  
شارع الأصمغ الزيتون ت ٨٦٤٨٨٩











شكل ١ . موسى مالى — ملك الزنوج فى غينيا — كما ظهرت فى أطلس كاتالان سنة ١٣٧٥



## مقدمة المؤلف

كتبت هذا الكتاب استجابة لطلب طبعة جديدة لكتابي (قوافل الصحراء القديمة) وهو يغطي نفس الحقل، ولكنه يعطى مزيداً من نفس القصة ولكن لا بنفس الطريقة . وهناك عدة أسباب دعت إلى ذلك .

أولها : إنني وجدت أن تلخيص ما كتبت منذ ربع قرن مضى له وغير ذي فائدة فهناك كثير يجب كتابته أفضل مما كتب ، وشيء ليس بالقليل لم يكن يجب كتابته . وفي نفس الوقت جمعت مادة جديدة يجب أن يكتب كثير منها على الأقل لا ظهر خطأ ما كنت قد كتبت قبل ذلك .

ولكن ما هو مطلوب أكثر من ذلك، أن مرور السنين قد أحدث تغييرات تبدو أنها تستدعى معالجة مختلفة للموضوع، كما تستدعى دخولا جديداً للقصة . فالهدف من كتابي الأول كان — كما ذكرت المقدمة — أن أظهر كيف أن الطرق التجارية عبر الصحراء قد عقدت روابط من الدم والثقافة بين الشعوب التي في شمال الصحراء وتلك التي في جنوبها . وإن أكسب قدراً من الإبراز للجزء الذي لعبه السودان الغربي في تاريخ الحضارة، وأن التأكيد انصب على تأثير شعوب الشمال على شعوب الداخل . وتأثير البيض والسمر على الزنوج، وقد قدّر الكتاب في كانوا التي تنظر إلى الشمال عبر متاهات الصحراء الكبيرة وإلى المدن التي نشأت في المغرب والتي ارتبط بها السودان الغربي بعلاقات قاومت الزمن . ونتيجة لذلك كان الكتاب موجهاً أكثر ما يكون إلى هؤلاء المهتمين بغرب إفريقيا .

ومنذ هذا الوقت زادت معرفتي بالمغرب من مراکش حتى لبسيس وبادابها، فرحلاتي المتواضعة وقراءاتي علمتني كثيراً، وخاصة أن الصحراء



تسيطر على تاريخ الشمال بأكثر مما سيطرت على تاريخ الجنوب. ولكن هذا الاتجاه لم يتبينه مؤرخو المغرب، وكذلك هؤلاء الذين يشخصون بأبصارهم إلى عظمة الآثار القديمة التي تغطي صفحة كبيرة من هذه الأرض.

ولذا بدت لي الحاجة إلى كتاب يظهر كيف أن الصحراء قد أثرت القرطاجنيين وأخافت الرومان. وكيف أن طرق الصحراء الكبيرة في الأزمان الحديثة ربطت مدن الشمال بالأسواق الكبيرة ومراكز العلم في الجنوب ولم تتأثر فقط بمجريات الحوادث في المغرب أو حتى ما وراءه، بل سيطرت عليها في بعض الأحيان. وكيف أن البربر والعرب يهوداً ومسيحيين — عبر القرون — لم يتوقعوا عن حمل الثروة والصناعة السودانية. فهذا الكتاب يرمي إلى إرضاء هذه الرغبة.

فتاريخ شمال إفريقيا قد شغل كثيرين من الدارسين الدءوبين وأتخذ منه بعضهم شغلة حياته، فالولوج إلى حقل تبينت منه كثيرين من السابقين قد عولج في يسر ولكنه ليس في يسر كثير إلى حد أني لم أجرؤ أن أسأل عن نهايته.

وبالرغم من أن هذا الكتاب — بخلاف كتابي السابق — موجه إلى المهتمين بشمال إفريقيا، فقد وضعت في ذهني — عند كتابته — دائماً رغبة الطلبة الذين يدرسون تاريخ غرب إفريقيا، والذين أدين لهم بالدعوة إلى طبعة جديدة لكتابي الأول، فذهب المغرب وكذلك جلود مراکش لها أصلها في السودان وهو الأرض التي يقود إليها كل خيط في قصتي.

وقد سجلت — في المصادر والهوامش — مصادر مادتي، ولكن من الواجب أن اعترف بالفضل لهؤلاء الذين — من وقت لآخر — اقترحوا بعض تصويبات أو تصحيحات أو إضافات إلى كتابي الأول، وتراكت ديوني خلال السنين كي تطفو في السنين الأخيرة، بالاستجابة الكريمة لهؤلاء الذين طلبت مساعدتهم ومعاونتهم في كتابة الكتاب الحالي ومن بين هؤلاء الذين



ادين لهم المرحوم أرنت، والدكتور كابوت بريجز والسيدة أولون بروجان .  
والسيد كرون . والسيد دانييل والأستاذ هنري لابوديت . والسير جوردون  
ليتم، والسيدة ماكدوجال. والمرحوم رايموند موني. والسير ريتشموند بالمر .  
والسيد سكلتون وجماعته في غرفة الخرائط بالمتحف البريطاني، والأستاذ تايلور  
وكذلك ابنتي مدام جيمس بلاكت اورد. وأخيراً زوجتي التي أضافت إلى  
حاسة ابنتي النقادة هبة تحملها وصبرها الذي يفوق حد الشكر أو المكافأة .



(١)

## مرضعة الأسود العجفاء

إذا اشتكى الفلاح البريطاني — وهو يقاوم رطوبة المحصول — أن الصيف قد جاء مختلفاً عما كان ، فزارعو المناطق المدارية بالمثل يصرون على أن ندرة المطر تسبب نقص محصولهم شيئاً فشيئاً . فالأول يحن إلى الشمس التي باركت شبابه، والثاني إلى المطر الذي أعطى والده ثروته . فإذا كان المناخ هو أهم ما يعنى الزراع أكثر من مباشرى أى نشاط آخر، فالاعتقاد في تغير المناخ ظاهرة غالبية بين الفلاحين . وهذا شيء هام بالنسبة لقاطنى المدن أيضاً لأن أجازتهم السنوية مرتبطة به أيضاً . والاعتقاد في عدم استقرار المناخ عميق الجذور، ويحمل الناس على الاعتقاد دائماً أن أى تغير فيه إنما يسير إلى أسوأ . والسجلات المتولوجية تكذب هذا الاعتقاد ، ولكن الأرقام لا تريح الإنسان ولا تخلصه من تشاؤمه .

وربما لا يوجد مكان في العالم أغنى ما يكون بالعلامات الخارجية التي تؤكد تغير المناخ أكثر من شمال إفريقيا . ويبدو الآن أن ليس هناك من شك ولو يسير في أن الأحوال تسير من سيء إلى أسوأ . ففي كل مكان يقع شرقي مراكش ( وأغلبها حسن الرى ) ترتفع الشكوى من قلة المطر . فمن الجزائر حتى النيل ، تنتشر على سطح الأرض خرائب المدن المهجورة ، والآبار الجافة ، وكذلك مجازى الأنهار الجافة . وفي الداخل — حيث الأرض التي أطلق عليها هيرودوت اسم (منطقة الحيوانات الوحشية) — انعدمت الحيوانات الكبيرة وهو دليل لا يقبل التسك يؤيد نقصان نزول المطر نقصاً خطيراً .

والمدرج الهائل في تسدروس Thysdrus (الجيم الحالية) الذي بناه الرومان ليسع ستين ألف متفرج، لا يكاد يكنى منزلاً لستائة من بين العرب الذي يعيشون



هناك . والذين تجمعوا في الكهوف المحفورة عند أقدامه ، والذين يعيشون الآن عيش الكفاف في السهول الجافة المهجورة وهو يشير فقط إلى ما ضل مجيد . وأقل من ذلك أثراً في النفس ، خرائب تاموجادى Thamugadi ( تمجاد ) ، فالمرتفعات المعشوشبة التي يعيشون فوقها لا يسكنها الآن إلا البدو .

ويبحث الإنسان الآن عبثاً عن أى أثر للماء الذي كان يجري بصفة دائمة خلال الشوارع . فالزائر الذي يقصد لبسيس ماجنا Lepcis Magna قد يعجب إذا ما رأى هذا العدد الكبير من الخرائب ، فمن أين كان سكانها وقد بلغوا ستين ألفاً أو يزيدون يحصلون على الماء . وكيف كانت تمتلأ الخزانات الكبيرة والحمامات العامة . إذا لم يكن ماء المطر من الكثرة بحيث يبلغ سبعة أو ثمان بوصات في السنة . وهى كل ما تحصل عليه هذه المدينة الآن . وأمثلة أخرى لا تحصى من قلة السكان كلها تعود إلى قلة كمية الماء . ولكنها تكفى لتصور نوع الدليل الذي يقنع الزائر . وليس أقل من ذلك أثراً قيعان الأنهار الجافة - وبعضها عظيم العمق - التي تنتشر في الريف ، كثيراً ما تشير إلى مدى الانتعاش الذي استمر ولا شك عصراً طويلاً .

وإذا أريد مزيد من التأكيد عن تغير المناخ منذ العصور القديمة ، فإننا نجد ملبوساً في المتحف الذي جمع أبداع قطع الموزاييك التي عثر عليها المنقبون من بين البقايا الرومانية . فهي تظهر كيف عاش الناس آنئذ . وكيف كانت منازلهم ومزارعهم وملاعب حقولهم . وكيف زرعوا الأرض . وأكثر من ذلك الحياة الوحشية لريفهم . فالصورة العامة الماضية هي أن الأرض كانت مختلفة تماماً عما نرى اليوم ، فهي أقرب ما تكون إلى كينيا منها إلى بلاد البربر . أقرب إلى ما ينتظره الإنسان من مزرعة قمح رومانيا هي حقيقة اليوم . وأكثر التغير أثراً هو انعدام الحياة الحيوانية للمنطقة فبينما كانت في العصر الروماني تضم مختلف أنواع الحيوانات وفي أعداد كبيرة ، لانراها الآن إلا في منطقة



إفريقية مدارية لم تمسها المدنية ، وربما كانت أبعد قطع الموزاييك للسرور قطعة في باردو Bardo ( المتحف العلوى ) في تونس ، وهي تمثل أورفبوس يمشي مع مجموعة من الحيوانات تضم بينها التيتل ، والتاريخ يروي نفس القصة . فالأفيال وقطعانها الكبيرة التي كانت تملأ المنطقة أيام القرطاجين عاصرت أيضاً الرومان ، وقد كرر هيرودوت نفس الوصف للأرض الداخلية حيث كانت القردة بين حيواناتها الوحشية .

والنتيجة الطبيعية التي تنتهي إليها من هذه المجموعة الكبيرة من الأدلة تشير كلها إلى تغير المناخ ، ولكن الأحوال الحالية قد سادت منذ أيام الرومان والصحراء ترحف على الأرض التي تقع وراء الشاطئ الشمالي لأفريقيا . وأي دليل آخر يمكن أن يوجد أكثر من إقليم طرابلس Tripolitania البناء القديم لمدينة لبسيس ماجنا وسبرطه Soparta اللتين وجدتا مقبورتين تحت عمق هائل من الرمل المتراكم ، بل هناك تفسير آخر — لا عن الخرائب المقبورة في عمق — ولكن أيضاً عن المدن العديدة التي تقع الآن في مهابات جافة . وكذلك مجارى الأنهار الجافة والنباتات المفقودة . والدليل كله قائم ضد التغير المناخى . أو ربما كان المطر الحالى هو نفس الكمية التي كانت تسقط منذ نصف مليون سنة .

وعندما أراد الرومان — لأسباب اقتصادية وسياسية وحربية — أن يؤسسوا لهم مواطن أينما شاءوا ، أو يوسعوا رقعة موطن قد استقروا فيه أكثر من حدوده ، لم يسمحوا لندرة المطر أن تقف في طريقهم . فإذا لم يكن الماء في متناول أيديهم . أو إنعدمت نسبة النقاوة العالية التي يطلبونها ، فإنهم كانوا يحملونه من بعيد . فسرتة Cirta (قسنطينة الحالية) جلبت ماءها من بعد عشرين ميلاً . وقيصريه Caesarea (شرشل الحالية) من بعد تسعة عشر ، وقرطاجه من على بعد تسعين ميلاً تقريباً فالقنوات المعلقة الهائلة التي اخترقت السهول



الواسعة وسلاسل الجبال العالية ظلت دليلاً لا ينقض على عبقرية المهندسين الرومان ، الذين تمت تحت إشرافهم مجموعة الخزانات التي مونت المدن بمياه الينايع ولكن هذه الينايع لم تكن دائماً موجودة كما هو الحال في طرابلس حيث كانت مشكله الماء — كما هي اليوم — مسألة دقيقة أكثر مما هي في الغرب . حيث جرب الايطاليون حين أسسوا مواطنهم الجديدة في سنة ١٩٣٠ وسيلة جديدة وهي جمع المطر من مناطق مجاورة وتخزينها في خرائات ، وكانت هذه المناطق المجاورة تختلف بين سطوح الصخور وسقوف المنازل<sup>(١)</sup> .

وكانت هناك وسيلة أخرى هي بناء السدود في عرض النهر حيث يتجمع وراءها ما ينزل خلال فصل المطر القصير فتخزن أو تجلب إلى الخزانات . وقد استمرت هذه الوسيلة مع تحسين كبير . فقد أقام الإغريق في أقصى الشرق نفس الشيء أن لم يكن أفضل مما فعل الرومان في ظروف أكثر قسوة . فقد استبدلوا ، بطريقة الخزانات الصخرية ، سلسلة من المدن والقرى التي تحيطها الحقول وأراضي الكروم التي تمتد على طول الطريق من سيرين إلى الإسكندرية .

وكان تهديد الصحراء للأرض الزراعية في هذا الانحاء الجافه — في سرتس الصغرى — مستمرا . وأوقف زحف الرمال عند الخليج فقط طالما كانت الأرض تزرع ، أما حين توقفت الزراعة بسبب الانحطاط وتخریب السدود والخزانات فقد زحفت الصحراء حتى أصبحت على نحو ما نراه الآن في لبسيس وسبرطة .

---

(١) قدر ما يطله المزارع العربي في منطقة البحر المتوسط بنحس وخسين جالونا للرأس الواحد (  $\frac{1}{4}$  حالون في اليوم ) وهو خمس ما يطله المزارع الوطى في المناطق المدارية وفي طرابلس حيث معدل المطر ٨ بوصات يمكن الحصول على هذه الكمية من الماء من المنطقة المجاورة من مساحة ١٥٠ قدم مربع . أى من سقف منزل مساحته  $\frac{1}{4} \times ١٢ \times \frac{1}{4}$  قدماً .



وقد أحيت القنوات المعلقة والسدود والخزانات التي أقامها المهندسون الرومان المدن الميتة التي تثير دهشتنا اليوم . فكل هذه الأعمال التي تخربت لا تعود إلى القصور في نزول المطر أو قلة الينابيع . إنها في بعض الأوقات ترجع إلى الحركات الأرضية . ولكن أكثر من ذلك إلى يد الإنسان فلمدى ألفي ميل أستعمل الناس الآثار الرومانية كمصدر لأحجار البناء سواء للمنازل أو المساجد ، فمسجد القيروان والجامع الكبير يحوى قرابة ثلاثمائة عمود أخذت كلها مما حولهما من المباني الرومانية والبيزنطية التي لا أثر لها الآن . وفي القرن السادس عشر أخذ ثمانية وأربعون عمودا من لبسيس لبناء مسجد تجويرا الذي يقع شرقي طرابلس بأميال قليلة . وفي غدامس الصحراوية لم يبق من كل المخلفات الرومانية سوى بعض الأعمدة الدورية والكورنثية في المسجدين الرئيسيين ، هذا إلى أن التخريب الشامل الذي عمده إليه الفاتحون لعب دوراً خطيراً في المباني التي تركها الرومان ، وهؤلاء المخربون هم قبائل بني هلال . إذ كان قدوم بني هلال من مصر في القرن الحادى عشر حادثاً سيئاً على كل البلاد التي تمتد على طول الشاطئ الشمالى . إذ لم يكونوا يعرفون سوى الخيمة . أما الأبنية الدائمة فلم يعرفوها ، فكان أن نهبت هذه القبائل بطريقة منظمة كل المدن وخربت كل بناء في طريقهم . فالمدن الكبرى والصغرى والقرى والقنوات والسدود والخزانات والكبارى ، تهدمت أمام هذا القطيع الوحشى الذى كان أكثر من غزا هذه الأجزاء وحشية . والأرض التي كانت تعتمد على الزراعة انتهت زراعتها وتحولت إلى صحراء ، حتى المساحات الكبيرة التي كانت تحتلها الغابات خربها الفاتحون وقطعانهم ، وهكذا تغلبوا على مشكلة الماء .

وعلى عكس العرب الذين فتحوا البلاد في القرنين السابع والثامن لم يعط بنو هلال البلاد شيئاً فوقعت الأرض فريسة التدهور الذى لم تنتعش منه قط .



ويمكن أن نشرح بسهولة مسألة مجارى المياه الجافة فمعظمها حفر فى العصر الرابع قبل أن يزرع التاريخ بوقت طويل فتمتعت البلاد بعصر غزير المطر ولذا مازال بعضها يجرى لمدة قصيرة خلال فصل المطر .

ومن المؤكد أن أختلاف المناخ ليس مسؤولاً عن إنعدام الحياة فى الإقليم . فالحيوانات التى صورت بوضوح على الموزاييك الرومانى إذا عاشت اليوم فلن تقاسى إلا قليلاً من الحياة فى معظم الإقليم ما لم تتعارض مصلحتها مع مصلحة الإنسان ، ولكن ليست كل هذه الحيوانات موجودة حالياً أو كانت موجودة كما يظن الإنسان ، فالتيتل الذى رسم على موزاييك قصر بادو فى تونس هو نفس تيتل مراکش الذى كان يعيش بها حق الحرب العالمية الثانية . وضمت أطلس الوسطى أسوداً حتى سنة ١٩٢٢ ، كما عاشت الضباع فى مراکش وإذا كان النعام قد أختفى منذ وقت قريب فقط .

ولا شك أن وجود الفيل يعود إلى العصر المسيحى . وقد كان الإغريق يصطادونه بعد أن عرفوا فوائده خلال غزوات الاسكندر على الشرق ، وقد علموها للقرطاجنيين ليحرقوا بالقطار . وهو نفس الحيوان الذى يكثر فى وسط إفريقيا فى الوقت الحاضر بعد أن غدا أصغر حجماً من جراء العزلة والبيئة ، وهؤلاء الذين يعرفون الفيل جيداً فى إفريقيا المدارية حيث يعيش هناك فى ظروف مختلفة تدعو إلى الدهشة ، لن يجدوا صعوبة فى أن يقبلوا تأكيد علماء الطبيعة المتكرر بأن هناك أجزاءً من شمال إفريقيا يستطيع فيها الفيل أن يحى اليوم . وربما كانت آخر مواطنها أطلس العليا .

والإنسان كالحیوان — قرین زیادة مصادره الحالية ، فالجوع يؤدى إلى الاقطاع القبلى ثم إلى الحرب ثم إلى الحركات الجموعية للشعوب ، كما حدث



أكثر من مرة في تاريخ كل من أوروبا وآسيا ولكن الضحايا الأولى للحرمان البشرى — قبل أن يدفع الجوع بالإنسان إلى شن الحرب على جيرانه — هي حيوانات الحقل . فإنها تصاد للحمها ولصيانة المحصولات التي تخربها، وأعظم ما يهدد حيوانات الغاب في إفريقيا المدارية اليوم هو زيادة السكان التي يصحبها انتشار الزراعة والإلحاح في طلب حيوانات المراعى . إذ لم يعد هناك مكان للإنسان والغاب معا وعلى الأخير أن يختفى .

ففي خلال الخمس والعشرين سنة ( ١٩٢٩ — ١٩٥٤ ) صادت حكومة أوغندا أكثر من ست وعشرين ألف فيل وما زالت جادة في اصطيد عدة مئات كل عام بسبب التخريب الذي تحدثه للمحصولات وللزراعة التي امتدت إلى مراتع الفيلة التي ترفض الحيوانات تركها . وكذلك جماعات الحمر الوحشية التي كانت لجبل واحد فقط تمرح في سهول كينيا . قد نقص عددها إلى حد خطير، لأنه لم يعد هناك مراعى كثيرة لها، إلى جانب حيوانات الزراعة . وكذلك الآجام التي أثارت دهشة من قدمها من البيض تسير في نفس الاتجاه . ولا بد أن يحدث ذلك في شمال إفريقيا إذا زاد السكان — الذين كانوا يعتمدون أساساً على الرعى إلى حد أن ابتلعهم الموجات المتوالية للغزاة والزيادة الطبيعية التي نتجت من إقامة حكومات منظمة ، فلا بد للحيوانات أن ترحل .

ولكن هناك سبباً رئيسياً لخراب الحياة الوحشية وهو الإلحاح في طلب الرومان لهذه الحيوانات من أجل ملاحيمهم . فالغرائز الإنسانية لا تحس حين تتلذذ بمنظر ما يجرى على المسرح خلال التمثيل . فالرومان خلال حكم دوميتيان Domitian لم يقنعوا بذبح اثني عشر أو ما يقرب من ذلك من حيوانات الحلقة . بل منحهم القنصل والامبراطور ضحايا أخرى، ففي إحدى المناسبات أطلق قيصر في الحلقة اربعمائة أسداً ليصارعها المصارعون . وفعل ذلك بومبي مع ستمائة .



وفي الستة والعشرين استعراضا التي أقامها أوغسطس ذبح ٣٥٠٠ حيوانا واحتفل تيطس Titus بارتقائه العرش بافتتاح الكوليزيوم وبتقديم تسعة آلاف حيوان للمصارعين ليقتلوها أولتقتلهم ، وفي مناسبة دون ذلك بعد عدة سنوات قتل تراجان ٢٢٤٦ حيوانا في يوم واحد .

هذه كانت مشاهد ظلت ذكرها خالدة بسبب ضخامة ما قتل، ولا شك أن هذه الحيوانات المقتولة لم تكن إلا نسبة ضئيلة من مجموع ماضحى به خلال قرن ونصف، هي المدة التي يغطيها التسجيل دون الإشارة إلى ما قتل منها قبل أو بعد هذه الفترة . وبعض هذه الحيوانات حمل من آسيا وبعضها من مصر ، ولكن معظمها جاء ولا شك ومن الولايات البربرية . وإذا عرفنا صعوبة الحصول على الحيوانات الخطرة دون الفتك بها وقليل فقط من هذه الحيوانات فرت بحياتها من الأيدي المدربة، أمكننا إذن أن ندرك أن تكاليف الألعاب الرومانية في إفريقيا لا بد أنها وصلت أرقاما خيالية .

ولا بد أن الفيلة لم تكن لها قيمة كبيرة في ألعاب الحلقة . لان بومبي حين قتل بعضا منها في السيرك بواسطة جايتولى Gaetuli الذي استحضر خصيصا من إفريقيا أخاف منظرها النظارة الرومانيين ، ولكن الفيلة لم تحاول الهرب من مصيرها . واشتد أهل روما في طلب العاج بل كانت أكلة خرطوم الفيل — كما يذكر بليني Pliny — من ألد الأطباق عند الرومانيين .

ولا يترك لنا سترابو شكافي أن التضارب بين مصالح الفلاحين والألعاب من ناحية، ثم الإلحاح في طلب الحيوانات من أجل الحلقة من ناحية أخرى هما اللذان أديا إلى نقص الحياة الحيوانية إلى حد العدم .

فجميع المنطقة الممتدة من عمود هرقل إلى قرطاجنة ( كما كتب ) كانت تعج بالحيوانات الوحشية بدرجة ليست دون درجة الداخل . ولم يكن مستحيلا في أن اسم البدو أو الجوالين كان يطلق على بعض هؤلاء الناس

( ٢ - الممالك الإسلامية )



الذين لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم قديماً للرعى على حساب الحيوانات الوحشية ، وفي الوقت الحاضر حين تدرب الجميع على الصيد وأصر الرومان على إحضارهم من أجل مشاهد قتال الوحوش أصبحوا سادة الوحوش وحيوانات الرعى .

وحيث نستطيع أن نقول أنه في نهاية القرن الأول قبل الميلاد نقصت الألعاب إلى حد أن أصبحت الزراعة ممكنة وهي أمر لم يكن متاحاً قبل ذلك ، ولكن التضحية بها ظل بعد ذلك لمدة طويلة .

والذي يدعو إلى الدهشة ليس أن كثيراً من الحيوانات المرسومة على الموزاميك لم يعد موجوداً وأصبح نادراً إلى حد أن أصبح بقاؤها موضع الشك ، بل لم يعد ظاهراً لمدة طويلة قبل نهاية الإحتلال الروماني . ومثلها المدن الميتة ومجاري الأنهار الجافة والحياة الحيوانية التي انعدمت لم تكن كلها نتيجة التغير المناخي .

ومن الخطأ أن نفترض أنه لم يكن هناك تغير في الأحوال المناخية فانعدام الغابات قد يعود إلى بعض التعديل المحلي في نزول المطر . كما كان هناك تغير طفيف لأسباب لا نعلمها .

يظن الأثريون أنه من الممكن أن تكون طرابلس ( تريبوليتانا ) أيام الرومان أكثر رطوبة مما هي الآن . فلنأخذ لنا مثلاً آخر من مكان آخر خارج حقل دراستنا . فتسجيلات المطر التي سجلها بطليموس الجغرافي في القرن الثاني الميلادي تبين أن مصر ، رغم أن عدد الأيام المطيرة كانت هي نفسها في الوقت الحاضر ، فإنها كانت أفضل توزيعاً ، ولكن ما حدث لها من تغير كان كبيراً ، فالمطر كان أكثر غزارة . وبعض الكبارى الرومانية لم تمتد فوق الأنهار كما أن بعض الأنهار الضحلة لم تكن تعبر سيراً على الأقدام ، وإذا قرأنا الوصف الذي كتبه مؤلفو الرومان للبلاد فإنه من المستحيل أن



ندرك كيف أنها كانت مطابقة للأحوال المناخية الحالية ولكميات المطر. ولما كان الرومان يعتمدون تماماً على قمح شمال إفريقيا ( بل على قمح مصر أكثر ما يكون ) فلا بد أنه كان إقليماً مخيفاً بسبب مساحته الواسعة الجافة وكثرة حيواناته الوحشية. وقد جاء ذكرها كثيراً في أدابهم . كما وصفها هوراس .

وقد أشارت الوثائق التاريخية كثيراً إلى كميات المطر . فعندما كان قيصر معسكراً بالقرب من هادرمنتوم Hadrumentum ( سوس ) كانت ندرة المطر مصدر قلق له كما كانت لبلزار يوس Belissrius بعد ذلك بستة قرون ، كما أحب الإفريقيون هدر يان Hedrian لأن المطر نزل للمرة الأولى يوم وصوله إلى إفريقيا بعد جفاف استمر خمس سنوات .

والتاريخ المناخى للصحراء أكثر أهمية لموضوعنا مما هو للرجل البربرى ، ولكن ليس لدينا ما نقوله عنه لأنه ليس فى طبيعة الصحراء الواسعة التى يصل الجزء الأكبر منها إلى أقصى ما يكون الجفاف أن تمدنا بالبرهان التاريخى عن مدى ثروة المغرب كما أطلق عليها العرب . فأحوال الصحراء تمنع من الاستقرار الدائم مما يجعل من الصعوبة إمكان وجود مخلفات من البناء ، فالنقر فى وجود التاريخ المدون يعادل فقر التربة . ومن حسن الحظ أن ليس أحد منهما بعقيم تماماً .

وقد انتشرت فوق الصحراء بقايا كثيرة عن مواطن الاستقرار السكانى . كما انتشرت الهياكل الجافة للمجموعات النهرية وهذه البقايا تظهر بوضوح أن الصحراء مثل بلاد المغرب تمتعت يوماً بمعدل جيد من المطر ، ولكن فقط فى عصر بعيد جداً لا يعنى باحث التاريخ . كما أن الصحراء غنية بالرسوم على الصخر التى تبين — كتلك التى رسمها الرومان على الموزاييك — أن الإقليم كان غنياً بالحياة الحيوانية بالمقارنة إلى وسط إفريقيا فى الوقت



الحاضر ومنها الفيل وفرس النهر والثيرات المختلفة والحصان والماعز والعز والماشية، فهذه الرسوم أيضا تصور عربات تجرها الخيول كما وصفها هيرودوت وربما كانت معاصرة للتاريخ المسجل للشمال . وهذا -- مع العلاقة الوثيقة بين الحيوانات المقيمة اليوم وبين الحيوانات المصورة في هذه الرسوم -- يعطينا فكرة أن الصحراء ربما كانت أقل جفافاً أيام القرطاجنيين واحتلال الرومان للمغرب عما هي الآن .

فالحيوانات المقيمة في الصحراء الحالية (وتضم أيضاً إقليم الساحل) كثيرة ومختلفة ، وأشهرها الأسد والزراف والأغنام البرية والقردة والغزلان بأنواعها الثلاثة ثم التيتل الذي هو أكثر الجميع انتشاراً في كل أجزاءها . وكل هذه الحيوانات تعيش في ظروف تحتم عليها تحمل العطش لعدة أشهر ، وغالبا ما تمتد المدة إلى عام وبعضها لا يشرب من المولد حتى الموت ، ولذا لا يدهشنا إذا عرفنا أن الحيوانات التي تستأنسها قبائل الصحراء وهي الغنم والماعز والحمير تظل في حالة جيدة مع الإستغناء عن الماء بتاتا ويستطيع الحمل تحمل نفس الحالة إذا لم يحمل أحمالا .

وقد يتأقلم الحيوان في حالة وجود حالات غير ملائمة، ولكن التغير يحدث تدريجيا من سلالة إلى أخرى خلال مدة طويلة ، ولذا يبدو واضحا تأقلم بعض الحيوانات مثل جمال البجة الذين يقطنون سواحل البحر الأحمر في مصر بالرغم من برد الوجه البحري حتى سنة ١٨١٥ .

وقد تنزل الأمطار من حين لآخر في الصحراء في بعض أجزائها مثل إيبرى وفزان . وتبستى تعاني من قسوة العواصف ، ولكن معظم أجزاء الصحراء جاف . وهناك بعض المستنقعات في بعض مناطق ملائمة مثل مرتفعات انيدى Enned وأحجار Hoggar . حيث مازالت التماسيح موجودة في هذه المستنقعات وغيرها، بل وفي بعض مجارى الأنهار التي تفيض



بالماء ولو نادراً توجد سمكة القطة . ولكنها مثل سمكة الخياشيم تستطيع استنشاق الهواء وتقاوم الإختناق لبضعة أشهر بل لسنة في بعض الأوقات . فوجودها في الصحراء ليس غريباً .

ورغم أن الحياة الحيوانية الوحشية في الصحراء غنية بالرغم من بقائها منذ أوقات أكثر ملائمة ، فوجودها ليس دليلاً على تغير المناخ في الزمن التاريخي . وفي حالة عدم وجود دليل آخر يجب أن ندرك أن تأقلمها للأحوال الحاضرة حدث قبل فجر التاريخ .

وتوزيع الإنسان على وجه الأرض يظهر جلياً بأنه أكثر تأقلماً من الحيوانات البرية . وبالرغم من ذلك إذا حدث أن نضبت الحياة له ، لأسباب سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو جغرافية أو مناخية — فهو يفضل أن ينزع نفسه وينتقل إلى مكان جديد، فالحياة في الصحراء تجعل مثل هذه المطالب غير العادية للتحمل البشري — سواء كان التغير إلى خير أو شر — تنعكس سريعاً على طريقة حياته بحيث لا يمكن تجنبها . ويحسن بنا إذن أن نضع في اعتبارنا بعد ذلك أنه مهما كانت معرفتنا عن تاريخ قبائل الصحراء يسيرة ، فلا بد أنها تعطينا دليلاً على تغير المناخ .

نخرج المنطقة القطبية توجد أجزاء قليلة من العالم أقل تشجيعاً للاحتلال البشري عن الصحراء، ولكنها كانت مسكونة منذ أيام هيرودوت فصاعداً إلى أقصى ما تستطيع قدرتها ، وتتحكم في سكانها الحياة القاسية التي تفرضها الصحراء، فالقبائل رعوية بدوية لأن المحافظة على حياة التنقل تجعل الموارد الصحراوية قليلة الماء كما تجعل الرعى يؤازر الحياة البشرية، فالهامش بين الشبع والجوع ضيق حساس إلى حد أن الحياة تصبح دائماً قلقلة ، والمستقبل غير أمين ، فهي تربي جنساً متماسكاً قوياً مستعداً دائماً للدفاع حتى النفس الأخير عن آباره ومراعيه أو — إذا فشل في ذلك — يقاتل في عزم



يعادل عزم جيرانه . من أجل ضمان الحياة، أو على الأقل لجعلها محتملة يجب أن يحتفظوا بمواردهم الطبيعية الطفيفة بكل الوسائل الممكنة فهم ينقضون على القوافل التي تمر بمنطقتهم، ويقومون بهجرات موسمية إلى مناطق أكثر ملاءمة تحيط بالصحراء . وبدو الصحراء الغربية والسورية ينتقلون موسمياً إلى وادي النيل والفرات مثلما فعل أولاد يعقوب . وكذلك تعمل القبائل البدوية التي تعيش في شمال الصحراء حين تقضى أحر أشهر السنة ترعى قطعانها على هضبة أطلس العالية أو في إقليم التل في الجزائر وتونس ، وشبيه بذلك في الجنوب، فالطوارق يسوقون قطعانهم إلى إقليم السفانا في السودان الغربي أو إلى نيجيريا وسهول النيجر الأوسط الواسعة . فمثل هذه الهجرات الموسمية تقليدية ويقبلها نصف البدو وكذلك الشعوب المستقرة التي ينتقل إليها هؤلاء المهاجرون . وإذا ما انتهى الفصل الحار عاد البدو بسلام إلى الصحراء .

وفي بعض الأحيان تعجز المراعى الصحراوية ، كما تحف الآبار وكهوف الماء ، وإذا حدث ذلك ينشأ خطر طرد الصحراء لسكانها فتمتد الهجرات الموسمية وراء حدودها التقليدية . سواء في المساحة أو الزمن . وهذا طبعاً يتعارض مع مصالح القبائل المجاورة ، وبأى الإضطراب عادة في أعقابها فتتقلب الهجرات الموسمية إلى غارات، والغارات إلى إحتلال دائم على رأسه ملوك رعاة يحكمون الزراع . وشجاعة البدو وشدة مراسهم وسرعة تحركهم تجعلهم جيراناً خطرين . وسكان الأجزاء نصف الصحراوية التي تحف بهم لا يمكنهم المقاومة حتى وإن استندوا إلى حكومة مركزية قوية، وقد يعجزون عن صدمهم بالطرق العادية للدفاع ، فمصريو الأسرة الثانية عشر اضطروا إلى بناء حائط امتد من هليوبوليس إلى القلزم لوقف هجمات البدو، كما بنى الآشوريون حائطاً عبر الفرات لصدد الميديين . وكذلك بنى الفرس حائطاً لصدد الهون . وسور الصين العظيم لم يكن إلا للدفاع ضد المغول .



وكل واحد من هذه الأعمال العظيمة أقيم لوضع حد لخطر غارات سكان الصحراء الدائم .

وقد أخرجت مناطق وسط آسيا (الاستبس) جماعات الرعاة البدو التي هزت فتوحاتهم العالم . فقصر الصحراء الشديد وضع حدا لسكانها إلى حد أنها لم توقف خلال العصر التاريخي غارات الفاتحين ، بالقياس إلى الآراميين والآفار والهون والعرب والترك . وهم الذين دفعتهم أراضي آسيا إلى القيام بها . فكثيراً ما قضوا على سلام جيرانهم ، وثمة حادثة هامة في تاريخ المغرب هي فتح المرابطين له . فمعظمهم من مواليد الصحراء وكان طوارق صنهاجه مغيرين تقليدين على تمبكتو ومنطقة النيجر الأوسط ، كما كان بنو هلال وبنو سليم المكيون والمدنيون ، وبالمثل أغار تيو تيبستي على وادي النيل ، وهكذا تعرضت كل الأجزاء المحيطة بالصحراء دائماً لغزوات البدو .

ولا نستطيع أن نتبين دائماً أن سبب هذه الغزوات هو الحاجة الاقتصادية أو الغريزة الموروثة أو مجرد الحب في الغزو ( كان المرابطون استثناء ) ولكن العامل المتحكم هو المطر في العادة ، فإذا حدث أن أتى موسم قل فيه نزول المطر إلى حد لا يكفي للبدو وقطعانهم ، تصبح العادة وراثية في القبائل . وإذا توقفت المصادر الصحراوية عن أن تفي بمطالب الحياة بسبب النقص المتكرر في المطر أو الزيادة المطردة في عدد القطيع لم يعد أمامهم سوى الغزو . وحينئذ أصبحت القاعدة في أنه في حالة تغير المناخ منذ أيام الرومان أن أصبح تاريخ شمال إفريقيا واحداً من أكبر مسببات الاضطراب السياسي المتزايد وكذلك المزيد من سفك الدماء .

والسيطرة على قبائل الصحراء كانت دائماً مشكلة شكلت عبئاً مستمراً على موارد الرومان والتاريخ المسجل لمناطق جنوب السودان يغطي أكثر من ألف سنة ولكنه لا يعطينا أى دليل على أن غزو الطوارق للمناطق الغنية في غرب



السودان قد زاد على مدى الزمن بسبب العوامل الطبيعية ، فبالرغم من اتجاه الإنسان الطبيعي وقطعانه للتكاثر . فإن الصحراء لم تعد أقل قدرة على أن تفي بحاجة قبائلها في الوقت الذي حطم فيه الأوربيون اقتصادها . فهذا هو البرهان الختامي على إنه لم يكن هناك تغير مادي نحو السوء .

وبالرغم من هذا فإننا نقرأ في أدب الرحالة العرب أن زيادة الجفاف كانت أقوى من أن تتجاهله فكثرة الواحات للمسافر في الصحراء قبل التقدم في الصحراء المحيطة ، والاختفاء الكلي لأخرى تحت ظروف الضغط غير المتوقف ، وجفاف الآبار ، والتدهور المستمر في طرق القوافل القديمة تبدو كلها دليلاً على الجفاف المستمر الناتج من التغير المناخي . فما سجله هؤلاء الرحالة لا يغطي أكثر من قرن ، وهي تنكر كثيراً من فضلهم في اعتبار مثل هذا الاتجاه التدريجي تغيراً مناخياً . ولكن اتفاق إشارتهم مع الاحتلال الأوربي لشمال غرب إفريقيا يجعلهم دلائل ذات قيمة على ما كان له من أثر اقتصادي وسياسي على الصحراء .

فمع مجيء حكومة مركزية قوية إلى الممالك التي تقع شمالى وجنوبى الصحراء أصبح الانتقال من الصحراء إلى المرتفعات الحسنة الرى ومناطق السفانا في المغرب والسودان الغربى أكثر صعوبة ، إذ قوبل المغيرون بمقاومة لم يألّفوها من قبل . وأصبح تموين الصحراء لروادها أقل سهولة وأغلق إلى حد صام الأمان على حياة الصحراء ، وكانت النتيجة أن ازداد القلق السياسى . وأغار الأقوياء على الضعفاء من أجل الاستيلاء على أبارهم ومواطن الماء والمراعى والقطعان . وأصبحت الحياة مخاطرة لزراع الواحات الذين لم يشعروا بالأمان مطلقاً على حياتهم وحاصلاتهم من جراء الجوع والمغيرين — وهبط إنتاج الواحات كما هبطت موارد الصحراء . وتقهقرت بشكل واضح فكانت سببا في ازدياد أسباب القلق العام . وأثر سحق غارات تجار



الرقيق في السودان الغربي على الواحات ، وما زال هذا الأثر كبيراً ، فعلى نحو جميع البدو الرعاة ، احترفت قبائل الواحات بعض الزراعة وأوكلتها إلى رقيقهم . وكان للعرب رقيقهم من الحاراتين . وللطوارق رقيقهم من البوزو أو البلا ، وكان الإثنان من زنوج السودان . وعلى طول الطريق من النيل حتى المحيط الأطلنطي أصبحت غارات قبائل الغابات البدائية التي تسكن أقصى الجنوب ، عادة تحدث في وقت الجفاف التقليدي هجوم الشعوب الإسلامية التي تسكن إقليم السفانا حيث يبيعون ما فاض من رقيقهم إلى الصحراء . وإذا ما أقيم الحكان الإنجليزي والفرنسي بين الصحراء وساحل غانه توقفت غارات الرقيق ولم يعد العرب والطوارق بقادرين على شراء رقيقهم لزراعة واحاتهم . ولما لم يكونوا متعودين على الزراعة بأنفسهم ، انكمشت الأرض الزراعية وزحفت عليها الصحراء ، وبذلك أصبحت الحياة أكثر صعوبة ، والواحات كالآبار تجف وتموت وتتوقف الزراعة فيها ، فكانت النتيجة أن فقدها الإنسان . وافتتاح طرق التجارة من السودان إلى البحر . وشق الطرق عبر الغابات ، وبناء السكك الحديدية ، نقل التجارة البرية القديمة المعتمدة على الحمل من البطء وارتفاع التكاليف والخطورة إلى السرعة والرخص والأمان ، واستيراد الملح من أوروبا قتل تجارة الصحراء التي كانت أئمن منها . والقضاء على تجارة الرقيق حرم طرق القوافل من أئمن مواردها . وتوقفت المحافظة على آبار الطرق إذ لم تعد هناك قوافل تستعملها . وفي وجه ازدياد عدم الأمان العام جفت الآبار ومواطن الماء الأخرى ولم يهتم أحد بإيجاد بديل لها . وكانت هذه علامات الانحلال التي أثرت على المسافرين في الصحراء فدفعت بهم إلى أن يشهدوا عواقب تغير المناخ . وأصبح الإنسان مسئولاً عن هذا التقهقر الذي شهده ، ويعود الفضل إلى الفرنسيين في أن أصبح الإنسان — بعد ما بدا من صراع ميؤوس منه ضد الطبيعة — قادراً بل ناجحاً في التحكم فيه .



ففى الصحراء كما فى المغرب وكذلك فى السودان ، تظهر هناك دورات مناخية، فترات من زيادة الجفاف تتبعها أخرى من زيادة الرطوبة وربما كان هناك فقد واضح للرطوبة . ولكنه أمر يسير لا يميزه المؤرخون . والمؤلفون القدامى كلهم يصورون صورة سوداء لما كانت عليه الصحراء فى أيامهم ( ليبيا كانت مليئة بالحيوانات الوحشية) فقد ذكر هيرودوت أن ( وراء منطقة الحيوانات الوحشية توجد منطقة من الرمال نادرة الماء بل هى صحراء تامة ) ومما ذكره بلىنى ( بعد ذلك بخمسمائة سنة ) — ( أنها صحراء تركت للرمل والبعابين ) وفى عصر من العصور لم تكن الرحلة إلى الصحراء إلا مخاطرة . فإلى ما قبل عصر هيرودوت كان من المحتمل أن يفنى جيش كامل ، وهكذا كان مصير حملة قمبيز التى أرسلت لهدم معبد أمون فى سيوه الحالية إذ هبت عليها ریح قوية مميتة من الجنوب حاملة معها أعمدة متوالية من الرمل الناعم غطت الجنود تماما وأدت إلى إختنائهم وعلى هذه الصورة — استناداً إلى الأموتيين — فى الجيش الفارسى .



(٢)

## الياقوت والذهب

كتب هيرودوت أن الجارامانتس كانت لهم عربات تجرها أربعة جياد، وبها يصطادون التروجلوديت السود الذين هم - من بين شعوب الأرض التي وصلت قصصهم إلى أذاننا - أسرعهم قدما . ولغتهم تشبه نعيق الوطاويط ، وليس هناك من شك مطلقا حول حقيقة الجارامانتس الذين هم شعب فزان ، وعاش الاعتقاد أن التروجلوديت هم التيبو الذي يعيشون في تيسى مدة طويلة و كلامهم ينطبق عليه وصف هيرودوت .

ولكن قصة هذه العربات ذات الأربعة خيول التي كانت تستعمل في قلب الصحراء تبدو حتى الوقت الحاضر غير محتملة . ومع ذلك فرسوم العربات ذات الحصانين والثلاثة ، المرسومة على الصخور التي اكتشفت في بعض الأوقات وأخيراً في وادى زجرا في قلب إقليم جارامانتس — غير واضح ، ولكن لا تخطئه العين لعربة ذات أربعة خيول<sup>(١)</sup> وهذا إلى جانب رسوم الآلهة ذات الرؤوس الحيوانية التي وصفها هيرودوت وعبارته التي تدعو إلى الدهشة من أن الرحلة إلى جارامانتس استغرقت ثلاثين يوماً من إقليم لوتوفاجى Lotophagi كما أطلق على الإقليم الساحلى الذى يقع بين سرتس الصغرى وسرتس الكبرى ، كل هذا يبين بوضوح أن كثيراً من المعلومات عن داخل الصحراء كانت معروفة في تلك الأيام، بل كان هناك اتصال بين شعوب الساحل والداخل ولكن في هذه

---

(١) إن الاكتشافات الحديثة لكثير من رسوم العربات ذات الخيول في أقصى الغرب من الصحراء يدل على أن هذه العربات كانت في وقت من الأوقات كثيرة الاستعمال في الصحراء (موني . مجلة المعهد الفرنسى لإفريقيا السوداء . العدد التاسع لسنة ١٩٤٧ ص ٣٤١ - ٥٧ )



الأيام لم يكن الجمل قد عرف بعد فكيف سافروا في الصحراء ؟ وكيف كان هذا السفر ممكنا ؟ ربما كان هناك قليل من الشك في أن نجد الإجابة في استعمال الثور .

كان استعمال الثور شائعا جنوب الصحراء في غرب السودان . وما زال يستعمل في الصحراء في إقليمى فزان وايرى . فقد وجدت رسوم متكررة للإنسان راكبا الثور أو لهذا الثور يحرك العربات، فمنذ قرن تقريبا عثرنا ختيجال Nachtigal فى تبستى على رسوم الماشية عليها سروج، وفى السنين الأخيرة عثر على جملة رسوم مماثلة فى إقليم أحجار Hoggar . وكلها تعود إلى تاريخ مبكر . وعند التيبو قصص تقول أنهم كانوا يستعملون الثور قبل أن يصل إليهم الجمل .

لم تعد الثيران تستعمل خارج الواحات الكبرى . فليس من السهل أن نقرر قدرتها على السفر بدون الماء بالمقارنة إلى الجمل ويخبرنا ف . رود (الأن لورد رنل Rennell ) أن الثيران المحملة تستطيع السير فى راحة بالماء فقط مرحلة ثلاثة أيام، كما يقول أيضا إنه يبدو أننا لا نستطيع تصديق أن الماشية غير المحملة تستطيع السفر بدون الماء أربعة أو خمسة أيام . والتجربات الحالية للكاتب تقوده إلى أن يصدق أن الماشية تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك . فقد أخبره أحد الرعاة فى شمال تنجانيقا أنه فى قمة الفصل الحار لم يكن يسقى ماشيته أكثر من مرة كل خمسة أيام ، ولم يكن يبدو عليها ما يدل على أنها تقاسى صعوبة ما . وفى خلال الحرب الأخيرة لم يجد الضابط البيطرى الذى كان يسوق الماشية بانتظام من الصومال إلى ممباسا من أجل ذبحها أية صعوبة فى منع ماشيته من الشرب خلال ثمانية أيام متوالية . وهى لم تكن تحمل أثقالا . ولكن كان مطلوبا منها أن تسير مسافة أكبر دون الاحتياج إلى الماء وإذا كانت الحرارة نهائيا أقل مما كانت فى الصحراء لم تكن



هناك الليالى الباردة التى تشجع على العمل . ويبدو أنه من المعقول أن نظن أن الحيوان قادر على تحمل العطش لثمانية أيام فى الإقليم الساحلى الحار فى شرقى إفريقيا وربما يستطيع التعود على أن يفعل ذلك فى الصحراء . وربما كان تمرسه على أن يفعل ذلك وهو يحمل موضع الشك . وماشية الصومال التى تعودت لسلاسل عديدة نقل الأنقال فى طرق التجارة الصحراوية قد تستطيع ذلك .

والجمل فى العادة لا يتحمل العطش أكثر من عشرة أيام فليس هناك إذن من فرق فى هذه الحالة بين الجمل والثور فقدرة كليهما على الحمل واحدة . وفى السودان الغربى يستطيع الثور أن يسير عشرين ميلاً فى اليوم وهى أقل قليلاً من قدرة الجمل . ولو أن الثور يسير أبطأ . فهو لذلك يستغرق وقتاً أطول لينتقل من بئر إلى بئر مما يضع حداً لقدرته على السفر وطبعاً لم تكن تربية جمل الركوب - حتى مجيء المهر - من أجل سرعته حتى اكتسبت القبائل العربية الحركة المدهشة .

وليس هناك من سبب لنظن أن حركة النقل فى الصحراء أصبحت ممكنة بوصول الجمل . فإذا كانت الآبار وفجوات الماء أكثر قليلاً مما هى الآن فإن السفر بالثور على طرق القوافل الكثيرة كان أكثر صعوبة مما هى بالجمل .

وربما استعمل الحمار مع الثور لأن الأول — كما رأينا — يملك قدرة فائقة على السفر بدون الماء . كما يستطيع أن يحمل نصف حمولة الثور وأن يقطع عدة أميال فى اليوم الواحد وقد استعمل فراعنة الأسرة العشرين الحمار لحمل الذهب من مناجم الصحراء الشرقية فسكان جبال أحجار Hoggar الذين لم يعرفوا الجمل من نوعى الاسبتان أو الجوحالة Iseletan or Djohala مازالوا يستعملون الحمار .

وفى أيام هيرودوت لم يكن طابع الحياة العام فى الصحراء يختلف كثيراً عما



هو في الوقت الحاضر . فمن أجل الحياة كانت القبائل تخضع لنفس الحاجة إلى استعمال نفس المصادر الصحراوية العجفاء إلى أقصى طاقة ممكنة، كما كانت الهجرات الموسمية من الصحراء إلى التلال والهضاب الشمالية طابع الحياة العادي في الصحراء . ولم يكن هناك بالطبع ( حاجز صحي ) يمنع البدو عن القبائل المستقرة . فالاتصال بين الصحراء والمدن كان مستمراً . وهذا الاتصال بالطبع يعني التجارة وربما كانت مواد التجارة لا تزيد عن البلح والحبوب . ولكن يحتمل أنها شملت أشياء أخرى . ولا بد أن تبادل الأفكار صحب تبادل التجارة ولكن أكثر من ذلك تبادل المعلومات الجغرافية . فمن الشمال جاءت قصص البحر الواسع والقوم الغرباء والسفن التي كانت تبحر منها، ومن الجنوب أنت أخبار الواحات النامية في قلب الصحراء، وأكثر من ذلك أخبار الأرض الخصبة المزدهمة بالسكان التي تقع وراء الصحراء فلم يكن هناك إذن من شيء غريب في معرفة هيرودوت بجارامانتس .

وعلى مدى عصور التاريخ كانت التجارة أهم دافع للكشف الجغرافي، فحتى الوقت الحاضر يندر الكشف لأجل الكشف، ولكن الرغبة في البحث عن مصدر المنتجات الثمينة والغريبة والبحث عن مصادر الثروة والإلتفاف وراء الوسيط من أجل خفض ثمن الشراء شيء طبيعي في الإنسان . فالإنسان لا يستطيع أن يفترض أن سكان شمال إفريقيا كانوا أكثر حرية من غيرهم في التلطف على الناس إلى حد أن اتصاهم بالبدو لم يوقظ الرغبة في البحث عن الواحات المزدهرة فحسب، بل أيقظ أيضاً الرغبة في الوصول إلى السهول الخصبة التي تقع في أقصى الجنوب .

وقد سمع هيرودوت عن مثل هذه المحاولة من بعض أهالي سيرين . سمع عن خمسة من الشبان الوحشين الذين كانوا أبناء لزعيم من ناسامونيا Nesamonian من سيرتس الكبرى، خرجوا للكشف أجزاء من صحراء



ليسيا بغرض التوغل فيها أكثر ممن سبقوهم . فحملوا معهم كيات كبيرة من الماء والمؤونة وقطعوا الصحراء في إتجاه غربى . وبعد أن ساروا أياما كثيرة فى الرمال وصلوا سهلا به أشجار محملة بالفاكهة . وبينما هم يجمعونها فوجئوا ببعض الزنوج القصار يتكلمون بلغة لا يدر كونها وقبضوا عليهم . وحملوهم مسافات كبيرة عبر مستنقعات واسعة حتى وصلوا مدينة يتكلم سكانها نفس لغة هؤلاء الذين أسروهم . وكان فى المدينة نهر يفيض بالماء تسبح فيه التماسيح يجرى من الغرب إلى الشرق . وأخيرا عاد هؤلاء المخاطرون الشبان آمنين إلى مدينتهم، وظن هيرودوت كما ظن الملك الأمونى Amonian أن النهر الذى اكتشفوه هو النيل . ولكن يحتمل أن يكون النيجر .

وكان الفينيقيون أيضا تجاراً مخاطرين وكانوا محترفين إلى حد أنهم لم يدهشهم شيء عن داخل إفريقيا ولكنهم كانوا بحريين إلى حد أنهم يخاطرون هناك بأنفسهم. (وكانوا كالبجارة البرتغاليين الأولين فى الهند الذين شبههم أهلها بالأسماك لأنهم يهلكون إذا تركوا البحر) وكان هذا أقل صدقا عن أقربائهم القرطاجنيين الذين أسسوا أولا سيادتهم على المهاجر الفينيقية فى شمال إفريقيا، ثم تقدموا وطوروها إلى مستعمرات للوطن الأم . حتى إذا كان القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت قرطاجنة أمّا تدين بانتعاشها إلى خصوبة ظهيرها وإلى حد كبير إلى الأرض التى يملكونها ملكا مباشرا .

وإلى الشرق والغرب على طول الساحل — وخلف عمود هرقل أسست قرطاجنة لها مستعمرات كان أغلبها فينيقيا . ولكن حيث قنع الفينيقيون بمستعمرات صغيرة مع قدر صغير من الإدارة، خرج منهم مبعوثون يؤمنون بمصالحهم التجارية ، وكانت المستعمرات القرطاجنية مواطن دائما لكثير من مواطنيهم ، وكل منها تتاجر لحسابها معتمدة على نفسها إلى حد كبير . وخلال الألف سنة التى احتلوا فيها المنطقة الساحلية كانت المصالح القرطاجنية



في أغلب الأحوال تجارية بحتة ، وامتدت حتى شملت كل الجزء الغربي من البحر المتوسط الذي تسودته قرطاجنة وكذلك ما خلف البوغاز . ولا بد أن وجودهم اعتمد إلى حد كبير على إفريقيا . على فواكه أرضها من أجل حياتهم . وإلى حد أقل على المنتجات الخفيفة الحمل لتجارتهم . وعلى ذلك كانت علاقتهم بشعوب منطقتهم وثيقة على عكس أسلافهم الفينيقيين . فربطتهم بهم مصالحهم المشتركة وإلى حد دائم النمو علاقات المصاهرة ، فكان نمو المستعمرات واعتماد كل منها على ما يحيط بها من الأرض تشجعه العزلة . وإلى انحذارهم من صلب الفينيقيين يعود فضل احتفاظ القرطاجنيين بالصفة البحرية . واحتلالهم للشاطئ لم يكن متصلاً من الوجهة الجغرافية إذ لم يكونوا يريدون من الأرض أكثر مما كان ضرورياً لتجارتهم ووجودهم ، ولذا كانت مستعمراتهم لا تزيد عن كونها نقطاً متفرقة تفصلها عن بعضها مسافات قاحلة من الشاطئ لم يكن لهم بها حاجة أو منفعة .

وقرطاجنة نفسها كانت مدينة أكبر من أن تكون مجرد مركز يكتفي احتياجهم . لأنها كانت تعتمد إلى حد كبير من أجل مؤونتها والدفاع عن نفسها على ما يسمى حالياً بتونس ودانت لها كثير من القبائل البربرية بالسيادة وبالرغم من أن حدود الحكم القرطاجني فيما وراء المدينة لم يكن معروفاً إلا أنه لا بد أن يكون متسعاً ، لأن الإفرقيين كونوا جزءاً كبيراً من الجيوش الضخمة التي ملكتها قرطاجنة ، وكثرة من تخلى عنهم هامليكار في سراكوز من فرقة الإفريقية ليدبجهم أو يسترقيم الإغريق تعطينا فكرة عن وفرة الفرسان النوميديين في جيش هانيبال . فالحاجة السياسية والاقتصادية هي التي أرغمت القرطاجنيين على توسيع ما حول امبراطوريتهم في إفريقيا ، فشاطئها الطويل الغني في الموانئ جعلها قاعدة ممتازة ، استطاعوا منها أن يؤسسوا لهم تجارة بحرية واسعة ويحافظوا عليها . فقرطاجنة نفسها



مثل المهاجر البونية الأخرى — جمعت بين ميزة ميناء الدرجة الأولى وميزة الموقع الذى يحسن الدفاع عنه، ولكنها أضافت إلى ذلك أيضا المركز المتوسط الذى يتحكم فى المضائق والبحر المتوسط الذى هو أعظم طريق تجارى فى العالم . فهذا الجمع لهذه الظروف جعلها العاصمة الممتازة لمثل هذه الإمبراطورية .

فوقع قرطاجنة الاستراتيجية البالغ القوة، وكذلك موقع مدينة قادز المدينة الثانية فى الإمبراطورية خلف المضيق مكن القرطاجنيين — الذين لم يكونوا متسامحين بالمرّة مع الدخلاء — من أن يمنعوا أى تدخل من الغرباء فى تجارتهم. فقد استبعد الرومان بمقتضى معاهدة من كل الأراضى التى أسس فيها القرطاجنيون مراكزهم التجارية . وكذلك أهل صقلية وسردينيا وجنوب أسبانيا أغلقت فى وجوههم . فلم تكن أية سفينة رومانية ترغم على اللجوء إلى أية ميناء بونية تمكث أكثر مما تضطرها ظروف الإصلاخ أو المناخ، وكان اجتياز المضائق ممنوعا لئلا يعلم الغرباء أن القرطاجنيين كانوا يحملون على الصفيح أو الصلب من كورنول Cornwall أو بريتانى Brittany ويروى سترابو كيف أن قائد إحدى سفن قادز كان يتجه إلى بحر المانش، حين وجد نفسه متبوعا بإحدى السفن الرومانية فدخل بسفينته إلى الأرض وحشر السفينة وما تحمله من بضاعة، ولكن بعد أن جر السفينة الرومانية معه . وكان شاطئ شمال إفريقيا غرب سيراينكا مغلقا كذلك أمام الأجانب . فقد أرغم الإغريق فى القرن السادس على أن يتخلوا عن مهجر أقاموه على الشاطئ فيما بين سيرتس الكبرى والصغرى . وبعد قرن منعوا بمقتضى معاهدة من أن يتجهوا إلى غرب مذبج فيلاينى Altars of the Philaeni فهذا الطرد الجاف لكل من الإغريق والرومان من كل المنطقة غربى سرتس الكبرى ينعكس على ندرة المعلومات التى أعطاها المؤلفون القدماء عن تجارة القرطاجنيين الإفريقية وما ينتج عن ذلك من جهلنا لطبيعتها وامتدادها .

( م ٣ - الممالك الإسلامية )



وقد صنعت قرطاجنة مصنوعات رخيصة للتصدير، ولكن تجارتها وكذلك مستعراتها التابعة لها كانت من نوع الوساطة أى حمل البضاعة من دولة أجنبية إلى أخرى . وتبادل المواد الخام لدولة ما بمواد مصنوعة لدولة أخرى . فالقرطاجنيون لم يكونوا معتمدين على إفريقيا نفسها من أجل تموين تجارتهم . حقا كانت القبائل البربرية الساحلية بدائية وبلادهم فقيرة إلى حد أن لا تجعل المغرب مشتر كافى التجارة البونية الواسعة، فالصوف والجلود والخشب والصبغة والعاج وريش النعام كانت أهم المنتجات المحلية التى وجدت طريقها إلى الموانى الأجنبية وإن كانت على غير نطاق هام . فلكياتها المعتدلة لم تستطع التجارة الإفريقية الخالصة أن تكفى لتكون تجارة القرطاجنيين الواسعة العظيمة الانتشار .

نبح القرطاجنيون إلى حد بعيد فى إخفاء سر تجارتهم، حتى أننا لا ندعى الدخول إلى دخائل ظروفها . فكل ما نعرفه على وجه التأكيد ، إنهم حصلوا على الياقوت من جارا مانتس، وأن هذا الياقوت كان يعرف فى أوروربا بأنه حجر القرطاجنيين، وبالرغم من أن بليني كتب كثيراً عن الياقوت الإفريقى ويؤكد أهمية قرطاجنة كمورد هام له ، فهو أو أى كاتب آخر لم يشر إلى مدى أهمية هذه التجارة بل من الواضح أنه بعد سقوط قرطاجنة وجد الرومان هذه التجارة تستحق منهم متابعة الجهد .

وعلى ذلك أصبح — على مدى التاريخ — أسهل مدخل يقود من البحر المتوسط إلى الجنوب يقع فى منتصف الطريق بين سيرتس الكبرى وسيرتس الصغرى فقد أطلق القدماء على هذا الساحل القفر الممتد شرقا وغربا من مدينة طرابلس الحالية اسم إمبوريا Emporia بالرغم من أنه كان لهيرودوت أرض لوتوفاجى Lotophagi فعلى طوله فى فترات قصيرة كانت هناك ثلاث مراكز تجارية قرطاجنية هامة هى سبرته sabrethe وإيا Oea



( طرابلس ) ولبسيس؛ وهذه الأخيرة كانت أقرب المراكز إلى الموارد الطبيعية لهذا الجزء من الساحل وظهيرها المباشر يبرر ذلك، ولما لم يكن هناك من أسباب سياسية أو حرية خاصة لمثل هذا الإزدحام في هذه النقطة، فالنتيجة تجرنا إلى الاعتقاد انها تؤدي إلى المدخل الجاهز الذي تهيئه للولوج إلى الداخل، فإذا صبحت القصة التي يرويها اثنايوس Atheoaus عن قرطاجتي يدعى ماجو Mago من أنه عبر الصحراء ثلاث مرات فلا بد أن هذا هو الطريق الذي اتبعه .

وكانت طرابلس تحمل اسم بوابة الصحراء وظلت تعتبر كذلك حتى القرن التاسع عشر حين اختارتها مجموعة من المستكشفين العظام خاصة ليون، دنيهام، أودني وكلابرتون والفيبرارث كقاعدة بدأوا منها رحلاتهم نحو قلب القارة، وإلى طرابلس أيضا — قادما من بحيرة تشاد مخترقا طريق جaramants سار الجنرال لكليز Leclerc على رأس فرقة عام ١٩٤٣، وشيء آخر يشير إلى أهمية هذا الساحل للقرطاجنيين هو أنهم حددوا مذبح فيلايني حداً غربياً أخيراً للأملاك الإغريقية وكانت جيدة جداً إلى حد أن فكر الإغريق في استعمال طريق جaramants إلى فزان.

وإذا لم يكن الياقوت وحده — وماذا غيره أعطى طريق جaramants أهميته؟ فأي تجربة أخرى قد ساعدت على إقامة إمبوريا Emporia؟ لأجل أن نجيب على ذلك يجب أن ننظر إلى الاستعمالات التي من أجلها استعمل الطريق في الأيام الأخيرة. عندما رفع الحجاب عن سرية التجارة. فحتى القرن الأخير كان هناك الرقيق والذهب والعاج وريش النعام بمثابة دم الحياة لتجارة البحر المتوسط مع فزان، وفي أيام قرطاجنة كان هناك كثير من الفيلة والنعام في شمال إفريقيا ولم يكن هناك من حاجة للسفر إلى الجنوب للحصول على العاج والريش وهذه هي نفس الإجابة بشأن الذهب والرقيق.



وقد استخدم القرطاجنيون عدداً هائلاً من الرقيق لا سيما في زراعة المزارع التي ملكوها في ظهير العاصمة، ونجح الزراع الماهرون في جعل زراعاتهم ناجحة. وتاجروا أيضاً في الرقيق وكان لسكان البليار سوق خاصة ثمينة، لأن أهل الجزر كانوا يبيعون كل ثلاث رجال بامرأة تروق للقرطاجنيين. وهؤلاء الذين خدموا في الجيش القرطاجني تعودوا أن يستثمروا أجرهم في النساء والخمر. وإلى أي حد استخدم القرطاجنيون الرقيق الأسود مازال موضع شك، فالمقابر البونية حوت كثيراً من الجماجم لأجناس سوداء. وكان هناك بعض الإفريقيين من ذوى البشرة السوداء الغامقة ربما الزوج بين أفراد الجيش القرطاجني الذي غزا صقلية في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد. ويخبرنا فونتينيوس Fontinus أنهم استعرضوا أمام الإغريق من أجل إذلال القرطاجنيين. ومن ناحية أخرى، فإنه لما كانت عادة القرطاجنيين استعباد أسرى الحرب كضحايا لقرصنتهم، أصبح هناك مصدران مثيرين إلى حد أنهم لم يعودوا يعتمدون على عمل الرقيق الإفريقي—ولذا ترددوا كثيراً من استعباد البربر حين أرادوا لانهم كانوا أغبياء لا يعملون ما يطلب منهم في الزراعة. ودليل الدم الزنجي ظاهر. ويبدو أنه من المحتمل أن يكونوا قد استوردوا الرقيق من فزان. كما كان هناك مصدر آخر لأن الجارامانتس لم يحاولوا اصطیاد التروجلوديت السود إلا من أجل استرقاقهم، فتجارة الرقيق مع فزان ربما كانت مهمة هي الأخرى للقرطاجنيين ولكن ليس هناك من أساس للتخمين في ذلك، ففي القصة المضطربة التي لا تستند على وثائق لشمال إفريقيا كان يوجد خيط من الذهب يسير عبر الصحراء بين ممالك الشمال وممالك الجنوب. فمن وادي النيل في الشرق إلى المحيط الاطلنطي في الغرب كانت هناك حركة تجرى في الذهب مع داخل أفريقيا خلال جميع عصور التاريخ المدون: رقيق وذهب. وذهب ورقيق كانت بمثابة دم الحياة لتجارة المغرب مع السودان.



وكان الذهب يفيض إلى الشمال عن طريقين طريق جارامانتس من فزان إلى طرابلس ، وطريق تغازة Taghaza من النيجر إلى سجلماسة في مراکش . الأول في الشرق والآخر في الغرب، وكان الفيضان ثابتين وكانت هناك مناسبات أمسك فيها العالم بشعاعات رقيقة من الذهب في كميات نمت بوضوح عن الثروة الخرافية المخبئة في الداخل . ففي القرن الرابع عشر قدم منسا موسى من داخل الصحراء ليثير دهشة مصر والعالم العربي بما حمله معه من الذهب، وبعد ذلك بقرنين ونصف أترى مغاربة مراکش بالذهب من جراء غزوهم لممالك النيجر الأوسط إلى حدان تصارعت القوى المسيحية مع الأتراك من أجل سيادتهم على هذا الجزء ، فالمكان الذي كان يرد منه الذهب مشكلة حاول المسلمون والمسيحيون حلها دون توقف . كما كان مشكلة بعثت الروح في أعظم حركة كشفية في العالم . ولكن حرص المشتغلون في هذه التجارة على أخفائه إلى حد أن الأمر لم ينكشف إلا في العصور الحديثة جدا .

وفي أمام هيرودوت كان هناك اتيوبيون يعيشون على مجرى النيل من بعيد، وكانوا أغنياء كما يذكر لنا إلى حد أنهم كانوا يربطون أسراهم في قيود من ذهب، وقد حمل إغريق العصر الهوميروى سفنهم حمولة كاملة من ذهب مصر . وإلى أقصى الغرب أيضاً كانت هناك تجارة في الذهب مع الإفريقيين على الشاطئ الاطلنطي . ولم يذكر هيرودوت ولا أى مؤرخ آخر شيئاً عن تجارة الذهب بين هذين القطبين الشرقي والغربي . فتجارة الذهب عبر الصحراء لم تكن قد ولدت بعد وإذا كان القرطاجنيون لم يذكروا لأحد شيئاً عنها فليس هناك من شيء مؤكد عنها .

ويحدثنا ثوكيديس Thucydides أن القرطاجنيين كانوا أغنياء في الذهب، وقد تأكد هذا إلى حد ما بكمية مقدار الذهب الذي وجد في المقابر البونية . إذ أدهش بليني أن الغرامة التي فرضها الرومان على قرطاجنة دفعت بالفضة



بدلاً من الذهب لا بسبب ندرة الذهب في قرطاجنة ولكن في العالم . وقد احتفل بانتصار سيديو باستعراض بديع للذهب الذي كان كله بونيا . ولكن ليس هناك من دليل على أن القرطاجنيين تاجروا في الذهب في البحر المتوسط . فالقول بأن أساس الظن بأن تجارة الذهب كانت السبب للاهمية التي ربطتهم بالطريق الجارامانتى خاطيء إلى حد كبير . وبالرغم من ذلك ظن ستيفان جزل Stephane Gzell أنه يمكن أن تكون . وعلى كل حال من الصعب أن تقبل أراءه في أن الذهب الذي حملة القرطاجنيون من فزان أتوا به من حقوله البعيدة عند أعالي النيجر فقد كان هناك — كما سنرى في الفصول القادمة مصادر أخرى محتملة له ومنها فزان .

وقد يكون الذهب والرفيق إذن تفسيراً محتملاً لاهتمام البونيين بطريق جارامانتس ولكن أسس إدخال الذهب أضعف ولا تزال أضعف إذا أخذنا في حسابنا أن ثروة القرطاجنيين في الذهب لا تظهر أكثر مما تحمل لهم حملة من غرب أفريقيا حيث يظن أنهم حصلوا عليه بأية كمية وبأية وسيلة في هذا الشأن . وفي رواية عن شعوب الساحل الغربي الإفريقي يذكر لنا هيرودوت أنه على بعد من الساحل — كما يذكر القرطاجنيون — ( تقع جزيرة تسمى سيرونس Cyraunis بها بحيرة تخرج منها شابات القرية تبيع الذهب بأن يغرسن في طينها ريش الطيور مغموسان بالقطران ولا أدرى ما إذا كان ذلك صحيحاً أم لا ولكني أكتب ما يقال ) .

ويروى القرطاجنيون أيضاً أنه توجد منطقة في ليبيا ، وشعب وراء عمود هرقل اعتادوا أن يزوروه ، وما أن يصلوا إليها حتى يفكوا أحماهم . ويرتبوها بطريقة خاصة على طول الساحل ، ويتركوها ويعودوا إلى سفنهم حيث يرفعون دخاناً كثيراً حين يرى الأهالي الدخان ينزلون إلى الشاطئ ، ويضعون مقابل ما ترك الأولون ذهباً يعتقدون أنه يعادل ما تركوه من بضائع . ثم ينسحبون



بعيداً . ثم يعود القرطاجنيون وينظرون ، فإذا رأوا أن ماترك من الذهب يكفي تمنا لبضاعتهم أخذوه وانصرفوا في طريقهم ، ولكن إذا لم يكن كافياً يعودون إلى سفنهم مرة أخرى وينتظرون صابرين ، فيقترب أهل الجزيرة ويضيفون إلى ما تركوه من الذهب مقداراً آخر حتى يرضى القرطاجنيون . ولا يظلم أحدهما الآخر لأنهم لا يمسون الذهب حتى يرتفع إلى مقدار يعادل تجارتهم ، كما أن الأهالي لا يحملون البضاعة حتى يروا الذهب قد أخذ .

وهنا يجدر أن نسأل كيف يكون الحال إذا كان القرطاجنيون حريصين على سر تجارتهم في الشرق . فكيف يسمحون بأن يعرف ما كانوا يعملونه في الغرب ؟ والجواب على ذلك أن الظروف السياسية والجغرافية جعلت السرية غير ممكنة . ففي زمن هيروdot ربما يكون القرطاجنيون قد احتلوا قاذر ولكنهم لم يتسودوا أقصى جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية تماماً وعلى ذلك لم يكن بإمكانهم أن يتحكموا في المضائق ، وحين استطاعوا ذلك لم يكونوا قادرين على أن يخفوا عن أوروبا ما كان يجري في نقطة تقترب فيها أفريقيا من أوروبا إلى هذا الحد حيث لم تكن الحركة تجرى في سلام بعد بين القارتين . وكما يذكر لنا سترابو بأن شعب أسبانيا الفقير كان يعمل في صيد السمك في قورا بهم الصغيرة حول ساحل موروسيا Maurusia على نهر ليكسوس Lixus فبقية إمبراطوريتهم الإفريقية إذن تطل على بحر لا يتحكمون فيه . وهناك — كما يقول سترابو — اعتادوا أن يلقوا إلى البحر بأى غريب مر بسفينة على بلادهم يقصد سردينيا أو البوغاز .

والآن هانحن نصل إلى حقيقة تاريخية صلبة ولكن ترجمتها لسوء الحظ سوف تعود بنا رأساً إلى البحار الخطرة التي يجرى فيها الاتصال والتقابل . فحين هزم الرومانيون قرطاجنة دمروا أهم سجل تاريخي ، وهو كتابة بونية كانت في معبد خرونوس Chronos تخلد ذكرى الحملة القرطاجنية المشهورة



على غرب إفريقيا تحت قيادة هانو Hanno ، ولحسن الحظ كان الإغريق والرومان قد نقلوها فعاشت ولكن بصورة شديدة الاضطراب . ومسألة الكشف عما سمى بمخاطر هانو عن طريق حقائق جغرافية جامدة، قد استنفدت جهود دارسين دؤوبين كثيرين . وإن لم يصل اثنان منهم إلى نتيجة واحدة ثابتة ، وبالجملة فإن الرحلة لم تؤثر شيئاً . ولحسن الحظ في متناقضات لا تنتهى فانه يكفي ملخص مقبول مبسط للقصة .

ولسنا في احتياج لأن نشغل أنفسنا بتاريخ غير معروف وإن كان من المحتمل أن يكون في القرن الخامس قبل الميلاد. فقد أرسلت دولة قرطاجنة حملة لتؤسس لها مستعمرات على الشاطئ . الافريقي خلف اعمدة هرقل ، ويقال أنها كانت مكونة من ستين سفينة تحمل مالا يقل عن ثلاثين ألف رجل وامرأة . (أغلب الظن أن أحد الرقمن خطأ وربما الاثنان) أما لماذا أوكل أمر هذه الحملة إلى أحد حاكي الدولة فهذا أقل أجزاء القصة غرابة ، وبعد رحلة دامت يومين خلف المضيق . أسسوا أول مستعمرة هي تيمياتيرون Thymiaterium التي قابلت المهديّة عند مصب وادي سيبو وبعيداً إلى الغرب أتوا إلى منطقة غاية تسمى سولويسيس Soloesis وهي إما أن تكون رأس كانتين Cantin أو رأس غير Glir ، وبنوا عليها معبداً لبوزيدون Poseidon واستمروا أيضاً في رحلتهم تجاه الساحل وأسسوا خمس مستعمرات أخرى واكتشفوا نهر ليكسوس Lixus حيث تصادقوا مع أهل الإقليم من الرعاة ( Lixitae ) .

وإذا ما حصلوا على مترجمين من الليكسيين ( أهل ليكسوس ) ، تابع القرطاجنيون رحلتهم جنوباً موازين للشاطئ . الصحراوي ، حتى وصلوا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة أطلقوا عليها اسم سيرن Cerne ، حيث أسسوا مستعمرة أخرى ، ويظن أن سيرن هذه هي هيرن Herne وقد تكون أرجوين .



ووصلوا بعد ذلك إلى نهر، أطلقوا عليه اسم كريتش Chretes كان يعج بالتماسيح وأفراس النهر ويظن أنه السنغال وعادوا بعد ذلك إلى سيرن، وتابعوا الرحلة جنوباً بجانب الشاطئ، أيضاً ووجدوا شعباً لم يفهم لغته مترجمو ليكسوس، واجتازوا خليجاً ربما يكون مصب نهر جمبيا، ثم رأساً ربما يكون عند شاطئ سيراليوني، وأخيراً وصلوا أرضاً مغطاة بألسنة اللهب تخرج منها تيارات نارية تصب في البحر، وفوق الرءوس كانت تدور نار أخرى أشد من الأولى حتى خيل لهم إنها تمس السحاب فأطلقوا عليها اسم مركب الآلهة، وربما تكون هذه هي جبال كامرون التي رأوها خلال ثورانها وكان حظهم حسناً إن كانوا بعيدين فخافوا أن يقربوها .

ولثلاثة أيام أبجروا خلال مسالك بين النار حتى وصلوا خليجاً أطلقوا عليه اسم القرن الجنوبي . وربما كان نهر الجايون . وهناك اكتشفوا جزيرة ملأى بالمتوحشين أغلبهم من النساء . ولهم جلود غزيرة الشعر وأطلق عليهم المترجمون اسم الجوريلا ولم تنجح جهود القرطاجنيين في القبض على بعض الرجال ولكنهم قبضوا على ثلاث نساء ظللن يحمسن أسريهم وبعضهم حتى اضطر أفراد الحملة إلى قتلهن ، ولكنهم احتفظوا بجلودهن إلى أن وصلوا بها إلى قرطاجنة فعلقوها في معبد تانيت Tanit ، وسواء كان هؤلاء الضحايا من الأقزام أو القروء فانهم كانوا موضع مناقشة ، وإن لم تكن هذه المسألة بهامة ، ومهما تساهلنا فصدقنا القصة فإنه من المحتمل أن يكونوا أقزاما ، وهي نتيجة يؤيدها بليني وكانت قلة المؤن هي التي حالت دون استمرار الرحلة وطاد هانو إلى قرطاجنة .

ويظن معظم الناقدين أن الحصول على الذهب كان هدف هانو من الاستمرار في رحلته فيما وراء المستعمرات التي تقع على ساحل موريتانيا . وهو مجرد ظن نبع من قول هيرودوت أن القرطاجنيين كانوا يتاجرون هناك



في الذهب وربما كان ذلك صحيحا ، ويبدو التعارض أساسا حول مسألة ماذا إذا كان نهر كريتش Chretes الذي عاد منه هانو إلى سيرن Cerne هو السنغال أو أى نهر آخر يقع شماله . فإذا كان الذهب هو الهدف كما يحتمل كثيراً — فأغلب الظن أن يكون نهر كريتش هو السنغال الذي يأتي رأسا من أغنى مناطق الذهب في غرب إفريقيا . حيث كانت التجارة الصامتة في الذهب أمراً تقليديا حتى العصور الحديثة، والتي منها أرسل الذهب شمالا عبر الصحراء خلال قرون كثيرة . وأدى السنغال حقيقة إلى منطقة وانجارا نصف الأسطورية والتي كان اكتشافها أهم الأهداف التي أصر عليها المستكشفون المسلمون والمسيحيون ، ولكن قصة وانجارا العجيبة يجب أن تنتظر . فان عدم قدرة مترجمي لكسوس على فهم اللغات المحلية حتى بعد أن اجتازوا كريتش يشير إلى السنغال أيضا . ففي قرون متأخرة جذبت تجارة الذهب أنظار تجار هذا النهر الطبيعي من الشمال وربما فعلت ذلك في وقت هانو، وعانى مترجمو لكسوس بعض المعاناة في التحدث مع مثل هؤلاء التجار أو مع الأهالي الذين سيطروا على أساس لغتهم ، ولكن إلى الجنوب والشرق من السنغال تقع منطقة أقل اختناقا وهي كما نعرف جيدا لم يكن لها أى اتصال بالشمال . وحيث لم يستطع رجال من المغرب مثل الليكسين أن يجعلوا أنفسهم مفهومين .

ورجال البحر البرتغاليون الذين أرسلهم الأمير هنري الملاح والذين كانوا أول من استكشف هذه الأنحاء من الأوربيين لم يكن غرضهم الحقيقي — كما أدعوا — نشر الإنجيل بل أن يكتشفوا مصادر الذهب الذي كان يستورد إلى مراکش براً عن طريق تغازة وهو أكثر طرق الصحراء تطرفا نحو الغرب. وحاول الأمير هنري أن يتجنب الصحراء — ونحن نعرف من سترابو أن المغاربة كانوا يملكون ذهباً . وإنهم حصلوا عليه بواسطة المسالك



البرية . ولذا كان الهدف الحقيقي من رحلة هانو يتفق مع أهداف الأمير هنرى . ومن ناحية أخرى ربما كان هدف الرحلة أن يدوروا حول القارة كما فعل الفينيقيون أيام الملك نحاو Necho ( ٦٠٩ — ٥٨٨ ق.م ) وهى بلا شك شجعت مستكشفين آخرين .

والاهتمام والمعارضة اللذان أثارتهما رحلة هانو وسرمدى اختراق القرطاجنيين لإفريقيا من ساحل سيرتس ، قاد بعض العقول الباحثة إلى أن تشتم الأثر البونى على طول ساحل غانة . وهناك إتجاه إلى أن يرجعوا إليها شيئاً من الثقافة المحلية التى لم تكن كلها وطنية ، أو تعود بأثرها إلى التأثير الأوروبى الحديث . مثل برونز بنين المشهور ، وتمثيل إيفى الصخرية . وبعض صناعات اليوروبا . ومازالت ثقافة كثير من قبائل غرب إفريقيا تقدم حقلاً عذرياً للبحث ، ومن الحكمة أن ننتظر قبل أن نرسم النتيجة . فإذا ما كتب رجل ثقة مشهور مثل جوتيير Ef. Gautier ( أن نيجيريا هى لأنها كانت — كما يقال — مستعمرة من مستعمرات البحر المتوسط . التى هى كما فى علمنا قرطاجنة ) .

وقد يسمح لنا أن ترفع حواجبنا دهشة . فمن غير المحتمل أن جنسا غير خلاق كالقرطاجنيين حرفته الرئيسية الاتجار فى المواد الرخيصة التى هى تقليد لمصنوعات إغريقية ومصرية أصيلة يستطيع أن يؤثر فى فنون وحرف غرب إفريقيا إذا كانت لديه الفرصة التى أتاحتها لهم الإقامة المستديمة . فليس لدينا من دليل أن مثل هذه الفرصة قد اتاحت لهم .

ونحن ندين لجوتيير باقتراح آخر لا بد أن له هدفاً فيه . فقد حاول أن يحقق سر خرز الساحل الغربى النمين والنادر الوجود الآن بأنه العقيدة القرطاجنية ، فهناك اختلاف فى رأى حول حقيقة هذا الخرز . بسبب أنه كان يقلد كثيراً خلال عصور كثيرة بواسطة صناع الزجاج من البنادقة . ويبدو



أنه صنع من الخلقدونى وهو اسم مشتق من الكلمة الإغريقية لقرطاجنة . ففي الأيام القديمة كما رأينا . عرف الياقوت باسم الحجر القرطاجنى . ومن هنا جاءت حجة جوتير . أن خرز أجرى Aggrey كان خلقدونيا . وأن خلقدونى هى الحجر القرطاجنى . وأن الحجر القرطاجنى هو الياقوت الذى كان يؤتى به من جارامانتس وأن حجر أجرى هو نفس الشيء . والحجة ليست صعبة الرفض ونقطة ضعفها أن الظروف كلها تقف ضدها .

وبالرغم من أن حجر أجرى — كما يظن جوتير — يرتبط الآن بساحل فانة فهو واضح من كثرة ما عثر عليه في مقابر الصحراء كثيرة الإنتشار في وقت من الأوقات في شمال إفريقيا . وظن جوتير — متتبعا الحجة التى أشرنا إليها — أن هذا الخرز كان يصنع ويوزع بواسطة القرطاجنيين يبدو فوق الاحتمال . لماذا لم يكن الجارامانتس هم الذين يصنعونه ؟ فلشعب قادر على أن يصنع مركبة ذات أربعة خيول يبدو أن عمل الخرز من خلقدون لعبة أطفال، وربما كان هناك آخرون بجانب القرطاجنيين اشتروا حجر الخلقدون من الجارامانتس ليصنعوه خرزاً<sup>(١)</sup> إذ كانت هناك صناعة خرز قديمة في ييدا Bida في نيجيريا والتي حصلت على الصخور من كانو . ولكن استناداً إلى الأساطير المتداولة ، فإن الحجر تأصل في مصر أو في جبال أطلس واحد

---

(١) بالرغم من أن خلقدونى لم تكن قد دوت في فزان فإنه وجد في كل الجزائر وصحراء ليبيا ( خطاب من المستر وايزمان أمين قسم التاريخ الطبيعى في المتحف البريطانى إلى المؤلف ) فمن المحتمل إذن أن الجارامانتس كانوا قادرين على أن يحصلوا عليه من أرضهم ( بليى ( جه ) ) وأكثر من ذلك — كما رأينا — يشير إلى جبل كرى في بلدهم حيث كانت تستخرج أحجار ثمينة .



الاحتمالين ممكن<sup>(١)</sup> والاخر غير محتمل بتاتا وربما كان المصدر هو فزان أرض الجارامانتس .

ولكن ذات يوم تحول الياقوت بعد ذلك إلى أن يصبح خرز أجرى . كما أصبح برهان جونيير صحيحاً ، فإذا حدث هذا فإننا نكون أقرب كثيراً لأن نعرف لماذا تجمع القرطاجنيون قريباً جداً من رأس طريق جارامانتس .

---

(١) والمواد الخام التي تحصل عليها حالياً من كانوا بواسطة صناع الخرز في بيداء وجدوا أنها قطع من الكارنيان المصنوع . ويحتمل أنه أتى بهامن كامباي (خطاب من المستر أركل إلى المؤلف) .







( ٣ )

## الرومان وجارامانتس

إمتزج ارتفاع شأن روما عند قضائها على قرطاجنة بالفشل والاضطراب، فالأخطاء التي صحبت انتصارهم كانت غير متوقعة، فإن ما أزعجهم هو اضطرابهم إلى إدارة بلاد تسكنها قبائل بربرية محبة للحرب . ولذا كان احتياجهم إلى الإحتلال الحربي لإفريقيا أمراً لا مفر منه . لأن هذه الوسيلة كانت الوحيدة التي يؤمنون بها أنفسهم من نهضة جديدة لقرطاجنة، تغذيها وتقويها القبائل المجاورة فالخبرات الطويلة التي اكتسبها الرومان من إدارة البلاد المفتوحة ، علمتهم أن خطأ واحداً قد يقود إلى آخر. وأن تأسيس حد لا بد أن يعقبه حداً آخر أبعد منه من أجل حماية الأول ، ولذا صمموا على أن يكرسوا أنفسهم لإحتلال منطقة صغيرة حول قرطاجنة أي إقليم إفريقيا<sup>(١)</sup> ويتركون حكم بقية الإقليم للحكام الوطنيين .

وكانت هذه السياسة ناجحة اسمياً ولكنها فعلياً تأسست على إمكان نزع الحسد والنزعات من الليبيين الأقوياء ، وهو السلاح الطويل الذي وصات به خطتها حتى إلى السياسة الداخلية لروما ، فبعد انتصار قيصر على جوبا في ثابسوس Thapsus في سنة ٤٦ ق . م . استولى على نوميديا ، وعند موت بطليموس بن جوبا الثاني في سنة ٤٠ ق . م . خضعت لهم موريتانيا . وفي أيام الأباطرة خضع كل الساحل الشمالي من ليسبس Lepcis حتى المحيط الأطلنطي للحكم الروماني .

---

(١) من هنا عرف اسم القارة فإن مقاطعة تونس ظلت طويلاً تعرف باسم مملكة إفريقيا . وهكذا سميت في المعاهدة التي عقدها الباي حسين باشا مع الفرنسيين في سنة ١٨٣٠ .

ولم تمض مدة طويلة حتى أتت ظروف مشابهة لتلك التي اضطرت هذا الاحتلال الساحلى إلى الاتساع لأن يتعمق ، وحملت معها التبين الكامل لاسوأ المخاوف التي ترددت عند سقوط قرطاجنة . فإدام احتلالهم محدوداً بشريط ساحلى كان للرومان أن يتعاملوا فقط مع قبائل مرتبطة تماماً بالأرض أسهل في حكمهم عن البدو الرعاة . فالهضبة خلف الحزام الساحلى والتي تمتد داخليا إلى سلسلة متصلة من الجبال ومناطق جبال أروس وجيبيل Gebel في طرابلس كانت آنذاك هي الآن موطناً لقبائل نصف بدوية مثل الناسامونس Nasamones في الشرق والمورى في الغرب Mauri وهم صانعو قلاقل لا بد من احتلال بلادهم، فكان طبيعياً أن تمتد منطقة الدفاع الرومانية إلى سفوح التلال التي بدت أنها تكون خطوطاً دفاعية طبيعية مذهشة ، وربما كانت كذلك وقتئذ ، إلى حد أن أصبحت دليلاً للرومان على أنه لا يوجد حدود واضحة لممتلكاتهم ، فقد دخل في سلطتهم مرتفعات جافة ولكن معشوشية كالهضبة العليا في الغرب ومنطقة التل في الوسط ومنطقة جيفارة Gefara في أقصى الشرق . وكلها كانت مراعى طبيعية لقبائل صحراوية مازالت على الفطرة . ففي فصل الصيف الجاف حين لا يكون هناك ما يرعى في الصحراء . كانت هذه المراعى ضرورية من أجل الإبقاء على القطعان والجماعات التي اعتمدت عليها قبائل الصحراء من أجل الحياة . فهذه الهجرات وإن كانت هجرات موسمية إلا أنها لم تفد كذلك فاستعملوها في الحصول على حقوق طويلة الأجل وقبلت على أنها ظاهرة طبيعية لحياة القبائل كما تمارسها ، بل قبلها الرومان كمظهر عادى من مظاهر حياة قبليه تعيشها القبائل نصف البدوية وكذلك القبائل المستقرة في المرتفعات . ولكن الصحراء تعطى غرائز وراثية وترغم الإنسان على أن يعيش بصفة مستمرة على أساس الحرب فأصبح بدوى الصحراء إذن يملك الحيل والقوة للاعتداء على جيرانه وكثيراً ما كان يقتل . وفي أيام الرومان لم يكن بدو الصحراء قد عرفوا الجمل الذي أعطاهم في



عصور متأخرة سرعة الحركة وجعلهم جيئراً مزعجين ، ففي نظر الرومان كانت هذه الهجمات السنوية من قبائل لم تصقلها المدنية بعد والذين لم يعرفوا لهم سيداً غير زعمائهم، غير مستحبة ولا مقبولة . فإنها شكلت مشكلة اقتصادية أكثر منها سياسية فانت عليهم . فكان عليهم أن يعرفوا أن بدو الصحراء سوف يدافعون حتى الرمح الأخير عن حقوق الرعى التقليدية . سواء في الصحراء أو المرتفعات ولذا حاول الرومان تقليل أن لم يكن وقف الزحف السنوي نحو الشمال من الصحراء نحو أملاكهم، ونتيجة لذلك طردوا قبائل الصحراء الشمالية فأصبحت الصحراء ملجأ لكل تآمر على الدولة الرومانية .

وفي الأيام الأولى للإحتلال وجد الزعيم جوجورتا النوميدي Jugurtha نفسه محصوراً فشق طريقه — كما يذكر لنا سالوست Saliust — عبر صحروات واسعة إلى جابتولي Gaetuli وهي قبيلة وحشية غير متمدينة ألف من بينهم جيشاً ويروي تاسيتس Tacitus كيف أنه بعد قرن ونصف آثار تاسفا ريناس Tacfarinas بنجاح في ظروف مشابهة أهل جارامانتس من أجل طلب المساعدة ( وسوف نعود إلى هذا الموضوع فيما بعد ) .

ولما وجدوا أنه من المستحيل أن يحولوا دون اختراق البدو للحدود ، أو دون انضمامهم إلى القبائل الثائرة، حاول الرومان أن يكسروا من حدتهم وقوتهم للشر بمحاصرة الواحات الشمالية وامتدت سلسلة المراكز الخارجية الجديدة نحو الغرب من خليج قابس عبر توزير Tozeur وثفتا Nefta ونجرين Negrin وبسكرا Biskra جنوبي بوسعه Bou Saada ، ومن هناك نحو الشمال الغربي على طول سهل هدنة Hodna وسيطر كل مركز على طريق أو أكثر يخرج من الصحراء إلى المرتفعات. فحرس بسكرا الضواحي حتى

أخدود القنطرة الكبير<sup>(١)</sup> وعسكرت فيها قوة من صحراء آسيا من جنود تدمر وهي فرق اشتهرت بإجارتها حرب الصحراء ففضلت لهذا المركز المفتاح. وفي طرابلس Tripoliana وقعت المواقع الرومانية إلى الخارج، إلى ضواحي جيبيل. وفي القرن الثالث أصبحت هذه الجبهة الجديدة من سيرتس حتى موريتانيا جزءاً من منطقة الدفاع (وهو أمر لا يمكن تجنبه) وبذلك أصبحت من جديد المصيدة المتقدمة نحو الصحراء، وعلى طولها جابه الرومان أمر أعدائهم وأقدرهم، وفي أقصى الغرب في موريتانيا كان البدو بعيدين جغرافياً وسياسياً. ولم يكن هناك من موقع آخر تستطيع القوات الرومانية فيه أن ترجع أعصابها وتركزت فرقة أوجستان الثالثة Argustan الشهيرة عند لميسس وأوكل إليها أمر هذا الدفاع، وأصبح كل أفرادها إفريقيين، وعلى شاطئ سيرتس في منطقة المدن الثلاث وهي منطقة أمبوريا وهي ليسس الكبرى وأويا وسبراتا — التي اشتقت منها منطقة طرابلس اسمها — على اتصال مباشر بالصحراء وهو شيء ليس جديداً.

ولما كان جل اهتمامهم موجهاً إلى احتلال إفريقيا لم يضيع الرومان وقتاً في مباشرة تجارة القرطاجنيين مع جاراماتس وهم شعب مشاكس، كما يجب على الرومان أن يعرفوا، ولم تكن قوتهم بمرور الزمن. ففي القرن الأول بعد الميلاد محام تاسيتس Tacitus الشعب الذي لا يقهر، وكانت فازانيا Phazania أو فزان مواطنهم وهي مجموعة من الواحات في قلب الصحراء وعاصمتهم جاراما Garama وهي جرمة Cerma الحالية، ولكننا نسمع عنهم أيضاً أنهم كانوا

---

(١) كان الرومان قديماً قاعين بالسيطرة على الرأس الشمالي للأخدود من ناحية لميسس Lambaesis. مركز قيادة الفرقة الثالثة أوجستا Augusta التي اطلقوا عليها اسم عنان القبائل الصحراوية وبكناها سرعان ما برهنت عن أنه لا شيء. ولذا كان لهم أن يضعوا حامية عند بدء الأخدود في بسكرة.



قريبين من ساحل سيرتس وإلى الجنوب الشرقى امتدت منطقتهم حتى النيل<sup>(١)</sup> وفي كتابات هيرودوت يبدون كشعب مستقر يشتغلون بالزراعة<sup>(٢)</sup> والتجارة . أما لوسيان فيعتبرهم بدوا يسكنون خياما ويهاجرون موسميا إلى أقصى الجنوب من أجل أن يهاجوا تروجلوديتس في طلب الرقيق كما قال هيرودوت . وهذا دليل على أنهم مدينين بمركزهم الدائم في شرق الصحراء الوسطى إلى القسوة العددية وإلى المنطقة الواسعة في حالة تسمح لهم في بعض الأحيان كما في فزان — بالحياة المستقرة وفي بعض الأحيان — كما في الصحراء — يفضلون فزان عن الساحل ويحيون الحياة البدوية وكثيراً ما أزعجوا القبائل التي تسكن المدن والقرى الأخرى التي كانت بدوية ورعوية . وقد احترمهم الرومان كتجار ولكنهم عرفوا أنهم كثيراً ما أثاروا الإضطراب في طرابلس

وليس من السهل تصنيف الجارامانتس بين الأجناس البشرية ، ولكن يظن أنهم زنوج فهم خفيفو السواد عراة ، وكما يصفهم بليني بأنهم يعيشون في عشق دائم مع زوجاتهم وهو نوع من العادة التي لا يستطيع المتدينون ممارستها ويستعملون العربية ذات الخيول ، وعبادتهم الحيوانات ذات رؤوس الآلهة — وهي شيء معاصر لعصر الرسوم على الصخور ، يدل على أنهم يدينون ببعض ثقافتهم لمصر ولكن هذا شيء لا يزال غامضاً في ضباب القدم .

---

(١) القرعان شعب بدوى مختلط من التيبو وسلالة الزنوج ويبدو أنهم الممثلون الحديثون لـ جارامانتس وهم يحتلون الصحراء شمالى دارفور ووادى وهى المنطقة التي كانت منطقة الجارامانتس ، ومن المعروف أن صحراء بيوضة شمال الخرطوم كانت تعرف باسم صحراء القرعان حتى القرن السابع عشر وقد عرفها بهذا الاسم ليو الافريقى ( كروان ل . ب المسيحية والقرعان . مجلة الآثار المصرية العدد ٢٠ سنة ١٩٣٤ ص ٢٠١ — ٣ ) .

(٢) قال هيرودوت أنهم يغطون الملح بقوالب الطين ثم يبدون بدورهم وفي القرن التاسع عشر وصف ( ايون ج . ف ) فزان وتكلم عن الحقائق للبيضاء بالملح ( رحلات ص ٢٠٦ ) .



شكل ٢ أفريقيا الرومانية



ولا شك أن استمرار تجارتهم مع امبوريا كان موضع الترحيب من أهل جارامانتس، ولكن كثرة تغير الحكام الغرباء على ساحل سيرتس كان أمراً عديماً على وجه التأكيد. وتأليف قوة مأجورة ليس لها مصالح غير التجارة كما أعطى مكاناً لقوة حرية جبارة توكل إليها سلطات إدارية وكان هذا أمراً من الأهمية بمكان، والقبائل الساحلية التي قبلت سيادة جارامانتس القوية خضعت الآن لآسياد غرباء. فاذا لم توضع حدود لهجرات الجارامانتس الموسمية التقليدية وقطعانهم من الصحراء إلى المرتفعات، فإنهم سيظلون يعانون ويعتمدون على الخضوع لإرادة القوة المحتلة، ورعونة الحكم الروماني كانت ولا شك مصدراً مستمراً للشكوى، مما يدعو سكان الساحل الخاضعين إلى طلب الحماية من جيرانهم الأقوياء سكان الصحراء، والقرطاجنيون الذين اشتغلوا بالتجارة لم يعرفهم مطلقاً أهل جارامانتس منافسين لهم في الوقت الذي بدا فيه الرومانيون في سرعة أنهم ليسوا منافسين فحسب بل القوة الوحيدة، ولذا بدا للجارامانتس الذين لم يجرؤ أحد مطلقاً على تهديد مركزهم في الصحراء الشرقية أن تغير الحكم شيء لا يحتمل، ولذا سرعان ما بدا أن انفجاراً بين الرومان وجارامانتس سوف يحدث، وإن كان غير مؤكد، ولكن عند نهاية القرن الأول قبل الميلاد شعر الرومان بأنفسهم مدفوعين إلى أن يقوموا بما بدا لهم أنه حملة ذات خطورة على فزان. إذ تدخلوا لسحق ثورة جابتولي Gaetuly الذي ربما يكون قد طلب معونة جارامانتس، وسواء كان هذا هو السبب المباشر أم لا فإنه لم يكن هناك من دافع لهذه الحملة إلا إذا كان الرومان قد أحسوا بتهديد للسلطة الرومانية.

وقاد الحملة البروقنصل لوسيوس كورنيليوس بالبوس Lucius Cornelius Balbus وهو مواطن أسباني، وفاجأت الحملة أهل جارامانتس وأخضعت فزان بنجاح. إذ استولت على عدة مدن منها العاصمة جاراما Garama (جرمه الحالية) والواحة الخارجية جيدامس Gydamus (غدامس الحالية). التي كانت

تقع في حدود جارامانتس ، ومن بين الأماكن التي ذكرها بليني جبل جيري Gyrri ( حيث كانت تستخرج أحجار تمينة ) وهو مكان لم نستطع تبينه حتى الآن .

ومن الممكن أن يكون سبب الحملة هو سحق جارامانتس وجعلها لا تقوم بأي تهديد للسيادة الرومانية ، ومن ناحية أخرى ربما تكون مجرد حملة تأديبية ، وعلى الفرض الأول فإنها فشلت لأن الحرب مع البدو الرحل لا تنجح بالاستيلاء على البلد ، وإجابتهم في العادة على مثل هذه القوة الجبارة هي حرب العصابت على المدى الواسع والجيش لا يحطمهم إلا كما تحطم اللكمة الوسادة .

وبالرغم من ذلك فقد هلك لها الرومان باعتبارها نجاحاً . إذ لم يقم الرومان قبل ذلك بحرب في قلب الصحراء ، فألى جانب المصاعب الصحراوية الكبيرة المعتادة أضيفت مشكلة السير لمدة ثلاثين يوماً في أرض لا ماء فيها قبل أن يلتقوا بالأعداء الذين كانوا يتحصنون في أماكنهم في فزان ، هذا إلى أن العدو كان يكون أكبر قوة في الداخل المعروف لروما . وأنعم على بالبوس بشارة الشرف فكان أول أجنبي يلحق تكريماً . واكتشف أخيراً أنه بالرغم من الصحراء فإنه يمكن الوصول إلى فزان عن طريق الساحل . الأمر الذي كان صدمة كبيرة لجارامانتس ، كما كان التخريب الذي تركه بالبوس وراءه تحذيراً لهم بأن قوة الرومان الحربية ليست أمراً هيناً . وكان هذا الدرس ذا أثر في منع تدخل جارامانتس المباشر في سياسة الجزء الشمالي بل شجعهم على مساعدة جيранهم المعادين لروما فتجدهم قد نصرروا قضية سكان سيرانيكاً Cyrenaica من المارمايد<sup>(١)</sup> ولكنهم هزموا أمام نائب قنصل المقاطعة يلبوس سلبسيوس كيرينيوس Publius Sulpicius Quirinus — وفي سنة ١٧ بعد الميلاد قامت ثورة يقودها ضابط ليبي

---

(١) عرف هذا الجزء أيام الحكم الروماني باسم مرمريكا .



هو تاسفاريناس Tacfarinas وكان مدرباً على الطريقة الرومانية وانتشر من سوتس حتى المحيط الأطلنطي وهددت الإحتلال الرومانى جدياً حتى لقد استحضرت الفرقة الأسبانية التاسعة لتبذل المساعدة للفرقة الثالثة أوجستا Augusta وهدد تاسفاريناس الحكام الأجانب سبع سنوات أرغم خلالها على اللجوء على الصحراء مرتين .

وفي المناسبة الثانية — إن لم تكن أيضاً الأولى — منحه جaramانتس اللجوء رغم جهود الرومان المرتكزة في لبسيس لمنعه من الوصول إليهم — وفي هذا الوقت العصيب قرر تيريوس فجأة سحب الفرقة التاسعة Hispana من إفريقيا . فسبب هذا اهتماماً عميقاً لنائب القنصل كرنيلوس دولابلا Cornelius Dolabella لما بدا له من أن الحرب التي لانهاية لها ضدتا سفاريناس قد وصلت إلى مرحلة حرجية استلزمت الاستفادة من كل رجل تحت يده . ولاشك أن تاسفاريناس قد تجرأ من جديد من جراء هذا الإنسحاب المفاجيء الذى رأى فيه علامة إنيهار قوة روما وجر جaramانتس إلى هذا الاعتقاد فضمن مساعدتهم بالرغم من أنها ربما لا تكون على القدر الذى كان يبتغيه ، إذ أنهم كانوا لا يزالون واقعين تحت تأثير الهزيمة أمام كيرينيوس فكانوا حذرين وغير راغبين فى أن يورطوا أنفسهم كثيراً ، ويروى تاسينوس أن تاسفاريناس أشرك معه ملك جaramانتس فى غاراته ، ولكن ليس بصفة منتظمة بل بإمدادات من فرق خفيفة . وبينما كان دولابلا لا يزال مع تاسفاريناس فى حقل المعركة دون أن يكون معهما فرق يمكن الاستغناء عنها للحملة التأديبية التى تبعت تدخل الجaramانتس فى ظروف أخرى فكان لا بد لها أن يتركها شعوب الصحراء الوحشيين يذهبون دون أن ينزلا بهم عقاباً وعندما قتل تاسفاريناس فى المعركة وتحمرت فرق الرومان أخذت جيوش جaramانتس حذرهما وفكرت أن تقابل الكرة التى خافوا أن تنتظرهم . ففى

نهاية المعركة أخذ دولابلا معه — كما يذكر لنا تاسيتس — رسلا من الجارامانتس ليكونوا مشهداً نادراً في روما فأرسلت الأمة — وهي في رهبة حزنها على تحطم تاسفارتياش — ليسألوا العفو من الشعب الروماني .

وربما رحب بالرسل في روما لأن الرومانيين قد أيقنوا أنه لم يعد هناك ما يخافونه من الجارامانتس واتخذت منهم عذراً لها في أن تجهز حملة جديدة بالغة التكاليف تسيرها إلى فزان وقد نجح بالبوس — كما عرفوا — لا بسبب سوى أنه أخذ الجارامانتس على غرة . أما الآخرون فقد أصبحوا جد حذرين من يعود ذلك فليجأوا — كإجراء دفاعي — إلى الوسيلة الدفاعية المعتادة والأكثر تأثيراً ضد غزو الصحراء . إذ كان مستحيلاً — كما يذكر بليني — أن يفتحوا الطريق إلى إقليم جارامانتس لأن فرقاً منهم ملأت الآبار بالرمال .

ولم يكن الجارامانتس بطيئين ليتبينوا أنهم مدينين في هربهم من العقاب من أجل المساعدة التي بذلوها إلى تاسفاريناس للمناصب الكبيرة التي يحتلها مبعوثهم أقل مما هم مدينين للإجراءات الدفاعية التي بذلوها . وهذه الثقة التي حصلوا عليها قواها انسحاب بقية جيوش الرومان من طرابلس الذي أسىء الوضع به لأن السلام قد بدا لهم مؤكداً وأخيراً كان الإضطراب الذي تبع ذلك مختلفاً عما انتظروه . ففي سنة ٦٩ بعد الميلاد نشبت الحرب بين المدن المجاورة وهي أويا ( طرابلس ) الحالية ولبسيس . ولم تكن بذات أهمية إذا كانت قد جذبت الجارامانتس إلى الحقل مرة أخرى . وخوفاً من أن تسوء المعركة كان لهم أن يعودوا إلى الصحراء ويملاؤوا الآبار التي خلفهم كي يتجنبوا أن يطاردتهم أحد . ولما اطمأنوا إلى ظهرهم في فزان استجابوا لدعوة المساعدة التي أتت من أويا وحاصروا لبسيس مع حلفائهم الجدد . فكان هذا داعياً لأن يسرع فاليريوس فسستوس Valerus Festus حاكم نوميديا ، على



طول الساحل ليعيد النظام . ونجح في هدفه في سرعة مذهشة . إذ خاف أن تتحد لبسيس وتهزم الجارامانتس وتستفيق من نكبتها وتطاردهم إلى الصحراء وبعمله هذا حقق شيئاً جديراً بالذكر ووجد — كما نخبرنا بلينى — طريقاً جديداً قصيراً يعبر الصحراء وهو المعروف باسم *Pnacter Caput Saxi* وهو لا يختلف عن اسمه الحالى باب رأس الحمادة وربما كان هو الطريق الذى يسير نحو الجنوب من أوياماراً بجاريان وفروا نحو المسالك الغربية وهو الطريق التى وضعت له علامات أيام حكم كراكلا . والنتيجة أن فاليريوس فستوس كشف طريقاً كان مجهولاً لجارامانتس . وهذا شيء لا يصدق لأنه كان يعمل فى داخل دولة جارامانتس نفسها ولا بد أنهم عرفوه أفضل مما عرفه الرومان أو على الأقل كائى قبيلة أخرى ومنه حصل الآخرون على الأدلاء .

ولكن السر الذى يحيط بكشف الطريق ينبسط على حقل أوسع كثيراً لأنه بنهاية القرن حدثت أشياء غريبة أخرى لم تشرح قبل ذلك قط .

وأولها تقارب غريب من الرومانيين وأهل جارامانتس أدى إلى خروج حملتين رومانيتين شهيرتين سارتا عبر فزان إلى مقصد بعيد إلى الداخل . وحدث ذلك أيام تراجان حوالى سنة ١٠٠ م. وقاد أولاهما سبتيموس فلاكوس *Septimius Flacus* حاكم نوميديا الذى سار نحو الجنوب ثلاثة أشهر من فزان ولا بد أن هذا الطريق قاده إلى السودان . وربما تعطينا هذه البلاد يوماً من الأيام دليلاً على أنه فعل ذلك، وقد ظن بطليموس أن هذه القصة التى حصل عليها من مارينوس *Marinus* الصورى مبالغية وقاد الثانية جوليوس ماترنوس *Julius Maternus* وقد سجلها بلينى أيضاً وكان قد استقاها من نفس المصدر .

بدأ يوليوس ماترنوس حملته من لبسيس الكبرى واتجه من جرما فى صحبة

ملك جارامانتس نحو الإتيوبيين<sup>(١)</sup> متجها نحو الجنوب وبعد أربعة أشهر وصل إلى اجيسمبا Agisymba وهي منطقة خاصة بالإتيوبيين حيث تكثر أفراس النهر .

وتردد بطليموس في تصديق هذه القصة أيضا . ولكنها محتملة أكثر من الأولى . وتبدو حقيقة إلى حد أن بذلت محاولات للتحقق من اجيسمبا حتى قيل أنها تبستي . وظنها بعضهم أيرى ولكن رود ( اللورد رنل فيما بعد ) أشار إلى أن منطقة أيرى ليست سهلة الوصول إليها من فزان ولذا لم يكن الرومان ليزوروها إلا الحاجة ملحة وليس لدينا دليل على وجود هذه الحاجة . هذا إلى أن تبستي تقع قريبة جداً إلى الطريق الطبيعي الذي يقود إلى الجنوب من فزان إلى بلاد السود وهو الطريق الذي نعتقد أنه كان يستعمل كطريق تجاري ، وإن كان نادراً لأنه لم يكن مجهولاً من الرومان . وعندما وجد العرب أنفسهم ثم الأتراك ، كالرومان يمتلكون فزان رغبوا في مد سلطتهم جنوباً وأوغل الإثنان إلى تبستي ولكنهما لم يصلا أيرى . وقد أشار نفس الكاتب إلى أنه لا توجد في أيرى أى أسماء شبيهة ببارديتوس Bnrdetus وميشي Mesche اللذين ذكرهما بليني كاسمى جبلين في اجيسمبا ولكن يوجد في تبستي اسما باردى ومسكى Bardi, Miski .

واتفاق أهل جارامانتس والرومان بترك مكانا صغيراً للشك حول الهدف من هذا الاتفاق . وربما أراد الرومان تقوية الصداقة الجديدة بالاتفاق على المساعدة في هجمة على عدو عنيد ، وليس هناك من دليل على أن أهل جارامانتس كان لهم أعداء في الجنوب غير عاجزين على إخضاعهم قبل مجيء الرومان ، ومن المستبعد أيضاً أن يكونوا قد طلبوا من الرومان أن يصحبوهم في غارة لصيد

(١) أطلق الهلينيون وكذلك الرومان اسم لاثيوبيا على كل بلاد تسكنها أجناس ملونة ولذا حمل الملونون اسم لاثيوبيين .



الرقيق وأن يوليوس مارتوريوس قد انتهز هذه الفرصة ليرى أرضاً جديدة . ولم يكن محتملاً أيضاً أن يكون هو نفسه مهتماً بصيد الرقيق لأن الرومان لم يظهروا اهتماماً بتجارة الرقيق من أواسط إفريقيا وإذا كان صيد الرقيق هو الهدف من هذه العملية المشتركة فلا شك إذن في أن اجيسمبا هي تبستي . التي هي مقبولة كوطن لانيوبي تروجلوديت وهم الذين أخبرنا هيرودوت أن أهل جارامانتس اعتادوا الإغارة عليها . وفي حالة عدم وجود أى دليل عن مدى سير سبتيموس فلاكوس جنوباً فتبستي قد تعتبر كأبعد نقطة في داخل إفريقيا غرب وادي النيل وصل إليها الرومان <sup>(١)</sup> .

وأكثر أهمية من هذه التكهّنات هو أن نبحت أى الظروف أدت إلى هذا التقارب المدهش وجعلت من الممكن قيام حملتين حربيّتين في تعاقب سريع إلى أرض بعيدة . يبدو أن الرومان لم يكونوا يعرفون أن الوصول إليه سهل ، والإكتشاف القريب للطريق محتمل أن يكون جزءاً من نفس المشكلة التي كانت من اهتمام الدارسين الذين درسوا بدقة تاريخ الإحتلال الروماني ولكن رغم اضطرابها فإنه تغيير بسيط رغم أنه لا يحتاج إلى شرح عاجل .

ففي شمال إفريقيا أصابت الثورة فن الحرب — كغيره من الفنون — حول هذا الوقت بفعل الجمل ، ففي تاريخ النصف الشمالى من القارة ليست هناك من حادثة أكبر أثراً من إدخال هذا الحيوان الذى لا يمكن استبداله . ومتى حدث هذا وفي أى الظروف . شىء لا يزال موضع شك كبير ، فبقايا الجمل الرباعى التي تنتشر على مساحة كبيرة تبين بوضوح أنه كان موجوداً منذ ما قبل فجر التاريخ ومن المعروف الآن أن هذا الجمل ( الرباعى ) لم يمتد وجوده حتى العصور التاريخية والجمل الأخير كما هو المعتقد أدخله إلى مصر الفارسيون في

---

(١) ولكن بالطبع ليست شيئاً رومانياً فثلاً في سنة ١٩٣١ عثر على عملة رومانية من عهد قسطنطين في بوا Buea في الكرون البريطانية ( خطاب من أرنت إلى المؤلف )

القرن السادس قبل الميلاد واستعمله الإسكندر الأكبر في نقل أفراد حملته إلى معبد جوبترامون، ولكن يبدو أن سيوه كانت أبعد نقطة في الغرب وصلوا إليها بالجمال في هذا العصر، وإذا أخذنا في اعتبارنا الحاجة الشديدة إليه في سيرانيكا وطرابلس - ولندع الصحراء بعيداً - فإن ذلك يكون مدهشاً .  
فربما كان من بين الأسباب فشل تربية هذا الحيوان في مصر السفلى ، فبدلاً من أن تكون - كما هو المتوقع - إحدى مناطق تربية هذا الحيوان وموردته كانت مستوردة له .

وما زال حتى الآن يحصل على ما يطلب منه بالشراء من الوجه القبلي وفلسطين . وقد دخل الجمل إلى جمهورية السودان الحالية قبل العصر المسيحي بقليل ولكن فشل انتشاره غرباً من هناك حيث يبدو شيئاً غير ذي بال، فعدم وجوده ضمن رسوم الصخر المبكرة التي سجلت - كما رأينا - كثيراً من حيوانات الصحراء المستأنسة والوحشية يظهر بوضوح إنه لم يكن موجوداً .

وكان أول تسجيل له غرب سيوه حين قبض قيصر على اثني وعشرين جملاً في تابسوس Thapsus في سنة ٤٦ ق . م . ورغم أن الرومان عرفوا استعمال الجمل في آسيا وتبينوا كم هو ثمين لو استعملوه في إفريقيا ، ولكنهم أبطأوا في أخذه واستعماله هناك - فإلى ما بعد تابسوس بزمان طويل كانوا يستعملون الحصان في عملياتهم الحربية التي كان يمكن أن يكون الجمل أكثر فائدة لهم . وأكثر من ذلك ففي تاريخ الاحتلال الروماني لم يرد ذكر الجمل لأربعمائة سنة أخرى .

وفي سنة ٣٦٣ م حين استنجد أهل لبسيس بحاكم إفريقيا ضد الأوسطرياني الذين كانوا ينهبون بلادهم . فأجابهم أنه لا يستطيع القدوم إليهم حتى يرسلوا إليه أربعة آلاف منه لنقل فرقه .

ربما كان الرومان انفسهم مسئولين عن إدخال الجمل ولكن من الواضح



أننا سمعنا عن إستعماله في شمال إفريقيا ، لا بواسطة الرومان ، بل بواسطة هؤلاء الذين تاروا عليهم . وأكثر من ذلك لما كانت عملياتهم الحربية لم تقدم عادة إلى أبعد من حافة الصحراء ، كما أنهم لم يحاولوا اختراق المنطقة الصحراوية غرب طرابلس فإن حاجتهم إليه لم تكن ملحة .

كما كان إدخال الحيوانات الأليفة غالبا ما يكون قرين هجرة الناس، فمن المحتمل جداً أن أول ظهور الجمل في إفريقيا الرومانية كان قرين وصول زناته الأول إلى نفس المنطقة . فإن هؤلاء البربر البدو الذين قدر لهم بعد عدة قرون أن يعطوا المغرب لأسرات بنى مرين في فاس وعبد الوديد في تلمسان فدنوا من الشرق عن طريق سيرين Cyrene ومهما كانت دوافع هذه الهجرة أو أنهم كانوا مدفوعين بواسطة الرومان ، فنحن عاجزون عن أن نقول شيئا في هذا الشأن ولكن يبدو أنه من المحتمل أن زناته كانت مسئولة عن الإستعمال العام للجمل في منطقة جايتوليا Caetulia ومنطقة الاستبس في الهضبة العالية .

وفي مكان ما بين سنتي ٤٦ ق . م . و ٣٦٣ م . بدأ الجيش الروماني في استعمال الجمل فكانت فترة طويلة من الزمن دون دليل نعمل على ضوئه . وبالرغم من ذلك فإنه من المحتمل أن تكون الفرقة التالية — قد استعملته للنقل خلال القرن الأول الميلادي . فإن هذا لا يقلل مطلقا من غموض الفترة . ومن الواضح أنه بعد قرن بدأت التماثيل تظهر لنا أن الجمل أصبح شائع الاستعمال في طرابلس وإن كان قاصراً على تجهيز الأرض ، وحينئذ يصبح قصة اكتشاف فاليريوس فستوس لطريق برايتز كابوت ساكس غير مفهومة . فإن هذا الطريق الجديد كان جديداً فقط من حيث أنه لم يكن يستعمل إلا للحصان لعدم وجود الماء به ، ولكن استعمال الجمل هو الذي جعله معروفا وقد صرح الكابتن ليون وهو أحد مستكشفي الصحراء في القرن التاسع عشر أن

الحصان يسبب كثيراً من الاضطراب للقافلة أكثر من أى حيوان آخر ، فإن كمية الماء الهائلة التى يجب أن تحمل من أجله ، تقاس دائماً بحمولة جمل الحصان واحد ، لا يدخل فيها الأحوال الأخرى من القمح والبلح لطعامهم . فاستعمال الجمل لم يجعل هذا الطريق مطروقا فحسب بل جعل السفر فى الصحراء أسرع ، والتقارب الذى حدث بين الرومان وأهل جارامانتس يمكن أن يفسر تفسيراً جديداً . فإن مطاردة الأخيرين بواسطة فاليريوس فستوس وجماله بعد هزيمتهم أمامهم لبسوس أظهرت لأهل جارامانتس ان الرومان يستطيعون الذهاب حيث لا يستطيعون هم ، وأنهم وأسرع منهم كثيراً . فإن الذهاب كان هدفهم من المطاردة فالصحراء لم تعد ملجأ آميناً . كما لم تعد فزان آمنة من الغزو ، فالظهور الفجائى لهذا الجيش الرومانى كان له نفس الأثر على أهل جارامانتس ما كان للقبيلة الذرية على اليا بانين فى سنة ١٩٤٥ ، وبنفس النتيجة ساموا للوقت وتركوا بلادهم مفتوحة لغزاتهم الأجانب .

وأخيراً نستطيع الآن أن نبين بوضوح كيف أن حملتى سبتيموس فالكوس الكبيرة ويوليوس مارتوس إلى الداخل أصبحتا ممكنتين . إذا لم يفقد أهل جارامانتس الرغبة فى المقاومة فقط بل اعترفوا بفضل الرومان ورضوا بهم . كما أن الجمل جعل اجتياز الصحراء أسهل مما كان قبلاً كما سنرى ، بالرغم من أن الرومان استفادوا كثيراً من الانتصار الكبير الذى حازوه فى فزان ، فالقرن الذى تلا حملتهم إلى الداخل السحيق ، كان مليئاً بالحوادث لطرابلس . وبارتقاء سبتيموس سيفروس Septimius Severus العرش فى سنة ١٩٣ تغير الموقف ، إذ ارتقت لبسيس من التبعية إلى العظمة التى كشفت عنها الحفائر الدينية ، وليس هناك من نقطة أكثر روماتيكية على طول الأنفى ميل التى تمتد على الساحل الممتد من المذبح حتى البوغاز على الأطلنطى من الميناء الصغير لبسيس الكبرى التى تقع عند مصب وادى لبدة . فهى بوابة الصحراء والنهاية الشمالية لطريق جارامانتس الذى



ظل لعدة قرون أحد طرق القوافل الصحراوية ، فإذا وقفت على رصيف الميناء الذى تقف عنده السفن الصغيرة وتطلعت نحو الجنوب على هذه الخرائب المنتشرة فلاشك انك تشعر بالنشوة حين تسترجع فى مخيلتك هذا الإمبراطور العظيم الذى تخلده فلبيس مكان ولادته وقد عاش وهو يتكلم اللاتينية بلهجة بونية ومات فى يورك فى سنة ٢١١ .

ولم ينصب اهتمام سفيوس بالأرض التى شهدت مولده وهى مدينة لبسيس فحسب ، بل بكل المنطقة الدفاعية المسماة بطرابلس الجيرية ، فقد نظمت وامتدت وقويت لا لأنه كانت هناك حاجة إلى مزيد من الدفاع عنها ، بل أراد الإمبراطور أن يرفع من قيمة موطنه . وإلى الخارج من الصحراء خلف الصخور الجيرية أقامت فرقتان من الطابور الثالث واحدة عند بونجم والأخرى غرب سيداموس Cydamus وهى واحة اشتهرت فى عصور متأخرة بأنها مركز للقوافل واسمها الحالى غدامس . ومن المحتمل أن تكون حامية أخرى قد أقامت فى جارما عاصمة جارامانتس فى ذلك الوقت ، وهذا العصر هو أحد العصور التى تركت وراءها وثائق مكتوبة ولكن أبحاث الأثرين قد ألقت فى الوقت الحاضر ضوءاً أعلى ما كان يعترىها من ظلام .

وفى أوائل القرن التاسع عشر أبلغ أودنى المستكشف أنه عثر على مقبرة رومانية فى جرما وقد زارها بعد ذلك بجيل هنرى بارت ووصفها بدقة كبيرة<sup>(١)</sup> فتمتعت بما تستحقه من الشهرة ، وفى سنة ١٩٣٤ حملت بعثة أثرية إيطالية من جرما المجموعة الثمينة المختلفة من الأشياء الرومانية وهى الآن فى متحف المستعمرات فى روما وقد عثر على بعضها فى المقبرة نفسها . ومعظم

---

(١) والمقارنة بين الصور الجوية للمقبرة برسوم بارت ليست إلا واحدة من الأمثلة العديدة على الدقة التى حافظ عليها هذا الرحالة خلال خمسة مجلدات ضخمة سجل رحلاته فى داخل إفريقيا.

هذه الأشياء من الفخار والزجاج والمسارج . ولكنها تحوى بقايا أقمشة صوفية ذات ألوان عديدة ، ولكن ممالا يدعو إلى الدهشة أن ألوانها ليست قرمزية . وتظهر هذه المجموعة أن البضائع ذات الأصل الذى ينتمى إلى البحر المتوسط وكثيراً من الرومانية كانت تصل إلى فزان بكثرة منذ نهاية القرن الأول حتى القرن الرابع أو بعد ذلك . ويبدو أن المقبرة نفسها تعود إلى القرن الثانى وفرص التجارة التى فتحت عن طريق حملات سبتيوس فلاكوس ويوليوس مترینوس لم تهمل ، وقد اكتشف الأثريون ما قادنا إلى ما كنا نتوقعه . فأوانى حفظ الماء وهى من طراز يذكرنا بشبهاتها فى طرابلس تظهر أن اهتمام الرومان بفزان ضم الرغبة فى التقدم إلى جانب التجارة ، ولكن كان للتجارة السيادة، وتقدم التجارة الرومانية حقلاً واسعاً للأبحاث ، فاهتمام كثيرين من المؤرخين البارزين الذين جعلوا منها مادة أبحاثهم لم تمتد جدياً إلى الصحراء التى كانت ذات أهمية تجارية صغيرة . إذ كانوا يجمعون على الظن بأن المواد التى تاجر فيها الرومان مع فزان كانت تلك التى انصبت نحو الشمال عن طريق جارامانتس وخاصة الذهب والرقيق والعاج وريش النعام . وليس هناك من أساس تاريخى لمثل هذا الظن . وفى الحقيقة ليست هناك سجلات على أن الرومان استوردوا من فزان هذه المواد .

ويؤكده بلينى حين يقول ( كان اهتمامنا الوحيد هو التجارة فى الأحجار الثمينة المستوردة من إثيوبيا وهى مانسميها بالياقوت ) . وشبهه بذلك قبل ذلك بقرن ، حين أشار سترابو إلى فزان كمصدر للياقوت ، ولكل من الكاتبين كان طريق جارامانتس هو طريق تجارة الياقوت . ومع هاتين العبارتين الواضحتين من الصعب أن نقاوم النتيجة التى تقول أن الياقوت كان أهم المواد فى تجارة الرومان مع فزان وليس هناك من آراء فى الوثائق المتأخرة أنه لم يكن كذلك .



وكان الذهب في بعض الأوقات يستخرج من فزان، ولكن من المحتمل أن لا يكون قديماً قدم الإحتلال الرومانى، فمن المحتمل أن يكون الرومان حصلوا على بعض الذهب من هناك ولكنهم كانوا يحصلون على كميات أكبر من مصادر أخرى امتدت من أسبانيا إلى أورال . ومن البحر المتوسط حتى البلطيق وليس من المحتمل أن الذهب كان مادة تجارتهم الصحراوية وتمكننا أن نحكم على أن ريش النعام كان مادة تجارية هامة لأنه كان متوفراً في الشمال وكذلك الحيوانات الوحشية من أجل الحلبة أو من أجل جلودها . وأكثر من ذلك فإن كثرة تكاليف نقل الحيوانات الحية أو الجلود عبر الصحراء كانت تمنع نقلها .

أما العاج فمحتمل ، فالأفيال كانت متوفرة في شمال إفريقيا في بداية العصر المسيحي ، ولكن انعدم وجودها في القرن الرابع ، ومن ناحية أخرى كانت آسيا والبحر الأحمر — وهي مصادر كثيراً ما اعتمد عليها الرومان — لا تزال تدمم بالعاج على نطاق متزايد إلى حد أنه لم يعد له قيمة تذكر . ومن المحتمل أن بعضاً منه كان يأتي من فزان وإذا كانت كميته هامة ، فلن يفوت كلا من سترابو وبليني ذكرها . في عهد كل من الجمهورية والإمبراطورية استخدم الرومان الرقيق ولكن مصادره في أوروبا وآسيا كانت غير محدودة . فأسرى الحروب كانوا وحدهم مورداً لا ينضب في أيام الجمهورية ، فغزوة واحدة على ابيروس Epirus أتت بمائة وخمسين ألفاً من الأسرى . وعند سقوط قرطاجنة استرق عدد هائل من سكانها . ولسنين طويلة وكان سيلهم من آسيا كبيراً ومستمراً . وإلى جانب ذلك كانت هناك أسواق للرقيق في البحر المتوسط وخاصة ديلوس Delos حيث يخبرنا سترابو أنهم كانوا يستطيعون تسليم عشرة آلاف من الرقيق كل يوم ، ولم يكن أرقاء أوروبا وآسيا وحدهم كثيرين ولكنهم كانوا أليق لمطالب ( م ٥ — الممالك الإسلامية )

الرومان من الإفريقيين لتأقلمهم للجو ولكونهم أقوى بنية ، وبخلاف التماثيل الصغيرة المصدرة للزئبق والموزاييك الذي يعود إلى القرن الأول في بومبي مصورة للرقيق الزنجي في مرقص ، فهناك دليل صغير لأرقاء من الزئبق في عهد الإمبراطورية .

من الصعب إذن أن نعتقد أن كانت لروما رغبة في أن تتجه إلى إفريقيا من أجل عمل الرقيق ، فاحتياجاتهم إليه على نطاق هام كان أقل من احتياجاتهم الأخرى ونحن نسمع أن أهل نوميديا وجايتولى كانوا يستخدمون كحاملين للقش أو للحيوانات الصغيرة ، فقد كتب سينيكا Sineca أنه يجب أن يرى كانوليرى أحد المتأنقين ومعه تابعه من النوميديين . ولكن هؤلاء قدموا من الشاطئ الإفريقي الذي كانت له أسواقه الخاصة بالرقيق واستعمالهم لم يكن يتعدى أن يكون مودة طابرة قبل إستعمال الزئبق في إنجلترا في القرن الثامن عشر . لأن الرقيق الأسود الذي كان يأتي عن طريق جارامانتس لم يكن له مكان في الإقتصاد الروماني . والقلة منهم الذين كانوا يستخدمونهم في الخدمة المنزلية كان يمكن الحصول عليها بسهولة من بين الجاليات الزنجية على الشاطئ الإفريقي . فأجزاء من واحات الصحراء كانت بلاشك — كما في العصور المتأخرة — تزرع بواسطة رقيق السوءان ولذا نستطيع أن نستبعد إمكانية أن يلعب الرقيق أكثر من دور صغير في التجارة الرومانية مع فزان .

وليس هناك من سبب يجعلنا نشك فيما كتبه سترابو وبليني عن تجارة الياقوت فلا بد أنه كان مادة تأتي بها قوافل الشمال ، ومن المحتمل أن تكون هناك تجارة ممتربةما لعب فيها العاج دوراً ، كما أنها قد تضمنت من وقت لآخر بعض الرقيق وكذلك قليلا من الذهب ولم يذكر أحد مادة الزبد ( المسك ) ( بفتح الزاي والباء ) كمادة من المواد التي جلبها الرومان من فزان فخلال



التاريخ المدون كان الزبد مستعملاً في السودان والصحراء . وفي خلال العصور الوسطى اشتد في طلبه تجار الروائح العطرية في أوروبا كما هو الحال اليوم . ولا بد أن الرومان عرفوه عن طريق اتصالهم بتجار البحر الأحمر ولا بد أنه كون جزءاً من التجارة القادمة من فزان . وبالرغم من أننا لا نملك أخباراً وثيقة عن تجارة جارامانتس فمن الواضح أنها لم تكن كبيرة الحجم وتفوقها تجارة روما البحرية وبالرغم من ذلك فإنها كانت مأملاً هاماً في تاريخ الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا .

وفي العصر الماضي رأينا أن تجارة جارامانتس أيام القرطاجنيين كانت على قدر من الأهمية كاف لأن تجوب بنسبة ما مواطن قريبة على شاطئ سرتيس، وأنها كانت في الأصل في لبسيس وأويا وسيرتا . وفي أيام الرومان نجحت هذه المراكز الصغيرة حتى أصبحت مدناً كبيرة إلى أن أعطت فكرة أن التجارة هي التي كانت سبباً في نشأتها ، وسببت أيضاً عظمة شأنها ولم يكن الأمر كذلك بل يبدو أنهم مدينون بثروتهم تحت حكم الأباطرة إلى الزراعة التي بذلوا جهودهم في تحسينها وإلى المصايد وإلى تجارة الأصباغ القرمزية ، وقد شجع التقدم الزراعي لأسباب سياسية أكثر منها إقتصادية بغرض ربط القبائل نصف البدوية بالأرض والعمل على حل المشاكل الإدارية المستعصية ، ولكنها كانت موجهة أيضاً لسد مطالب روما نفسها ومن بينها زيت الزيتون، وبذا أصبحت طرابلس أحد مراكز الإنتاج الهامة في الإمبراطورية لزيت الزيتون ، وما زالت بقايا معاصر الزيت المنتشرة هنا وهناك تحمل الدليل على ذلك : وقد زرعت الحبوب والمحصولات الأخرى في ظل نظام دقيق للرى أشير إليه أكثر من مرة كما كانت هناك مزارع الكروم ولكنها كانت لسد المطالب الإقليمية فقط ، فمنذ أيام قرطاجنة أعيد تنظيم الريف وأعيد

تنظيم اقتصاد أمبوريا معه و كثرت السفن التي تسير من لبسيس وأوستيا Ostia تحمل زيت الزيتون أكثر مما تحمل من منتجات فزان والسودان .

وتوحد في جبال أحجار في قلب السودان الأوسط خرائب تعود إلى العصر الروماني وترتبط بالبحر المتوسط رغم أنها تبدو غير رومانية ، فبالقرب ومن واحة أباليسا Abalessa تقع خرائب أبنية أقيمت بطريقة غير معروفة للطوارق الحديثين . ولكن ما زال يزاوها تيبوتبستي . ووفقا للأقاصيص كانت موطن امرأة تسمى تن حنان Tin Hinan التي اعتلت جملانحماً أبيض اللون ووصلت بطريقة غامضة إلى أحجار من واحة بعيدة هي تافيلت Tafillet في جنوب مراکش ، وهي التي يدعى الانتساب إليها أرسقراطية الطوارق المحليون . وقد كشفت الحفائر عن مقبرة وجدت بها عظام سيدة غير مراكشية بل مصرية الطراز ، تذكرنا بشدة بالطبقة الحاكمة المصورة على التماثيل الفرعونية وعلى ذراع الهيكل العظمى وجدت أساور من الفضة والذهب وعلى صدرها ذهب وخرز مختلف بعضها من الحجر الخلقدونى ، وفي المقبرة كميات من خرز آخر كثير منها من خرز أجرى المشهور وحجاب للخصوبة وسلة للبلح والحبوب وأوان للبن وعملة من عملات قسطنطين وأشياء أخرى كثيرة تعرض حالياً في متحف باردو في الجزائر . وإلى جانب العملة فالزجاج روماني وهما معا يشيران إلى تجارة القرن الرابع وقصة تن حنان من أين قدمت ولماذا اختارت ، وكيف وصلت من هذا المكان البعيد لتسكنه ، تقدم لنا إحدى مشاكل الصحراء المستعصية . قد عملت إغراء مضاعفا لأن الحفائر أكدت القصة .

وإذا رجعنا خلال القرون إلى العصر الروماني تظهر لنا حادثة فاقت من كل ما عداها في الأهمية وكانت إحدى الحوادث التي لم يلعب فيها الرومان دوراً ما . هي حادثة دخول الجمل وهي حادثة لها مثل هذه



التأنيج البعيدة المدى حتى لقد صارت فجراً لعهد جديد في النصف الشمالى من القارة فإنها وسعت حقل النشاط البشرى وأثرت في الحياة الاقتصادية لكل الجماعة . فقد أعطى الجمل للانسان حرية الحركة التى لم يعرفها من قبل ووضعت في متناول يده أقصى المراعى . وفقدت طرق القوافل نصف مخاوفها وفتحت طرقاً جديدة لسير التجارة والثقافة .

وبكل هذه التغييرات جاء رجل جديد إلى إفريقيا وهو البدوى مالك الجمل سابقاً في تاريخه . منساحاً لا يمكن مهاجمته وبذلك واجهت المدينة خطراً له لم يتحرر منه مطلقاً كما لم تعرفه الفرق الرومانية قط .





## الطوارق

قبل الغزوات العربية في القرن السابع والقرن الحادى عشر سكن شمال إفريقيا عنصران متميزان هما الزنوج وغير الزنوج وكان الأولون من العنصر الحامى الشمالى . وحملوا اسم الليبيين وأطلق الرومان عليهم هذا الاسم ثم جاء العرب فأطلقوا عليه اسم البربر واشتقت هذه الكلمة من لفظ بربرى اللاتينية . أما الزنوج وفيهم درجات متفاوتة من الدم الحامى . فسكنوا أيضاً الصحراء وازدادت نسبة الدم الزنجى كلما تقدمنا جنوباً حتى أصبحوا زنوجاً خالصاً عند غابات المناطق الإستوائية عند ساحل غانة ، وقد أطلق العرب على هذه الأجزاء الجنوبية خلف الصحراء اسم بلاد السودان<sup>(١)</sup> وبذلك أطلق اسم السودان أصلاً على كل البلاد جنوبى الصحراء ولكنها تطلق فقط على حزام السفانا . ومنطقة أشجار الإبهاء التى تفصل الصحراء عن منطقة الغابات الكثيفة التى تمتد من النيل حتى الأطلنطى . وفى الصفحات التالية سينصب اهتمامنا على السودان الغربى . وهى كل أجزاء الحزام الذى يقع غرب بحيرة تشاد وهى موطن الزنوج الخلفى من الرعاة والزراع المستقرين الذين أقاموا دولات وية تغلبت عليها عناصر الشاطىء الشمالى الإفريقى . إذ لم يكن هذا طريق موصلاتهم طوال العصور التاريخية . بينما لم تكن طرق الصحراء لتنتظر مجىء الجمل . فهذا الحيوان هو الذى مهد الطريق أمام القوافل وجعلها مسالك مطروقة للتجارة والثقافة لتؤثر تأثيراً عميقاً فى مجرى التاريخ على حافى الصحراء .

وقد لعبت شعوب الصحراء دوراً هاماً فى تقدم الحركة وكان استمرارها دائماً تحت رحمتهم . وكان أهم هذه القبائل الصحراوية اللييون البدو

(١) يكاد اسم السودان العربى يعادل إتيوبيا فى نظر اليونان والرومان .

الذين نعرفهم الآن باسم الطوارق . ( ومفرده طارق ) وأطلق عليهم العرب اسم المثلثين وهم طوال القامة رشيقون ذوو وجوه طويلة سمراء ولأولادهم في العادة شعور مموجة فاتحة اللون سرعان ما تصبح سوداء . وأهم ما يميزهم ، عادة الرجال الغربية في تغطية وجوههم بلثام أو حجاب . لا يترك منه شيئاً ظاهراً سوى العينين . ومن هذا أعطاهم العرب اسم المثلثين ومعناها المحجبين ويرجع تاريخ هؤلاء الطوارق إلى أيام الغزو العربي حين احتلوا كل الصحراء الغربية والوسطى . ولكتنا نكتينهم في كتابات كوريوس Corippus وبطليموس وغيرهم من الكتاب المبكرين ، ويبدو أن شعوب أوسترياني Aasturiani ومازيك Mazices وإيفوراسس Ifuraces التي قطنت مملكة جارامانتس . كانت كلها من الطوارق ، فالأوسترياني الذين كتب عنهم سينسيوس Synesius والأرزوجس Arzuges الذين كتب عنهم أوريوس Orosius والاستاكورس Astacures الذين كتب عنهم بطليموس Ptolemy كانوا جميعاً من الأزجر Azger الحاليين الذين احتلوا قرابة أربعة عشر قرناً نفس المنطقة التي يحتلونها الآن ويمثل الإيفوراسس الذين كتب عنهم كوريوس اليوم شعوب الإيفوجاس Ifoghas وهي قبيلة من الأزجر يسكنون منطقة قريبة جداً من منطقة أسلافهم .

ويبدو أن الطوارق لم يكونوا محجبين في أيام الرومان والبيزنطيين ، لأنه لا ذكر لهذه الخصلة المميزة في كتابات الكتاب المعاصرين وربما يكونون قد استعملوا الحجاب بين سنتي ٦٠٠ و ١٠٠٠ م<sup>(١)</sup> وهم منقسمون إلى عدة جماعات وقبائل وأهمها تاريخياً جماعة صنهاجة التي رأست يوماً ما اتحاداً من كل

---

(١) لا يعرف متى استعمل الطوارق الحجاب وربما يكون سبب ذلك بعض الطقوس . وفي رأي السير ريتشموند بالمر أنها ربما تكون بقايا عبارة ميثراس التي لها بعض من يعتقونها في الصحراء .



الطوارق، وكل قبيلة تنقسم إلى طبقتين السادة المسمون إيماجيهان Imajeghan والأمجاد Imghad أو الرقيق . ولغتهم هي التياج Temnjegh وأبجديتهم المعروفة باسم تافيناج Taifinagh مشتقة من كتابة ليبية قديمة .

والطوارق — الذين يطلق عليهم العرب في بعض الأحيان اسم مسيحيو الصحراء — مسلمون . ولكنهم يحتفظون ببعض معتقدات ترجع إلى ديانتهم الأولى . وهناك كثير من الأدلة التي تشير إلى أنهم اعتنقوا المسيحية يوماً ما بالرغم من كونهم الآن مسلمين فهم لا يتزوجون إلا زوجة واحدة وأفضل ما يزينون به هو الصليب ودروعهم كثيراً ما تحمل علامة الصليب ، وسيوفهم كذلك ذات مقابض على هيئة الصليب وسروج جمالهم اتخذ أيضاً شكل الصليب وهو نفس الشكل الذي يرسمه أصحاب الحرف على الجلود والمعادن . كما وجد في نقوش تفناج . كما أن هناك بضع كلمات في لغة تفناج تشير إلى أصلها المسيحي . مثل إسماميسي Mesi ومعناها إله وانجيلوس ومعناها ملاك . واسماء صموئيل وداود وشاول شائعة بينهم ونادرة بين عرب إفريقيا . وهي دليل على أنهم في وقت من أوقات تاريخهم تأثروا على الأقل بالمسيحية . ولكن هناك من يظن أنهم لم يكونوا يوماً مسيحيين وحوليات بكلاروم Bicularum تذكر أن أهل جاراماتس وجيرانهم النوبيين أهل مقرة اعتنقوا المسيحية في القرن السادس حين بشر بالإنجيل كل الأقوام غير المؤمنة القاطنة وراء الحدود الإمبراطورية ، وربما كان الطوارق من بين من اعتنقوها . وسواء كانوا مسيحيين أم لا ، فليس هناك ما يدعو إلى الدهشة إذا وجدت آثار المسيحية في الصحراء . ففي أيام الرومان كانت الصحراء ملجأ لطريدي الاضطهاد الديني كما كان هناك من اضطهد منهم سياسياً . والقصص المثيرة المعروفة عن القديس بربتوا Perpetua وغيره من شهداء شمال إفريقيا لا تترك مجالاً للشك فيما أن

آلافاً من الرهبان الضعفاء هربوا إلى الصحراء في الجنوب . من أجل أن يحافظوا على ديانتهم ويزاولوا طقوسها في الواحات في أمان .

وبدخول الجبل أصبح الطوارق قواد قوافل الصحراء . كما لعبوا دوراً هاماً في تاريخ شمال إفريقيا . فهناك أربعة طرق طبيعية عظيمة ربطت الشمال بالجنوب: الطريق الممتد من سجلماسة إلى ولاتا<sup>(١)</sup> والذي يقود إلى موطن الذهب في السنغال والتيجر الأعلى ، والطريق الممتد من غدامس إلى غات وايري وممالك الهوسا الغنية ، ثم الطريق الممتد من طرابلس إلى فزان وكوار Kwar أو طريق جارامانتس إلى بورتو وبحيرة تشاد ، وفي أقصى الشرق الطريق الممتد من سيرانكا إلى الكفرة ثم إلى واداي . والطرق الثلاثة الأولى كان يتحكم فيها الطوارق في كل أيام تاريخهم المسجل . وشارك الطوارق الطريق من سجلماسة إلى ولاتا مع البرابيش Berabirh وهم شعب عربي تبربر ، ويحتمل أن يكونوا من أصل حامى . والطوارق هم الذين حفرُوا آبار الصحراء وحافظوا عليها من أجل سقى الرعاة ورجال القوافل المارة . وهم أيضاً كانوا نقلة التجارة الذين لم يستغن التجار عن خدماتهم عند النهاية الجنوبية لطريق التجارة للطوارق الذين لم يكونوا يوماً قادرين على أن يحرروا أنفسهم تماماً من الإعتماد على المؤونة التي تأتيهم من الخارج حيث كانت المحافظة على حمل تجارة الصحراء ضرورة اقتصادية . ففرضوا المكوس والضرائب على التجار الأجانب الذين استعملوا الطرق التي تحكم فيها الطوارق . ولكنهم كانوا حريصين على أن مايفرضونه من المكوس لا يكون أكثر مما تحتمله التجارة ، ورغم أن السيطرة على الآبار والمراعى كانت دائماً مصدراً للنزاع بين القبائل في الصحراء ، فلم يكن يسمح غالباً بهذه القيود لأن تتدخل في التجارة . كما أن العناصر الزنجية لم تنقطع يوماً عن التأثير بثقافة البحر المتوسط وثروة

---

(١) يسميها ابن بطوطة أيو الاتن .



المناطق الداخلية البعيدة كانت دائماً في متناول جماعات العالم الغربي المأجورة . كانت دائماً تعزى إلى الطوارق وتكون اشتراكهم الرئيسى فى تاريخ الحضارة ولكن بالنسبة لهم ربما أثبتت الصحراء لعصور طويلة أنها كانت حاجزاً لا يمكن التغلب عليه للقاء الإنسانى بدلا من طرق التجارة والثقافة .

والطوارق كنز نادرة التى يعزى إليها إدخال الجمل إلى الشمال الإفريقى — لابد أنهم قدموا من الشرق ، من شرقى البحر المتوسط أو جنوب الجزيرة العربية . وتجمع القبائل معقد ولا نحتاج إلى إزجاج انفسنا بذكره هنا . والقبائل الوحيدة التى تعيننا هى لمتا Lemta وصنهاجة Sanhaja وجداله Jedala ( جويدالا ) ولمتونة Lemtuna وأزجر Azger ومسوفة Mesufa<sup>(١)</sup> .

وكانت الصحراء أيضا موطن شعب آخر من الشرق . وهم اليهود الذين — منذ بدء العصر المسيحى — كونوا عنصراً هاماً من سكان الداخل . وأهم الهجرات المتجهة نحو الجنوب للقبائل العربية حدثت فى سنة ١١٥ م . على أثر ثورة اليهود ضد الحكم الرومانى فى سيرانىكا . وسلك المهاجرون طريقين مختلفين أحدهما يسير جنوباً إلى ايرى عبر النيجر الأوسط . ثم إلى السنغال وفوتا وهناك لحق بهم الفرع الآخر الذى كان قد سلك طريقاً غربياً عبر جنوب مراکش وموريتانيا وادرار Adrar ونتيجة لهذه الحركات أصبح

---

(١) وأهم قبائل الطوارق تاريخياً هم الزغاوة الذين سوف أشير إليهم فى فصل قادم وفى تاريخ ربما يكون معاصراً لغزوة العرب لشمال إفريقيا حيث أقاموا أنفسهم طبقة أرستقراطية حاكمة فى السودان . وإليهم يعزى إدخال صناعة المعادن وفى الهوساوما تيجاورها طبقة من صنّاع المعادن وصنّاع الجلود يتميزون عن بقية السكان وربما كانوا من الزغاوة تحت هذا الاسم فقط فى بحيرة تشاد وهم على ذلك خارج بحثنا .

اليهود موزعين على كل أجزاء شمال إفريقيا . وحافظت الجماعات اليهودية في واحات الصحراء على شخصيتها ولكن في السودان سرمان ما اختلطوا بالجماعات الكثيرة من السكان الوطنيين . وأثر الدم اليهودي مازال يرى . وربما لا توجد شعوب في السودان الغربي لهم مثل هذا الدم اليهودي مثل الفولاني الرعاة الذين كان يحتلون فوتا حيث التقت الموجتان اليهوديتان . وحمل الامتداد الفولاني نحو الشرق الدم اليهودي إلى شواطئ بحيرة تشاد . وربما يكونون قد وصلوا إليها في نهاية القرن الثالث عشر . وهناك أسسوا مراكزهم الفولانية الحالية في دارفور وبارجى ومندارا .



## العرب

منذ القرن الرابع حتى السابع اضطربت شمال إفريقيا بالإضطهاد الديني والثورات والغزوات . وأحلت الحكومة الفوضى — بطريقة نظامية وإن كانت تعسفية — ومعها إختلال الأمن اللذين أضرا بالتجارة والثقافة ، واهتمت الحويلات المعاصرة بذكر الإرهاب وسفك الدماء لتعطى فكرة عن الإضطرابات التي شاعت في الدولة البائسة ، فهي لا تخبرنا إلا قليلا عما كان قد حدث في الجنوب ، وظلت قبائل الصحراء تستقبل الثوار الهاربين واستفادت من الفوضى العامة لتؤكد من جديد حقوقها الرعوية التقليدية في المرتفعات الساحلية ، ونهبوا جيرانهم الشماليين وبذلك امتلكوا قطعانا كثيرة من الجبال التي أصبحت — في نهاية القرن — الحيوان الشائع الاستعمال للنقل في الصحراء . فالعصر إذن على درجة كبيرة من الأهمية لموضوعنا لأن التغير شمل كل مظاهر الحياة الصحراوية فنصف القيود التي وضعتها الطبيعة على السفر واستعمال المراعى رفعت واكسبت البدو قوة الخير والشر . قوة حمل التجارة ونهب القوافل والجيران، وهو أمر لم يتمتعوا به من قبل . وبتحريرهم اكتسبوا أهمية سياسية واقتصادية ظلت معهم حتى القرن العشرين .

وبدأت المتاعب في القرن الرابع بثورة الدوناتية<sup>(١)</sup> ضد الكنيسة وروما وفي ثورتهم ضد الإمبراطور تعاونوا مع فئة السركميليون Curchmcellions وهي شيعه متعصبة دأبت على سلب حواف الصحراء ولجأت إليهم الجموع

---

(١) فرقة دينية كانت تنادى بضرورة إعادة عماد المرتد عن الدين عند عودته إلى حظيرة المؤمنين .

المظلومة وأوكل أمر القضاء على الفوضى وإعادة تأسيس حكم الدولة إلى الكونت بونيفاس Coun' Boniface أعظم قواد عصره . ودفعت الظروف السيئة بونيفاس إلى إعلان الثورة على روما وطلب مساعدة الواندال وفي سنة ٤٢٨م إندفع الواندال بقيادة جنسرك Genseric من أسبانيا إلى إفريقيا وكانوا ثمانين ألفاً من الأشداء . وسرعان ما تبين بونيفاس خطورة ما فعل ، ولكنه كان متأخراً في ذلك ورحب الناس بجنسرك كمخلص لهم ودانت لهم البلاد كلها . وانطلقت كل عوامل الفوضى التي كان بونيفاس يريد القضاء عليها ، وأخذ الدوناتيون جانب الغزاة لما كان يربطهما معاً من روابط كراهية الكنيسة . وانبج جنسرك شرقاً واحتل قرطاجنة ليؤمن نفسه ضد التدخل الأجنبي بعقد إتفاق مع أرتلا . ومعلوماتنا عن إدارته قليلة . ولكن كان لديه ما يكفي من الحكمة ليبقى على جهاز الحكم الذي وجدته ، فمكنه ذلك من إعادة النظام والقانون . ولكن إضطهادات الكنيسة للشعب كانت دائمة وافر كثير من المسيحيين إلى الصحراء كما كان الحال أيام الرومان وعند موت جنسرك سنة ٤٧٧م إنهارت الإدارة وعمت الفوضى مرة أخرى .

وفي سنة ٥٣٣م قاد بلزاريوس Belisarius جيشاً بيزنطياً ونزل عند شاطئ سمرس ، وكما حدث للواندال من قبلهم رحب الناس بالبيزنطيين كمخلصين لهم وهزموا الواندال في سهوله لأنهم كانوا دائماً قليلي العدد أفسدتهم الليونة والترف فلم يستطيعوا المقاومة . وفي خلال ثلاثة أشهر من وصوله تمكن بلزاريوس من أن يكتب إلى جستنيان أن إفريقيا قد طادت رومانية . ولكنه ما أن عاد إلى بيزنطة حتى أخذ البربر يزاولون ما اعتادوه من حب تقليدي للحرية . فأرسل الخصى سليمان ليعيد النظام ، وتوجد الآن عدة حصون مخربة تشهد بنشاط القائد وقوته . ولكن الروح اليقظة التي كانت للنوار انفجرت سريعاً إلى شعله قوية أحرقت كل شيء في



قسوة إلى حد أن اضطر سليمان إلى العودة . وتلا ذلك قرن من الحروب المخربة . لم يترك شيء في نهايته لبيزنطة . سوى قرطاجنة وساحل البحر الذي يجاورها . وهذه لم تلبث أن اكتسحتها سيول العرب التي اندفعت نحو الإقليم . وكان الزحف العربي الأول نحو الغرب في سنة ٦٤٢ فاندفعوا إلى الشريط الساحلي من الشمال الإفريقي الذي أطلقوا عليه اسم المغرب . وفي سنة ٦٤٧ هزم الحاكم جريجورى الذى كان قد أعلن منذ قليل استقلاله عن بيزنطة في سوفيتولا Sefetala ( سبتلا الحالية ) وانتهى حكم بيزنطة في إفريقيا ، واختار العرب لقيادتهم موقعا على رأس الطريق الساحلي الذى يسير إلى مصر وعلى بعد كاف من الشاطئ ليكنونوا آمين من غزوات الأسطول البيزنطى . وفى قلب المغرب بنوا مدينة القيروان .

وفى خلال الثلاثين سنة التالية احتل العالم الإسلامى فرق من شعوبه خرجت منها معظم الشيع الإسلامية . وفى سنة ٦٧٨ جدد العرب غزوم لشمال إفريقيا واكتسحوا البلاد طولا وعرضا يقودهم عقبة بن نافع ووصلوا إلى المحيط الأطلنطى حيث اندفع القائد المتتصر بحصانه إلى الأمواج ليظهر أن فتحه للبلاد كان كاملا . واحتلوا فزان فى الجنوب ووصلوا إلى واحدة كواره ولكنهم عادوا بعد أن كانوا على وشك أن يكتشفوا أراضى الحشائش فى السودان<sup>(١)</sup> . واستقر بعضهم فى واحات الصحراء وربما تصاهروا إلى اليهود ومن هذه المصاهرة خرج عرب الكونتا Kunta الذى يسكنون جنوب غربى الصحراء .

وقد بدا أن انتصار العرب كامل أظهر المغاربة حبيهم للحرية وشعورهم القوى بالقومية وهو الذى طالما أنقذ الفاتحين فى أوقات الشدة من الانهيار

---

(١) جذبت كثيرين من التجار العرب الحراسانيي الأصل نحو فزان تجارة الرقيق بها ( بلر ماى أوريس روما من يورنو ) لاهوس سنة ١٩٢٦ ص ٦٧ .

فبمعونة الإغريق الذين بذلوا طواعية بقودهم أحد ملوكهم هو Koceila كسيلة انقلب السكان على عقبة وجيشه بالقرب من يسكرة في سنة ٦٨٣ وضربوا القيروان وساقوا أمامهم بقية العرب إلى مصر التي أعلن حاكمها العربي أن فتح إفريقيا مستحيل لأنه إذا فنت قبيلة بربرية فسرطان ما تأخذ مكانها أخرى .

وبعد عدد يسير من السنين خرج جيش حاكم مصر ليخضع المغرب من جديد ، فأعاد بناء القيروان وخرب قرطاجنة وألقى ببقايا البيزنطيين إلى البحر ، وكر البربر مرة أخرى تحت قيادة الكاهنة من زناتة وطردت العرب مرة أخرى وحصرتهم عند الخليج ولكنها هزمت في سنة ٧٠٣ فبعد خمس سنوات عاد العرب تحت قيادة موسى بن نصير واكنسحوا البلاد من جديد من الشرق إلى الغرب ، ولكن يبدو أن هذا النصر لم يكفهم ففي سنة ٧١١ غزا العرب بساعدهم البربر الذين اعتنقوا الإسلام أسبانيا حيث عملوا على تطوير حضارتها المتقدمة التي من أجلها سيظل اسمهم مقرونا بالشرف . ( على نحو يناقض تماما عملهم في إفريقيا وفي جنوب البحر المتوسط حيث لم يحققوا قوة أو ثقافة )<sup>(١)</sup> .

وكانت قبضتهم على المغرب لا تزال بعيدة عن الأمان والقرون الثلاثة التالية مليئة بالغموض ولكنها تميزت بصراع مستمر بين العرب والبربر وهو الصراع الذي انتهى مبكراً في القرن الحادى عشر بانتصار البربر وهزيمة الغازين . ولم يتمتع البربر طويلاً بشمرة إنتصارهم وغزيت إفريقيا مرة أخرى في منتصف القرن بواسطة بنى هلال وبنى سليم وهم من البدو الذين طردوا من مصر وكان الخليفة الفاطمى تواقاً إلى أن يخلص مصر من هؤلاء الضيوف المتعبين الذين لا يمكن حكمهم ، فاستحثهم على أن يبحثوا لهم عن وطن جديد في المغرب وغسل منهم يده . واستجابوا لدعوة وانحدروا

---

(١) بل حقق العرب كثيراً من القوة واشتافة ودائماً على ذلك الممالك المغربية المتعددة التي قامت في هذا الركن .



إليه . وكانوا قرابة مائتي ألف من الرجال الأشداء وبيننا بقي بنو سليم في سيرانيك (برقة) إندفع بنو هلال غرباً وتوغلوا إلى الداخل مخربين قاتلين أينما ذهبوا وقد شبه ابن خلدون غزوة بني هلال بغارات الجراد الذي يخرب كل ما يمر به وكان أشد فتأج هذه القارة أنراً هو زحف الصحراء على البلاد وانتهاء الحضارة بها بطريق مباشر ، وعن طريق قطعانهم خرب هؤلاء العرب معظم الغابات وخلقوا قصوراً في حرفة بناء السفن من الخشب الذي أصبح فيما بعد مصدر قلق لأحفادهم القرصان .

وقد ذكرنا في فصل سابق أن أنقاض المدن تنتثر على صفحة المغرب وكذلك بقايا القرى والقناطر والسدود والآبار والكبارى والخزانات التي تخربت بفعل جموع هذه القبائل المتوحشة وأن الصحراء لم تزحف من قبل بمثل ما زحفت عليه من مساحات كانت قبل غزوة الهلالين مزدهجة بالسكان وأكثر أهمية من تخريب العرب الشامل دوام تملكهم للبلاد . وعلى نقيض أقربائهم أصحاب الغزوات المبكرة جاء هؤلاء ليستقروا ، وما زال نسلهم يسكن البلاد لا سيما الأرض المنخفضة وإذا كان البربر قد نجحوا في الاحتفاظ بنقاوة جنسهم فالفضل في ذلك يعود إلى أن الطوفان العربي فضل سكنى الأراضي المنخفضة فقط فلم تمس آثارهم المرتفعات التي سكنها البربر<sup>(١)</sup> .

(١) أنارت محافظة البربر على نقاوة جنسهم دهشة علماء الأجناس بالرغم من مجيء الفينيقيين والرومان والواندال واليهود والعرب فإنهم جميعاً تركوا آثاراً خفيفة جداً ولذا فشل العرب والبربر في الاختلاط بالرغم من أنهم عاشوا متجاورين أكثر من ألف سنة فرض فيها العرب ديانتهم ولغتهم وملابسهم وكثيراً من عاداتهم على جزء كبير من السكان البربر فإن الآخرين ظلوا محتفظين بخصائص جنسهم المميزة ، وفي جبال أوراس مثلاً يوجد ٢٥٪ فقط من السكان لهم عيون سوداء .

وظل العرب رعاة يسكنون الخيام ( مؤمنين بالحرافات متعصبين ) ويعيشون وفق نظام قبلي لقطاعي . بينما البربر يفصلون سكنى الجبال ويزرعون الأرض وبالرغم من أنهم قادرون على الانفجارات التعصبية قليلاً ما يحركهم حماس ديني .

ويظن جريفيوس Grievus أن آثار الغزوة الهلالية كانت قدوم العرب وقد حملوا كثيراً من المزايا الثقافية إلى المغرب إذ أحضروا معهم العلم والنظرة العريضة التي اكتسبوها من الثقافة الهلينية التي عرفوها في الدولة الرومانية وهي التي صارت بعد ذلك برعماً للثقافة الإسلامية الغنية في الأندلس .

وليس هناك من فرع من فروع العلم أغناه الدارسون المسلمون أكثر من الجغرافيا . فقد دفعتهم أعمال بطليموس التي ترجمت إلى العربية ليهتموا بالبلاد الأجنبية الواسعة التي غدتها الأخلاق العالمية الإسلامية ففي طول البلاد الإسلامية وعرضها لى الرحالة المسلمون الترحيب أينما اتجهوا كما لقوا نفس حسن الضيافة بين الجماعات الإسلامية المنعزلة في بلاد غير المؤمنين . وليس هناك من فعل أكثر ظهوراً من اتساع الأفق الإسلامي غير العادي من حادثة في حياة الرحالة الكبير ابن بطوطة إذ بينما كان في سجناسة في جنوب مراکش اكتشف أن مضيفه هو الرجل الذي كان الرحالة قد قابله منذ سنين في الصين الغربية .

وهناك دافع آخر للسفر إلى الخارج ودراسة الجغرافيا وهو الحج إلى مكة ، وهو فرض على كل مسلم قادر يملك الوسائل لإتمامه وخضوعاً لهذا الواجب اجتمعت شعوب عديدة بانتظام في المدن المقدسة كما يفعلون الآن وهناك على أرض عامة تبادلوا المعلومات في حرية عن بلادهم .

وكانت التجارة غرضاً آخر من أغراض السفر فأهدافهم التجارية دفعت بالعرب بعيداً حتى الصين وجنوباً إلى المحيط الهندي . وكان اتساع تجارتهم الظاهر بصوره تمام التصوير ما ذكره جغرافي عربي أنه في أحد أسواقهم حيث كانوا يتاجرون في الفراء لم يكن الليل أطول من ساعة .

وقبل قدوم العرب لم يكن يعلم شيء عن إفريقيا جنوبى المغرب ونحن ندين بكل معلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل القارة إلى فئة قليلة من



المؤلفين العرب أهمهم المسعودي وابن حوقل والبكري والادريسي وياقوت  
والعمري وابن بطوطة وابن خلدون ، وديننا لهؤلاء العلماء كبير إلى حد أن  
عبارة يسيرة من كل ، لا يمكن إغفالها من مجلد قائم على ترجمة أعمالهم .

وأهمية المسعودي لنا لا تكمن في اشتراكه في مادتنا ولكن في تأثيره على  
الكتاب المتأخرين الذين ندين لهم . فهو مواطن بغدادي نجعل تاريخ  
مولده ولكنه مات في سنة ٩٥٦ م (٣٤٥هـ) وقضى عشرين سنة متجولا في العالم  
الإسلامي ، ويعتقد أنه زار بلاداً بعيدة كالصين ومدغشقر . وكانت عنده  
فكرة دقيقة تدعو إلى الدهشة عن شكل الأرض وحجمها وحركتها وفي  
هذه الناحية كان متقدماً عن الفكر المسيحي المعاصر ، واعتقد أن المحيط الأطلنطي  
أو بحر الظلمات الأخضر لا يمكن الملاحة فيه ، وهو اعتقاد شاركه فيه بعض  
المسيحيين وإشارته إلى السودان محدودة بإشارة إلى تجارة الذهب  
الصامطة الغربية <sup>(١)</sup> .

وابن حوقل معاصر على الأغلب للمسعودي وكان هو الآخر بغدادي  
الموطن أمضى خمسا وعشرين سنة في السفر وادعى أن كتابه (المسالك والممالك) <sup>(٢)</sup>  
حوى كل ما يلزم من الجغرافيا لكل من الأمراء والعامة وابن بطوطة وابن  
حوقل كاتبا العصور الوسطى الوحيدان اللذان دلت كتابتهما على زيارتهما  
لأفريقيا ، وقصة ابن حوقل من أول القصص عن السودان الغربي وهو أول  
مكتشف معروف له . زار اودغاست Audoghost و كومي Kumbi عاصمة  
غانة . ورأى النيجر وهو يسير نحو الشرق ، وقاده هذا إلى أن يعتقد أنه نيل  
مصر وكان أول من عبر عن احتقار المسلمين التقليدي للزنج وكتب  
عن ذلك :

(١) له كتابان « مروج الذهب ومعادن الجوهر » و « أخبار الزمان » .

(٢) يسمى أيضاً « صورة الأرض » .

( لم أصف بلد زنوج إفريقيا والشعوب الأخرى في منطقة لأنى طبيعياً أحب الحكمة والمهارة والدين، والعدالة والحكومات النظامية وكيف أستطيع أن لاحظ شعوبا كهذه أو أكبرهم بذكر قصص عنهم ؟ ) .

وشهد القرن الحادى عشر ظهور عمل على جانب كبير من الأهمية لطلاب تاريخ شمال إفريقيا، ومؤلفه هو أبو عبيد الله البكرى<sup>(١)</sup> وهو أحد أفراد عائلة عربية كبيرة تمتعت بنصيب من القوة فى أسبانيا الأموية، ولد فى سنة ١٠٢٨ (٤١٩هـ) وقضى كل حياته فى أسبانيا، وتضمنت أعماله أثراً فى الجغرافيا جديراً بالتنويه، وهو فى عدة مجلدات احتوت وصفاً شيقاً لشمال إفريقيا. وما رواه عن السودان له أهمية خاصة لأنه يصور المحاولات المبكرة لرسم صورة طامة لهذا الجزء ومن سياقه — الذى أعجب به الكتاب فيما بعد — نستشف الدليل على أن البكرى اعتمد على وثائق من الدرجة الأولى من الأهمية ولا شك أنها كانت فى الأرشيف الرسمى لقرطبة ومات سنة ١٠٩٤ (٤٨٧هـ) .

وشهد النصف الأول من القرن الثانى عشر عملاً آخر يعتبر أهم مساهمة فى عالم الجغرافيا منذ أيام المسعودى، ومؤلفه الإدريسى<sup>(٢)</sup> وهو عربى أندلسى كان فى خدمة الملك روجر الثانى ملك صقلية النورماندى . وطبعى أن ينظر مسلمو هذا الوقت إلى رجل دخل فى خدمة أمير ( كافر ) بالشبهة، لا سيما فى وقت أثارت فيه الحروب الصليبية أمر شعور بالكراهية بين المسلمين والمسيحيين، وبالرغم من ذلك فإن اسم الإدريسى كما يدعى دائماً قد أحيط بالتكريم فى قارات ثلاث .

وربما بسبب عدم الارتياح الذى ينظر به إليه مواطنوه لا يعرف إلا

---

(١) كتابه يسمى « المسالك والممالك » ويطلق على الجزء الخامس بالمغرب ( المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ) وله كتاب هو ( تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان ) .  
(٢) كتابه يسمى ( صفة المغرب والأندلس ) .



القليل عن حياته، كان جده أميراً للجزيرة Malaga ولكن بعد مدة أبعدت عائلته إلى إفريقيا واستقرت في سبتة وهناك ولد الإدريسي حوالي سنة ١١٠٠ (٥٤٩٥ هـ) ويبدو أنه تعلم في قرطبة وقضى رجولته المبكرة متجولاً في أسبانيا وإفريقيا وآسيا الصغرى .

ولما كان الملك روجر نصيراً للعلوم اهتم بالجغرافيا اهتماماً كبيراً، إذ قضى خمس عشرة سنة يجمع المعلومات عن شعبه المحبوب، وسرطان ماعرف أن أفضل مصدر للمعلومات هم العرب، وبأعمالهم ملأ مكتبته، فكان طبيعياً حينئذ أن يلتفت إلى أي دارس عربي لينتفع بشمرات عمله، واستمر جمع المواد تحت إرشاد الإدريسي، وأتيح لهذا إخراج كتابه المشهور (كتاب روجر) في سنة ١١٥٤ أو (وصف روجر للأرض) وكان الإدريسي واحداً من الكتاب العرب الذين اشتركوا في وصف أوروبا لتفهيمه للفكر الأوروبي وإنتاج كل من حوله<sup>(١)</sup> .

ودارس آخر اشترك في إمدادنا بالمعلومات عن داخل إفريقيا هو ياقوت<sup>(٢)</sup> ولا نعرف عنه كثيراً. كان أبواه من اليونان ولكنه بيع رقيقاً وهو لا يزال طفلاً، إلى تاجر في بغداد اعتنى بتعليمه، وسافر إلى أنحاء كثيرة وراء مصالح سيده وأخيراً أتم عمل قاموس جغرافي ومات سنة ١٢٠٠ (٥٩٨ هـ)

ولم يشهد القرن الثالث عشر عملاً عربياً هاماً لنا ولكن عوضنا عنه بعمل آخر ظهر في القرن الرابع عشر، ونحن ندين لمسالك الأبحار للعمرى بكل ما نعرفه

---

(١) إحدى طبعات (كتاب روجر) المختصرة بواسطة أسرة مديتشي في روما سنة ١٥٩٢ والسكن أول طبعة كاملة كانت ترجمة فرنسية لمخطوطتين في المكتبة الملكية في باريس وهي التي نشرت سنة ١٨٢٦ وتملك أسرة بوداين نسخة من المخطوطة كتبت في القاهرة سنة ١٤٥٩ .

(٢) يسمى كتابه (معجم البلدان) .

عن الحجّة الخالدة التي قام بها منسا موسى ملك مالي، والعمري عربي من دمشق ولد سنة ١٣٠١ (٧٠٢هـ) وقضى حياته الأولى في خدمة سلطان مصر وبعد مدة يسيرة قضاها في القاهرة عاد إلى دمشق حيث كرس نفسه للأدب<sup>(١)</sup>.

ومن معاصري العمري رجلان بارزان من رجال الأدب، سيظل العالم يعتبرهما درة في جبين الحضارة العربية، وهما ابن بطوطة وابن خلدون، أما الأول فهو أحد مشاهير الرحالة في العالم، وندين للآخر بكثير من معلوماتنا عن البربر والتاريخ العربي المبكر.

ولد ابن بطوطة<sup>(٢)</sup> في سنة ١٣٠٤ (٧٠٥هـ) في طنجة حيث استقرت أسرته البربرية لعدة أجيال وتعلم علوم الدين، وعندما بلغ الواحدة والعشرين أزمع الحج، الأمر الذي أعطاه تذوقاً للرحلة التي أصبحت عنده غراماً، وبعد أن زار الشرق الأوسط خرج إلى الهند لينضم إلى الدارسين المختلفين من أنحاء العالم، الذين كانوا يزيتون بلاط سلطان دلهي، فسافر عبر آسيا الصغرى ومنطقة اعشاب (استبس) وسط آسيا إلى خراسان، واستقبل في الهند — حيث سبقته شهرته — استقبالا أرضاه وعين قاضياً للمالكية في دلهي. وكانت دون مكانته. وبعد سبع سنين أرسله السلطان محمود طغلق في بعثة إلى الصين، ولكن ما أن ترك دلهي حتى طارده أعداؤه فاضطر إلى أن يتخلى عن مهمته.

ثم نسمع عنه بعد ذلك في شاطيء ملايار حين عبرها إلى جزائر ملديف وهناك عين قاضياً أيضاً ولكن الدقة التي باشر بها تنفيذ القانون كانت غير محبوبة لسكان الجزيرة، فاضطر إلى تركها، وبعد أن زار سيلان وآسام تبين رغبته

---

(١) ما زال كتابه مخطوطاً في مكتبة استنبول في خمسة عشر جزءاً لم ينشر منها إلا جزء واحد، نعره أحمد زكي باشا.

(٢) كتابه يسمى (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).



في رؤية بكنين ، وبالرغم من انه لم يحظ بمقابلة إمبراطور المغول الأمر الذي كان يتطلع إليه، فإنه ما دىريد العودة إلى وطنه، فسا فر عن طريق سومطرة وملابار وسوريا حتى وصل طنجة في سنة ١٣٤٩ ( ٧٥٠ هـ ) فكانت رحلة حول العالم استغرقت أربعة وعشرين عاما بدلا من حجة كان من المفروض أن تتم في ستة شهور .

ولكن شهوة السفر لم تكن قد استوفيت بعد ، فهناك دولة مسلمة لا بد له أن يراها، وهي السودان وإليها بدء رحلته الثانية التي هي آخر رحلاته وأهمها، لأنها مكنته من أن يعطى العالم أول معلومات تفصيلية عن الرحلات في قلب الجزء الغربى من إفريقيا الوسطى ، وقدر أنه بعودة ابن بطوطة إلى فزان لا بد أن يكون قد قطع قرابة ٧٥ ألفا من الأميال ومات سنة ١٣٦٨ أو في سنة ١٣٦٩ ( ٧٧٠ هـ ) .

ومعاصر لابن بطوطة ابن خلدون سليل أسرة عربية هربت من أسبانيا إلى إفريقيا وقت غزوة المرابطين، واستقرت في تونس حيث ولد في سنة ١٣٣٢ ( ٧٣٣ هـ ) وكانت اتجاهاته الأدبية هي التي أهلته لوظيفة في البلاط في سن مبكر ، ولكنه لم يقنع باتصالاته بالسلطان فتحرك إلى فاس حيث حصل أيضا على وظيفة في القصر ، ولكن السلطان غضب عليه وسجنه ، وحين أطلق سراحه مارس الحياة السياسية التي كان لاثقا لها . وأهلته سمعته كعالم أن ينتقل من سيد إلى آخر ، فبعد أن خدم في غرناطة وبوجيه وبسكرة وتلمسان ، عاد إلى تونس حيث يظن أنه بدأ عمله العظيم في كتابة تاريخ البربر والعرب وكانت حاجته إلى القوة السياسية وسوء استعماله لها، سرعان ما أرغمه لبحث عن حقل جديد لمباشرة مواهبه . وكان اختياره لمصر موفقا لنفسه ولنشاطه . وقد نصب هناك مفتيا للمالكية، ولكنه تركها في سنة ١٣٨٧ ( ٧٨٩ هـ ) واستقر في إحدى قرى الفيوم حيث عاش للدراسة والبحث . وقضى هناك عدة سنين في عزلة تامة أتم

فيها الجزء الأكبر من أعماله التاريخية الخالدة . وفي خلال تنقله من بلاط إلى آخر، جمع كثيراً من المادة التي سرعان ما رتبها وهضمها في عزلة في الفيوم، وبعد أربع عشرة سنة استدعى ليتولى منصب الإفتاء في القاهرة، ولكن شدة أحكامه لم تؤهله لأن يستمر في منصبه طويلاً<sup>(١)</sup>.

## المفتدين

وفي سنة ١٤٠٠ (٨٠٣هـ) صاحب سلطان مصر<sup>(٢)</sup> في محاولته غير الموفقة لإنقاذ دمشق من تيمورلنك فتركه سيده فأنطلق هو إلى معسكر التتار حيث كان يؤمل أن يحصل على تصريح مرور ليدخل به القاهرة أو ربما ليرضى رغبته التاريخية ليقابل شخصياً أكبر محارب في هذه الأيام . وكان هذا كله لإرضاء العالم المسن فحصل على الأمان ومنح مقابلة طويلة مع الفاتح التتاري .

ومات ابن خلدون في القاهرة سنة ١٤٠٦ (٨٠٩هـ) وهو يعتبر أكبر عالم مسلم في هذه الأيام .

وهناك علماء مسلمون آخرون من علماء العصور الوسطى الذين سوف نعتمد على كتاباتهم . ومن بينهم المؤرخ المصري المشهور المقرئ (١٣٦٤ — ١٤٤٢) (٧٦٦ — ٨٤٦هـ) وهناك آخرون عرفناهم عن طريق كتابات الآخرين، عنهم مثل ابن سعيد الجغرافي الذي مات في سنة ١٢٨٦ (٦٨٥هـ) وقد كتب تاريخ السودان الذي لم نثر عليه ولكن إذا حكمنا بكثرة ما أشار إليه أبو الفدا وابن خلدون وآخرون فلا بد أن أعماله كانت على درجة كبيرة من الأهمية ويعتبر فقدتها خسارة للعلم .

وبعد القرن الرابع عشر أخذت الآداب الإسلامية في الضعف بسرعة،

(١) يسمى كتابه ( العبر في تاريخ المبتدأ والخبر ) وهو في سبعة أجزاء .

(٢) هو السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السادات فرج ( ١٣٩٩ — ١٤١٢ )

( ٨٠١ — ٨١٥ ) .



وبالرغم من ذلك فإننا نعتمد أكثر ما يكون على الكتاب العرب لكتابة أكثر التاريخ المتأخر للسودان الغربي وأهم هؤلاء الكتاب ، السعدى مؤلف ( تاريخ السودان )<sup>(١)</sup> .

ولد عبد الرحمن السعدى فى تمبكتو فى سنة ١٥٩٦ وهو (١٠٠٥هـ) سليل أسرة سودانية عالية، تعود منذ شبابه التحرك داخل الدوائر ذات النفوذ، فكان نخوراً بوطنه وفى ( تاريخه ) أشار كثيراً إلى أهميتها بصفتها المدينة الرئيسية فى بلاد الزنوج . وكان منصبه الأول حين عين إماماً لجنى Jenne وهو منصب شغل مثله بعد ذلك فى تمبكتو . ولعب دوراً نشطاً فى الحياة السياسية وأنعم عليه بلقب ( كاتب ) أو بمعنى أصح سكرتير الحكومة ، اعترافاً بخدماته العامة . ويحتمل أن يكون قد مات سريعاً بعد سنة ١٦٥٥ ( ١٠٦٦ هـ ) العام الذى انتهى فيه من كتابه .

وفى الجزء الأول من تاريخه الذى يغطى قيام دولة صنغاي اعتمد على الحوليات<sup>(٢)</sup> ومعظمها لم يصلنا . وأشار فقط إلى اثنين أحدهما القاموس الجغرافى لأحمد بابا وكتاب آخر يسمى ( الكبير ) وأحمد بابا هذا — الذى مات فى تمبكتو فى سنة ١٦٠٧ ( ١٠١٦ هـ ) بعد عدة سنين من الأسرى مراکش ، أحد أفراد أسرة شهيرة فى عقيت Akit وهو — ككثير من علماء تمبكتو من أهل جدالة Jedala ، ومما هو جدير بالذكر أنه أتم تعليمه مع عالم من أصل مندنجو Mandingo هو محمد برهايور هو Muhamed Barhayorho الذى كان أحد

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر المعروف بالسعدى .

(٢) هى تاريخ كل ملك تدون حوادثه سنة بعد سنة من حكم الملك وكاتبها موظف رسمى من موظفى القصر ، ولذا ينظر دائماً إلى هذه الحوليات بعين الشك ، لما فيها دائماً من مبالغات لا سيما فى غنائم الملك أو عدد جنوده والتقليل من شأن أعدائه .

تلاميذ والده . وحاز شهرة طيبة كعالم . ومعظم علماء جنى — التى كانت تعتبر  
مركزاً من مراكز العلم — كانوا من الزنوج وبينما كان علماء تمبكتو من اصل  
بربرى وبالرغم من انه لم يصل إلينا شيء من اعمال احمد بابا فهو مازال يعتبر  
فى السودان كعالم كبير . وكان السعدى اصغر من ان يقع تحت تأثيره  
المباشر . ولكنه استفاد كثيراً من الرفاق المثقفين الذين كان احمد بابا لهم  
قائداً ومعلماً<sup>(١)</sup> .



---

(١) ندين باكتشاف ( تاريخ السودان ) لى هنرى بارت الذى وجد نسخة فى جوا ندو  
( Gwandu ) فى سنة ١٨٥٣ وعزا تأليفه لى أحمد بابا وكان له بعض العذر فى ذلك بسبب  
قلة الأخطاء التى وقع فيها هذا العالم الرحالة . واثنتان من الثلاث مخطوطات الباقية من التاريخ  
موجودة فى المكتبة الأهلية فى باريس .



(٦)

## المرابطون

كانت إحدى نتائج الغزو العربي ضعف طريق جaramانتس ونشأة طريق تجارى آخر عبر الصحراء قدر له أن يكتسب شهرة أوروبية .

إذا ما انتشر العرب غربا انتقل مركز الاهتمام معهم إلى المغرب الأقصى التى تسمى الآن بالمغرب، فسهولها الواسعة وكثرة مراعيها العالية، بالإضافة إلى المطر الغزير والمجارى المائية الكثيرة العدد، فصلت البحر المتوسط عن الصحراء بدلا من الممر الضيق الجاف الذى كثيرا ما منع الغزاة القادمين من النيل من السير غربا . ورغم ان الأحوال لم تكن ملائمة تماما، فإنها لم تكن تختلف عن تلك التى تحولوا إليها وهى أسبانيا . وأخيراً أصبح العرب قادرين على ان ينشئوا مراكزاً ثابتة اتخذوها قواعد لفتح أسبانيا وكان نمو الحركة العلمية الإسلامية والثروة التى أتت بعدها هما اللذان أثمرتا فى إزدهار مراكز العلم والثقافة .

والحركة المستمرة للناس والأفكار عبر المضائق، جعلت غرب إفريقيا على اتصال دائم بالتقدم الكبير الذى حققه إخوانهم فى أوروبا، وجعل من مراكز نقطة اتصال حيوية فى السلسلة التى ربطت بين الإسلام فى الشرق والغرب، فمن الشرق قدم العلماء والتجار والصناع يبحثون عن نصيب من الثروة والثقافة فى الغرب . ومن أسبانيا خرج فيض لا يهدأ من المظلومين وضحايا الاضطهادات الدينية والسياسية، وكلهم طريدو انعدام العدالة وكان معظمهم من الزراع المهرة ومن يساويهم فى العدد من العلماء .

وهكذا تغذى المغرب الأقصى بتيارين من الدم الجديد الباعث على الحياة . وكان التقاءهما الدسم هو الذى أعطى البركة للإقليم ، وقد صورت هذا كله بوضوح مدينة فاس . ففي القرن التاسع استقر ألفان من أسرات القيروان على ضفة وادى فاس الصغير، وبعد قليل من السنين استقر أيضاً قرابة ثمان آلاف من العائلات المطرودة من قرطبة على الضفة المقابلة، ورغم أنهما ظلا متباعدين لعدة قرون يرقب كل منهما الآخر بحسد وعدم ثقة . فمن هاتين الجماعتين القيروانية والأندلسية نشأت المدينة التى أصبحت ومازالت المركز الثقافى للمغرب .

واستفادت مراکش أيضاً كثيراً من مملكة قديمة نشأت بعيداً فى الجنوب على حافة الصحراء والسودان، وعلى الرغم من بعدها وفاصل الصحراء الواسعة، فإن هذه الدولة الضعيفة ( غانا ) كانت تتبادل مع مراکش تجارة اعطت الثروة لكليهما . وكان المركز الشمالى لهذه التجارة هو سجلماسة فى واحة تافيلالت إلى الجنوب من جبال أطلس ، والخرائب الكثيرة التى يغلفها نطاق من الحضرات هى كل ما تبقى من هذه المدينة ذات الشهرة القديمة التى تأسست فى القرن الثامن .

وإحدى الإشارات التى وردت مبكرة عن سجلماسة هى ما ذكره ابن حوقل الذى كتب فى القرن العاشر يقول أنها مدينة ذات حجم متوسط ولا يستطيع الإنسان دخولها إلا عن طريق الصحراء ، والرمال تجعل هذا الدخول صعباً ، والمدينة قريبة من مناجم الذهب وبينهما وبين أرض الزنوج وأرض زويلة . ويقال إن هذه المناجم بها أنقى أنواع الذهب وأكثرها إمتيازاً ولكن من الصعب تشغيلها والطريق إليها خطر متعب <sup>(١)</sup> .

وفى القرن التالى وصف البكرى سجلماسة كمدينة ذات أبنية جميلة يسكنها الطوارق ، تشتهر بطيب مناخها وأشار عدد كبير من الكتاب إلى ثروة المدينة فى تجارة الذهب مع غانة ولكن عرف أن الذهب لم يكن أصلاً فى غانة

---

(١) ذكر ابن عوقل عن سجلماسة أن أهلها قمام سراة مياسير يباينون أهل المغرب فى المنظر والمخبر ، مع علم وستر وصيانة وجمال .



ولكن في بلاد اخرى مجهولة تقع إلى الخلف تسمى وانجارا Wangara . وقد قرنت تجارة الملح بتجارة الذهب التي اهتم بها كثيراً تجار سبلماسة ، وكان الملح يأتي من مناجم تغازة Taghaza<sup>(١)</sup> على مسير عشرين يوماً إلى الجنوب في طريق غانة ، ورغم ما حبت الطبيعة السودان من اشياء كثيرة ، فإنه كان يقاسى قلة الملح وهي مادة ضرورية ، كان السودانيون يريدون الحصول عليها من مصدر آخر هو تغازة البعيدة في الشمال الغائرة في الصحراء . ولكنهم لم يحصلوا منه مطلقاً على ما يكفي حاجتهم ، وعلى ذلك كان لبعض الشعوب المتخلفة غير القنوعة حرفة قطع الملح . ومنهم القابعون وراء الذهب في وانجارا ، الذين لم يكونوا يبادلون به غير الملح ومن ثم كان ملح تغازة ضرورياً لتجارة سبلماسة في الذهب .

وربما كانت تجارة الذهب مع غانة قد استقرت تماماً قبل مجيء العرب إلى حد ان حاستهم التجارية الحادة التي عملت كثيراً على تطويرها لا يمكن الشك فيها اكثر مما تستطيعه الرغبة القوية الكامنة في صدورهم ، ففي وقت ما بين سنتي ٧٣٤ و ٧٥٠ م (١١٦ - ١٣٣ هـ) في مدى بضعة عقود من احتلالهم لراکش ، ارسلوا حملة عبر الصحراء لمهاجمة غانة — وكانت محاولة اكثر خطورة من الحملة التي قادها سبتيموس فلاكوس ويوليوس مارتينوس عن طريق فزان الذي هواكثر سهولة من الطريق الآخر ، وكان كشف الذهب الذي يسيل إلى مراکش والاستيلاء على مصدره الهدف الذي لا شك فيه لمثل هذه المحاولة الطامعة .

وارسلت في نفس الطريق ولنفس الهدف حملة اخرى في عصور متأخرة وصلت إلى السودان وحصلت على كمية من الذهب ولكنها فشلت في هدفها . وبالرغم من هاتين الحملتين اللتين ارسل العرب إحداها والأخرى التي أرسلها حلفاؤهم المغاربة . وبالرغم من غيرها من الحملات التي ارسلت من اوربا بحراً وكان بعضها تفوق حملة هانو ، ظل مصدر ذهب السودان سرّاً غير

---

(١) يكتبها ابن بطوطة تغازي .

معروف حتى العصور الحديثة و كل الحملات العربية لم تكن ذات أثر هجوى على فانة، وبعض رجال هذه الحملات لم يعودوا لأن البكرى يتكلم عن خلفائهم الحنيحيين على انهم مازالوا هناك ، وفي القرن الحادى عشر اثبت الأتريون — بما يبعد كل شك — ان الخرائب الكثيرة التى تقع جنوبى غرب تمبكتو بمسافة ٣٠٠ ميلا تعين موقع العاصمة القديمة لفانا، اى مدينة كومبي Kumbi ، التى ذكرت مرة واحدة فقط خلال العصر التاريخى المدون فى ( تاريخ الفتاش )<sup>(١)</sup> وهو عمل مبكر عن ( تاريخ السودان ) وله نفس اهميته . وبناء على ما يرويه السعدى عمرت مملكة فانة مدة طويلة إذ وليها اثنان وعشرون ملكا قبل الهجرة وكثيرون غيرهم بعدها . وكانت الأسرة الحاكمة بيضاء البشرة ولكن الاهالى كانوا زنجياً من المندنجو . وقبل الغزو العربى خلفت الأسرة البيضاء اسرة اخرى زنجية من السونكى وهم فرع من المندنجو ، وتحت حكمهم وصلت المملكة إلى ذروة مجدها فى القرن التاسع بعد اقل من مائة سنة من تقلص العرب ، وكانت حدود فانة التقريبية هى نهر النيجر من الشرق والسنغال وفرعه بولى Baule من الجنوب ، اما فى الشمال والغرب فكانت الصحراء .

وكان بدو الصحراء جيراناً غير صالحين فى جنوب الصحراء ، كما فى الشمال . وفى هذا الوقت — حين حازت فانة اهمية تجارية ومكانة لم تحزها دولة زنجية من قبل — كانت سحب سوداء تتجمع فى الصحراء من ناحية الشمال الغربى . إذ كان يهددها تحالف من قبائل الطوارق يقودهم تلوتانى Tilutane زعيم لتوتنة ، إذ بدأ هذا الرجل — على رأس أغلب طوارق الصحراء الغربية تسانده مائة الف من جماله صنهاجة — غارة تجاه الجنوب كما كان يستحث تابعى ملك فانة . وانساح الآخرون تدفعهم قوة جيرانهم المحاربين ولم يستطع مقاومتهم . كما كان تلوتانى ايضاً شديد الرغبة فى تجنب

---

(١) اسم هذا الكتاب ( تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس ) وهو لمحمود كمت بن الحاج المثلوك كمت الكرمى التنبكى الوعكرى وهو بالخط العربى .



محاولة القوة ولما كان قانعا فقط بسلب أطراف غانة فقد نشب صراع مباشر بين هؤلاء الجيران الأقوياء بدورهم .

وكانت عاصمة لتونة هي اودغاست Audoghist ( تجداوست Tegdaoust الحالية ) التي تقع على مسيرة خمسة عشر يوماً غربى كومي في تاجانت Tagant الشرقية وعلى مسيرة شهر من ارجوين التي تقع على الشاطئ . وكانت مدينة كبيرة ذات أبنية بدية يحوطها اشجار النخيل التي يحيط بها الصحراء من الخارج وكان سكانها من البربر الذين امتلكوا عدداً وافراً من الرقيق الزنجى كما اشتغلت بالتجارة جالية كبيرة من العرب .

وكانت المياه وفيرة في أودغاست مما سمح بزراعة محاصيل مختلفة منها البلح والقمح ( وكانت مخصصة للأغنياء ) والذرة والتين والكروم والحناء . كما كانت الماشية والأغنام وفيرة ورخيصة . وكانت مخزناً هاماً للذهب الذي كانت تستورده من السودان ليعاد تصديره إلى المغرب وخاصة سجلماسة . اما الواردات فقد شملت القمح والفواكه المجففة والنحاس والملابس وكلها من الشمال ثم العنبر والملح من الساحل . والذهب والعسل من السودان . وفي وصف المرور المستمر للقوافل بين اودغاست والمغرب يروى ابن حوقل كمثل للنطاق الكبير الذي كانت تجرى فيه التجارة ان احد سكان سجلماسة كان مديناً لتاجر من اودغاست بمبلغ اربعين الف دينار ذهباً<sup>(١)</sup> .

وقد جمع الأهالي ثروة هائلة مكنتهم من ان يعيشوا في يسر وترف . كما مكنتهم ايضاً من ان يزرعوا الفنون والحضارة واشتهرت اودغاست بمهارة

---

(١) ولقد رأيت باودغست سكانه ذكر حق بعضهم على رجل من بحار أودغست وهو من أهل سجلماسة بائنين وأربعين ألف دينار وما رأيت ولا سمعت بالشرق لهذه الحكاية شبيهاً ولا نظيراً .

طباخيها . وبجمال نسائها ذوات البشرة البيضاء اللآلى ملكن إيناساً علق عليه البكرى بحماس .

ورغم أن أودغاست عملت على أن تحتفظ بعلاقات الصداقة مع غانة، فقد كان هناك صراع دائم بين لمتونه والسوننكى ، فكثيراً ما نهب الآخرون القوافل القادمة من الشمال كلما اقتربت من أودغاست . وأجابت لمتونة بمحاولة التدخل فى شئون غانة الداخلية، والإشتراك فى الإقطاعات الخاصة بين الزعماء التابعين - ولم يلبث السوننكى أن أصبحوا أصحاب السيادة ، ولكن بالرغم من أنهم استردوا المقاطعات الخارجية التى كانت قد ضاعت منهم فهم لم يحاولوا احتلال أودغاست .

وفى أوائل القرن الحادى عشر اجتمعت قبائل صنهاجة - كما حدث أيام تلوتانى - لمقاومة تدخل السوننكى وربما لكسر قوة غانة، ولم يحدث شىء من هذا لان سلسلة غير متوقعة من الحوادث صرفت رغبات صنهاجة إلى جملة مسالك .

ورغم ما ينقص الطوارق ما سماه الين سمبل Ellen Semple ( موهبة الصحراء للدين ) فإنهم يختلفون تماماً عن البدو الرعاة فى سوريا والجزيرة العربية الذين أعطوا العالم ثلاث ديانات سماوية موحدة . إذ كان الطوارق مسلمين ، ولكن إسلامهم لم يكن أكثر من ستار، كما هو الحال مع أحفادهم، وبالرغم من ذلك حرص زعماء صنهاجة على أن يقوموا بالحج كعمل من الأعمال المفروضة عليهم ، لا كما يظن الإنسان بل كمظهر سياسى . فحين مر زعيمهم يحيى بن إبراهيم بالقيروان خلال عودته من الحج ، وقع تحت تأثير عالم دينى هو ابو عمران . الذى دهش لجهله بالدين وتأكيده أن شعبه الصحراوي أقل علماً من غيرهم من الأمراء . فلما رأى نفسه كيف أدهش العالم العربى فى عمق ، دفعه الشعور بالخزى ليطلب مساعدته فى العثور على فقيه يعلمه وشعبه الدين الصحيح . حتى إذا عاد إلى وطنه صحب معه



عبد الله بن يس أحد حوارى وجاج التلمساني Wagag فكانت نتيجة هذا الحادث إزعاج سلام دولتين .

وبدأ ابن يس تعليمه بين رجال قبيلة يحيى وهم جداله الذين رفضوا عنف المذهب القادم لهم من الشمال فى إنكار مبالغ للذات وقسوة التعليمات التى أراد أن يفرضها عليهم إلى حد أنهم حرقوا منزله وطردوه من ديارهم ، نخرج — يصحبه مخلصان من لتونة — يقصد ملجأ فى مكان تحوطه المياه أو جزيرة فى السنغال أو معزلا فى الشاطئ ، حيث اعتزل العالم منهمكا فى القيام بفروضه . وأثار هذا السلوك الإهتمام وبدأ الناس يتحدثون عن هذه الطقوس الغامضة التى يباشرها هذا الرجل الطاهر ، فوجد كثيرون فى هذه التعاليم الجديدة نجاة لهم وأصبحوا أتباعا مخلصين له . وازداد عددهم إلى أكثر من ألف ، فدعاهم ابن يس وأطلق عليهم اسم المرابطين وقد أصبح بعد ذلك اسمهم . وأمرهم بالخروج إلى العالم داعين لمذهبهم وفى سنة ١٠٤٢ (٤٣٤هـ) بدأ المرابطون بقيادة ابن يس جهادهم ضد جدالة ولتونة الذين سبق أن رفضوا مذهبهم وكانت استماتهم فى الجهاد حتى الموت هى التى أدت إلى انتصارهم ، ولكنهم لم يتذوقوا حلاوة هذا النصر إذ أنكر عليهم رئيسهم لذة الاستيلاء على الغنيمة ، وبذلك برد الحماس الذى دفعهم فى الماضى وحين تشدد فى تنفيذ تعليماته انقلبوا عليه حتى اضطروه إلى الفرار .

وماد ابن يس إلى معلمه القديم وجاج فى سجناسه ، حيث وجد العطف بتأجج فى صدور تابعين مخلصين تواقين إلى الانتقام لما وقع له فى الصحراء ، وهدد وجاج بتكفير كل من أبى طاعة ابن يس ، فجاء أتباعه إلى الصحراء وأمرهم أن ينتقموا من كل من يعارضهم ، ونفذ ابن يس تعليمات معلمه إلى حد أنه — قبل أن تمضى مدة تحت تأثير عظم النصرة التى وجدها فى الشمال — ( م ٧ — المالك الإسلامية )

نبح في ضم كل قبائل الصحراء الغربية إلى مذهبه الجديد فاتحدوا تحت لوائه .

وعمد ابن يس إلى تأمين المركز القوي الذي حازه في الصحراء الغربية ، وبسبب ما منحه من قدرة فائقة على التنظيم كقائد ملهم فكون جيشاً بلغ عدده ثلاثين ألفاً يلتهبون حماساً عن طريق النار التي أشعلها زعيمهم فيهم ، وكان بعضهم فرساناً والآخرين جمالة ، ولكن أغلبهم كانوا من المشاة مزودين بالرماح التي أجادوا استعمالها ، يدفعهم الحماس الديني إلى حد الاستشهاد — ورغم أنهم لم يعرفوا الطاعة لأحد فقد أصبحوا مطيعين لقائدهم كما يطيع الجيش الحديث قائده .

كما أنهم لم يتابعوا عدواً مغلوباً ، ولم تشهد إفريقيا من قبل أو من بعد قوة ذات عزم كهذه ، ولما أصبح ابن يس سيد الصحراء الغربية استعد ليفيد من جيشه في نشر الإيمان الصحيح بين القبائل الوثنية في الشمال . وبدأ هذا الهدف وكأنما موحى به من الله . لأنه لم يكذب يعلنه حتى تلقى ابن يس دعوة من استاذة القديم وجاج ليسرع إلى الشمال لتخليص الشعب في درعة في جنوب مراکش من اضطهاد أمير سجلماسة ، وسار ابن يس لتوه وهزم جيش سجلماسة وذبح أميرها واستولى على المدينة ، وترك بها حامية لحماية المواطنين من أي ظلم يقع بهم ، وعاد إلى الصحراء ليقابل تهديداً جديداً لقضيته . وبالرغم من أن ابن يس استطاع أن يسيطر على ولاء معظم قبائل الصحراء الغربية ، فإن شعب أودغاست الذي وقع تحت حكم سوننكي فإنه المكروهين قد أصبح مهدداً . فقد انقسم السوق الكبير بفعل الكراهية المشتركة بين البربر والعرب فكانت فرصة مكنت ابن يس من أن يستولى عليها في سنة ١٠٥٤ ( ٤٤٦ هـ ) وكي يرتدع كل من يفكر في الخروج عن سلطته قتل جميع السكان وسبي نساءهم ووزع كل ما غنمه على جيشه .



ووجد شعب سجلماسة أن أسياده الجدد لم يختلفوا مطلقاً عن سيدهم القديم كما كانوا يؤملون، فصمموا على أن يستعيدوا حريتهم فقاموا — دون أن يفكروا في مصير أودغاست أو ربما علموا به — وفتكوا بالحامية المرابطة. ولكن أهل أودغاست حاولوا أن يكيلوا اللوم لزنانة وأرسلوا إلى ابن يس ليقدم إلى الشمال ليخرجهم من بلادهم، فكان رده على ذلك احتلال سجلماسة وكان ذلك سهلاً، ولكن لما كان هو نفسه من أهل هذا المكان، فقد عرف جيداً أن استقراره هناك سوف يكون محفوفاً بالخطر ما دام الطوارق خلفه — ولن يظلوا طويلاً مسالمين. وكانت سجلماسة مركزاً لعالم آخر. عالم عربي في المغرب الأقصى يمت هو نفسه إليه وبعد احتلال المرابطين تهديداً له وخطراً عليه في المستقبل القريب أو البعيد فسوف تأتي قوات قوية لطرده إلى الصحراء الغربية وسيادته غير المؤكدة. فقرر قراراً خليقاً بقائد عظيم وهو أن يكتسح منطقة أطلس ويغزو المغرب الأقصى. وقبل أن يكون هناك وقت يسمح للشمال في أن يشتبه في أنه اتخذ مثل هذا القرار الجريء، انساح المرابطون على ممرى جلاوى Glawi وكندا في Kundafi اللذين يقودانه إلى سهول مراکش، ولكن لم تمض مدة، حتى قتل ابن يس في سنة ١٠٥٧ (٥٤٤٩هـ) وبموته انتهت شخصية من أقوى الشخصيات في تاريخ إفريقيا. فإن الحركة الكبيرة التي أشعلها وقادها قد وحدث — خلال حياته — كل الصحراء الغربية في مملكة واحدة، وكذلك المناطق الشمالية الخصبية في سوس Sus وَاغْمَات Aghmat وسجلماسة وتوابعها. ووضعت الأسس لإمبراطورية كبيرة تمتد خلف شواطئ إفريقيا ولم يكن يتاح كل هذا النجاح إلا لفرد واحد ذي صفات بطولية.

وانتخب المرابطون قائداً روحياً جديداً ليخلف ابن يس، ولكنه مات بعد

قليل وتسربت القيادة إلى يد أميرهم أبو بكر . فأقام مركز قيادته في أغمات قريبا من المكان الذي سوف تقوم فيه مدينة مراکش بعد قليل ، وتابع الحملة الشمالية التي كان ابن يس مشغولا بها وقت وفاته . ولكن هذه العمليات تلقت ضربة لا من الأمام بل من الخلف من الصحراء فإن ضعف المرابطين الرئيسى كان عدم قدرتهم على التحكم في أتباعهم ، إذ لم تكن لهم دولة ولكن إمبراطورية من اتحاد قبائل بدوية مفككة ، وحدث بينها عقيدة مشتركة وكذلك خوف مشترك . خوف عن عواقب الانفصال . فبالرغم من أنهم قبلوا الاسلام إلا أنه لم يتعمق في نفوسهم . والخوف من ابن يس نقص بالنسبة لبعده عنهم . وحجم الموروث للاستقلال لم يضعف ، والخلافات القبلية القديمة كذلك لم تضعف . بل كان ارتباط القبائل ببعضها هو الأمر الذي يثير الدهشة .

وكان الشعب الذي سبب معظم هذا القلق هو شعب جدالة Jedalla الذي يعيش في الركن الجنوبي الغربي الأقصى في الصحراء . وكان ابن يس — حين ذهب نحو الشمال ليعاود الاستيلاء على سجلماسة — قد ترك وراءه قوة لتراقبهم ، ولكنهم لم يكونوا قد خضعوا له كما أنهم لم يكونوا قد حاولوا الثورة ، ولم تلبث أن جاءت الأخبار عقب موت ابن يس — بأن الاضطرابات قد حدثت بين لتونة والمسوفة . وكان كلاهما من أتباع ابن يس المخلصين . ولكن الخلاف قد يؤدي إلى هزيمة أحدهما للآخر . فإذا ما ثارت جدالة ثورة مفتوحة أصبح هناك خطر داهم من حدوث تحطيم كامل لسيادة المرابطين في الصحراء . فصمم أبو بكر على أن يذهب بنفسه جنوباً ليعيد النظام وقبل أن يخرج سلم قيادة الجيش الشمالى إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين .

وأما تدخل أبو بكر السريع للسلام . ولكنه رأى أنه مالم يجد



المخرج الذى تنصرف إليه الروح الشائرة لبدو الصحراء، فإنهم سرعان ما أمسك أحدهما بخناق الآخر ولذا وضع نفسه على رأسهم وقادهم ضد الزنوج السوننكى الكفرة الذين كانوا يخضعون لملك غانة .

وفى نفس الوقت كان المرابطون فى الشمال يزدادون قوة ، فقد قاد يوسف جيوشه الظافرة إلى قلب المغرب الأقصى وانصرف إلى حياة من الغزو بكل ما يملك من إمكانيات غير محدودة ، ولما عاد أبو بكر على غير ما كان منتظراً من الجنوب، وجد ان نائبه لا يرغب فى إعادة قيادة الجيش اليه فترك كل المغرب وانسحب الى الصحراء .

وأصبح يوسف مطلق السلطة فركن إلى حياة الغزو التى قدر لها أن تعود عليه بالقوة والشهرة متجاوزا كل أحلامه الطامحة . وما كاد يتقدم شمالا حتى خضعت له المناطق واحدة إثر الأخرى وأينما ذهب أعلن نفسه بطل الشعوب ومخلصها من حكم القساة المتعسفين ، واعتمد الفلاحون عليه فى شغل وانضموا إلى محاولة طرح المستبدن المحليين، معترفين بسلطة جيشه، وفى سنة ١٠٦٢ (٥٤٥هـ) أسس مدينة مراكش عند بداية الممرات التى دخل منها إلى البلاد، وبعد سنة دخل فاس دون مقاومة تذكر، ولم يلبث أن وقف على مرتفعات طنجة التى كانت تحرسها — كجارتها سبتة — القوات الأندلسية . وكأنما لم يشعر بنفسه قوياً إلى أحد أن يحاول تجربة قوته مع جيرانه الأقوياء عبر المضائق ، فاستدار إلى الشرق حيث بدت بعض الإمارات الصغيرة فريسة سهلة ، فاستولى على تلمسان عاصمة زناته واتخذ منها قاعدته لعمليات أبعد ، حتى ساد المنطقة كلها ، وبالرغم من أن يوسف تردد فى تهديد قوة الأندلس فانه فى الواقع لم يكن لديه ما يخيفه من هذا الركن ، فإن انتصار المرابطين كان فى تناقض ملحوظ مع استكانة اخوانهم فى الدين فى الناحية

الأخرى من المضيق ، فهناك كان المسيحيون تحت زمامة الفونسو السادس ملك ليون وكاستيل وغاليسيا ونافار يهددون الوجود الإسلامى . وكان الحسد يسود الأمراء المسلمين بدلا من أن يوحدوا قوتهم ضد العدو المشترك، بل كانوا يتملقون مساعدة الفونسو فى خلافاتهم . حتى لقد وقعوا واحداً أتر واحد تحت أقدامه يدفعون له الجزية التى امتصوها من شعوبهم الجوعانة من أجل حمايته لهم، وأكثر من هذا كله تحملهم الجزء الأكبر من ظلم الفونسو ، الذى أطلق على نفسه اسم ( سيد الديانتين ) وكأن تقدم جيوشه العتيد لم يهدده شئ من جهود الأمراء المسلمين الضعيفة ، إذ دب اليأس فى قلوبهم من محاولة كسر اعتداء المسيحيين المتزايد بل تحللوا من جراء يأسهم فاما أن يخضعوا لألفونسو أو يتركوا مواطنهم ويعاودوا عيشتهم البائسة فى متاهات إفريقيا . وفى متاهات يأسهم بدأوا ينطلقون نحو مخلص يأتى لهم من وراء المضائق حيث أصبح يوسف وصاحبه المنتصر أسياداً للمغرب .

وكان المعتضد ملك اشبيلية وأقوى ملوك الأندلس، يرقب فى لهفة متزايدة تقدم المرابطين المنتصرين ، ومنذ اللحظة التى سمع فيها أن قبائل البربر تنصب من ممرات أطلس إلى سهول مراكش ، تطلع بأمل إلى هؤلاء الذين سوف يقدر لهم أن يغزوا الأندلس . وسأله أحد وزرائه ( لماذا تسبب لك هذه الأنباء القلق يا سيدى ؟ حقيقة أن سهول مراكش مكان طيب للسكنى إذا قورنت باشبيلية المجيدة . فإذا ما عسكر هؤلاء المتبربرون هناك فما زال بيننا وبينهم الصحراء والجيوش العظيمة وأمواج البحر ) .

وقليل من شارك المعتضد خوفه، وحين اقترح أحدهم فى ساعة سوداء أن يبعثوا فى طلب مساعدة المرابطين ضد المسيحيين الذين يظلمونهم ، رفض الاقتراح كشئ ميثوس منه . فإن مثل هؤلاء البرابرة الخطرين المجهولى الأصل، قد يرهنون على أنهم ضيوف ثقلاء اذا سمح لهم بالولوج الى الأندلس



الجميلة . فماذا يحدث لو رفضوا العودة ؟ أو لو فضل يوسف أن يكون السيد لا الخليف ؟ أليس من الحكمة الخضوع لألفونسو . فإن مقدار ظلمه يمكن تلافيه في سهولة عن ظلم يوسف بن تاشفين ؟ ولكن الاقتراح أيده رجال الدين . الذين طالما سمعوا عن بساطة المرابطين ، وأيدهم الشعب الذي لم يكن يتصور أى ظلم أفدح مما كانوا يتحملونه على يد أميرهم . وبدد المعتمد — الذي خلف أباه المعتضد ملكاً لاشييلية — شكوكهم . حين قال أنه لا يرغب في أن يصفه نسله بأنه الرجل الذي ترك الأندلس فريسة لغير المؤمنين . (فسوف يلعن اسمي على كل المنابر. أما من ناحيتي فأني أوتر أن أكون راعي إبل في أفريقيا على أن أكون ملكاً في قشتالة) .

وبدأت المفاوضات مع يوسف ، ودعى لأن يقدم لمساعدة مسلمي أسبانيا، مع تقديم بعض الضمانات ، فعاد الرسل يحملون إجابته ، وكانت غير واضحة بل تدعو إلى الشك ، وبينما كان الأمراء يناقشون الخطوة الثانية اقلبت حيرتهم إلى خوف مفاجئ . حين سمعوا أن يوسف قد عبر المضيق واستولى على الجزيرة وأخذ في تقوية حصونها وتموينها ، ليتخذها قاعدة لعملياته ، وكان نزول هذه القبائل البربرية من وراء الصحراء ليؤسسوا رأس كوبرى في أوروبا خطراً ، ولكن بالرغم من أن يوسف قد أوضح في سرعة، أن حياة الفتح التي عاشها لم تنته بعد، اتخذت الحوادث طريقاً أفضل مما خافه كثيرون ، إذ تقدم والناس يستقبلونه بالتهليل كخلص لهم، والأمراء يقدمون له الهدايا، وانضموا مع قوات المعتمد وكروا على المسيحيين الذين وقفوا يقاومونه بأعداد هائلة ولكن استراتيجيته المتفوقة أنالته النصر، فهزمهم في أكتوبر سنة ١٠٨٦ ( جمادى أول ٤٩٦ هـ ) في زلاقه بالقرب من باداجوز Badajoz وجرح ألفونسو من حارس زنجي وفر بحياته .

وكذب يوسف مخاوف الامراء المسلمين ، حين ماد فجأة إلى إفريقيا

ومعه جيشه إلا ثلاثة آلاف تركهم تحت تصرف المعتد، فأكسبه حسن تصرفه هذا قلوب الناس الذين أكبروه وقت وداعه كمنقذ للإسلام والمسلمين .

وبسفر يوسف استرد القشتاليون أنفاسهم وبدأوا يحتاجون من جديد أراضى المسلمين الذين استنجد أمراءهم مرة أخرى بيوسف ، وعاد ولكن ليحمل تصميمًا جديدًا حازمًا ، هو أن يجعل نفسه سيد مسلمي إسبانيا . ولم يكن هذا عملاً صعباً . إذ رأى الشعب أن أملهم في التخلص من إرهاب أمراءهم لم يتبلور في واحد عرفوه جيداً ، لا سيما بعد أن ألغى في إفريقيا كل الضرائب التي لم ترد في القرآن ، كما رحب به الفقهاء الذين شبهوا حياة المرابطين ببساطة الصحابة الأولين ، في الوقت الذي رأى الأمراء ومن حولهم من الطبقة المختارة في يوسف بربرياً يسعى لاغتصاب قوتهم ، فعاملوه على أساس من عدم الثقة، في وقت كانوا فيه أضعف من أن يقاوموه ، وسقطت غرناطة ثم أشبيلية وتبعتهما بقية أسبانيا المسلمة ، ولم تأت سنة ١١٠٢ ( ٤٩٦ هـ ) حتى كان حكم المرابطين يمتد من السنغال حتى الإبرو .

ولم يتمتع يوسف بن تاشفين بثمره هذا النصر إذ مات سنة في ١١٠٦ ( ٥٠٠ هـ ) ودفن في قبر بسيط في مراكش التي أصبحت رمزا لمنشئها ، والعاصمة الجنوبية للمغرب الأقصى تحت حكم المرابطين . وبالرغم من فتوحاته الواسعة والقوة غير المحدودة التي وضعوها في يده أيام حياته، ظل يوسف الرمز الحى لمبادئ ابن يس كما مثلها هناك في جزيرته المنعزلة في نهر السنغال ، وقليل من الفاتحين يمكن أن ينصف التاريخ الثقة التي وضعتها فيهم الشعوب التي غلبوها فقد أعطاهم في كل من إفريقيا والأندلس بركات الاستقرار بل الانتعاش بأسهل الطرق . ولكن هذه النعم انتهت بوفاته .

وخلفه ابنه علي بن يوسف وكان صغير السن لم يتجاوز الثالثة والعشرين .



ربى بين جوانب البلاط الأندلسى ولم يعرف خشونة الصحراء . وإن تميز بعطفه ، ولكن الحماس الدينى لم ينم فيه بسبب عدم خبرته ، فكأنما لم تؤهله تربيته لمسؤولياته إلى جانب سوء اختياره لمستشاريه . الذين مثلوا — حين أرادوا أن يؤقلموا أنفسهم مع البيئة الأندلسية — أسوأ مظاهر الثقافة الأسبانية الإسلامية .

كما لم يكن زعماء البربر مستعدين لأن يمنحوه ولاءهم غير المحدود ، الذى بذلوه من قبل لوالده الذى كان قد تربى مثلهم فى مدرسة الحياة القاسية بل رأوه شابا غرا ، ولذا كانت نظرهم له استخفاقا إلى حد أنه لم يجد المعونة الصادقة الكريمة إلا من حرسه المسيحى ( الكافر ) . فكان هذا الاعتماد غير الموفق هو الذى أدى إلى قلة إحترام المسلمين له . ولكن الانحلال لم يسر إلى البلاط ، والمرابطون لم يكونوا شذوذا فى قاعدة سرعة انقضاء حكم الملوك الرعاة . فطيب العيش والثقافة أعداء الفضائل البسيطة لبدو الصحراء الذين أنجبهم الحياة الخشنة ، والاعتماد اليومي على السيف والرمح اللازمين لحياتهم ، ولذا سرعان ما خبا المرابطون كما خبا الهكسوس من قبل كما سيخبو الأتراك العثمانيون بعدئذ .

وحين ضعفت سلطة الأمير الجديد أصبح شعبه أكثر ضعفا ، وبسبب الخلاف الذى نشب بينهم أسرع حكم المرابطين فى الانهيار ، وسوء حظ الفلاحين المظلومين أضيفت إلى ذلك غزوات المسيحيين الذين أعطاهم ضعف الغزاة فرصة جديدة .

وسرعان ما فقد الأندلسيون المزايا التى تمتعوا بها من قبل من جراء تغير الحاكم . وقبل انقضاء وقت طويل بدأوا يشعرون بالأسف على أيام أمراءهم ، وتمنوا العودة إلى أيامهم . فقاموا بثورون على ظالمهم وقتلوه ولكن هذا التغير فى الشعور نحو المرابطين لم يحدث فى الأندلس بينما قامت فى المغرب شيعة

جديدة هم الموحدون وتحت القيادة العظيمة لعبد المنعم<sup>(١)</sup> وقد أسس الموحدون مملكة امتدت من شاطئ الأطلنطى حتى سرتس . وتحت إدارتهم المثقفة تقدمت البلاد . ولكن هذه الدولة الجديدة لم تعيش أيضا طويلا . فقد انهارت في أقل من مائة عام ، ومن خلال الفوضى التي تلت سقوطها ، قامت أسر الحفصيين في تونس وعبد الوديد في تلمسان وبنى مرين في فاس .



---

(١) كان عبد المنعم هو المؤسس للكتيبة و مرا كش ومهندسها هو مصمم جيرالدا و أشبيلية ولكن الكتيبة بليت أولا .



( ٧ )

## ذهب غانا

فى منتصف القرن الحادى عشر عندما كان البكرى لا يزال يكتب كتابه الخالد ( وصف إفريقيا ) كانت الصحراء الغربية تختمر بحادث سياسى يفوق تقدم المرابطين الاقتصادى . وفى الشمال كان المغرب الأقصى يكاد يتحلل تماما من جراء ما فعله يوسف . ولكن فى الجنوب ظلت غانا الوثنية التى كانت موضع الكراهية المرة من كل فرد فى العشيرة -- مستقلة وتمتع بكل حريتها التجارية . تجارتها النشطة مع المغرب لا يزعجها الإضطراب السياسى الذى خلقه المرابطون . وفصل التجارة عن السياسة أمر ليس شاذاً ولكنه كان شيئاً مميزاً لشمال إفريقيا . فليو الإفريقى يروى كيف كانت بعض قبائل أطلس التى كانت فى حالة حرب دائمة مع بعضها، تعقد الهدنات المنتظمة من أجل ضمان استمرار أسواقها الداخلية . كما لم تتوقف التجارة من شاطئ البحر المتوسط خلال القرون الطويلة من الصراع مع أوروبا المسيحية والولايات البربرية . إذ لم تتأثر بها إلا قليلاً . إلى حد أن كلا من المسيحيين والمسلمين ظلوا يترددون على أسواق بعضها دون خوف، وقد ترك لنا البكرى قصة عن كومبي عاصمة غانا تقوم على المعلومات التى حصل عليها من التجار البربر الذين عرفوا المدينة الزنجية معرفة جيدة . وهو يؤكد دائماً كل القصص التى تدور حول عظمة البلاط والنشاط التجارى، وهما مظهر الحياة اللذان كانا يؤثران أكبر الأثر على التجار الأجانب فكانت العاصمة تنقسم إلى مدينتين منفصلتين يبعدان عن بعضهما قرابة ستة أميال وكانت إحدى المدينتين مخصصة للسكان المسلمين وكان بها إثنا عشر مسجداً تجمع فيها الفقهاء البارزون، بينما كانت الأخرى وقد أطلق عليها اسم الغابة للوثنيين وكان بها مجلس البلاط .

وكانت معظم مساكن غانا من أكواخ الطين المسقفة بالقش ولكن كان بها أيضاً بعض منازل من الحجر .

وأخذت الغابة إسمها من الآجام التي كانت تحيط بها . وهذه الآجام — التي ربما لاتكون أكثر من أشواك كثيفة — كانت تحرس المدينة من خوف دخول الدخلاء لأنها كانت مركز الحياة الروحية للشعب، وفيها مسكن الكهنة الذين كانوا يخدمون الآلهة الوطنية ، ولا شك أنهم مارسوا الطقوس التي تؤدي دائماً لعبادة الأرواح في غرب إفريقيا . كما كان بها مقابر الملوك والسجون التي لم يكن يعود أحد من سكانها .

وكان الملك مركز البلاط ، حيث كانت تقام الاحتفالات والاستعراضات الفخمة المختلفة لتصوير مشاهد ربما أعطت فكرة غير مبالغ فيها كثيراً عن موارد الدولة وثروتها . وفي خلال المقابلة كان الملك الذي تزينه الجواهر وأغطية الرأس المذهبة يجلس في مجلسه وقد وقفت حوله عشر أفراس مطهمة بالذهب ، وخلف العرش يقف حشد من الأتباع يمسكون بالدرع والسيوف المذهبة ، وإلى اليمين يقف أبناء الأمراء التابعين ، تكسوهم الحلى التي تعلو شعورهم ، وأمام الملك يجلس الوزراء وبين يديه حكام المدينة . وكانت الكلاب تحرس المكان ، وفي رقابها الأطواق ذات الأجراس الذهبية والفضية ، وكانت هذه كلها مراسم الملك الدائمة وقد شغل المسلمون بعض وظائف القصر ، منها خازن المال والمترجم بل كان الوزير عادة مسلماً . وقبل أن تبدأ الاحتفالات تضرب الطبول الملوكية ( الدبا Deba ) فيخترع رعايا الملك الوثنيون سجداً ويهيلون التراب على رؤوسهم . ويظهر المسلمون إحترامهم بالتصفيق .

واحتوت الخزائن الملوكية صاجات الذهب رمز العظمة وكان حجمها كبيراً إلى حد أن أصبحت شهيرة في جزء كبير من العالم المتمددين ، وذكر



الإدريسي أنها كانت تزن ثلاثين رطلاً<sup>(١)</sup> وكان الملك يقيد حصانه بها ، وقد رفعتها الأساطير الشعبية إلى أحجام خرافية وحين ذكر ابن خلدون في القرن الرابع عشر حادثة بيع أمير مسرف لها إلى بعض تجار مصر قال أنها بلغت طناً ، وعندما يموت الملك توضع جثته فيما يشبه القبة الخشبية على عدد من السجاجيد والوسائد وإلى جانبها توضع الملابس وكذلك الطعام والشراب . ويدفن معه جميع الخدم الذين كان عملهم ينحصر في طبخ الطعام الملكي ثم تغطى المقبرة بالحصير ويهيل عليه المجتمعون التراب ليكونوا جبلاً كبيراً يحوطه خندق.

وليس لدينا معلومات كثيرة عن حياة الشعب ولكنهم زرعوا الذرة وغيرها من المحصولات كما مارسوا صيد السمك و كان الملك يطلب منهم دائماً أن يكونوا مستعدين للحرب ضد جيرانهم المعتدين ، أو من أجل القيام بالغارات لصيد الرقيق، ويقول البكري أن الملك كان يستطيع أن يجند للحرب عدداً يبلغ مائتي ألف رجل منهم أربعون ألفاً مسلحون بالأقواس والسهام ( والباقيون بالحراش فقط ) .

ويقول الإدريسي أن العاصمة ( كومي ) كانت أكبر أسواق السودان . اعتاد التجار من جميع أنحاء الغرب أن يتجمعوا فيها ، وكانت مصدر ثروة غانـهـ كما رأينا — تجارة الذهب وكانت وفيرة إلى حد أن لا بد من التحكم فيما كان يعرض في السوق من كمياته مخافة هبوط سعره ، وكانت وسيلة هذا التحكم صنع كل حاجات الملك وممتلكاته منه تاركين بقية الذهب فقط للتجارة .

وكتب ياقوت — وهو متأخراً قليلاً عن البكري — يصف تجارة الذهب في

---

(١) وجدت ساجات تزن نصف هذا الوزن و Bambook حوالى

سنة ١٩٠٠ .

الخمرز<sup>(١)</sup> ليستبدلوا به الملح، فإذا ما مروا بتغازة كومي وجدوا عملائهم في سجلماصة ودرعة — الذين يذهبون إلى السودان حاملين البضائع الرخيصة — في انتظارهم، وكان طامة الشعب يعرفون جيداً آداب التجارة الغربية، وكان التجار عملاؤهم يسافرون نحو الجنوب عشرين يوماً من أجل الوصول إلى السنغال، والمنظر الذي كان يتبع ذلك يشبه تماماً ذلك الذي وصفه هيرودوت في قصته عن تجارة القرطاجنيين في الذهب في نفس المكان من إفريقيا .

إذا ما وصل التجار شاطئ النهر ضربوا الطبل الكبير يدعون به الوطنيين العراة الذين يعيشون في كهوف تحت الأرض . وكانوا يرفضون الخروج من هذه الكهوف — التي كانت ولا شك الاتفاق التي يستخرجون منها الذهب — في حضور التجار الأجانب . ولذا كان هؤلاء يعرضون تجارتهم على شكل أكوام على ضفة النهر ثم يتراجعون بعيداً عن الأنظار، وحينئذ يخرج الوطنيون ويضعون أكواماً من الذهب إلى جانب كل كوم من البضاعة ثم ينسحبون، وإذا ما رضى التجار بما وضع هؤلاء من ذهب أخذوه وتراجعوا وضربوا طبولهم ليعلنوا انتهاء السوق .

وقد حاول التجار في إحدى المرات اكتشاف مصدر الذهب عن طريق الخيانة، حين قبضوا على أحد الزنوج . ولكن هذا الأخير فضل الموت على أن يقول كلمة واحدة، فكان من نتيجة ذلك أن توقفت التجارة لثلاث سنوات، ثم طادت لأنه لم يكن أمامهم من وسيلة أخرى للحصول على الملح .

وكتب المسعودي في القرن التاسع يخبرنا أنه في أيامه كانت هذه التجارة الصامتة معروفة في سجلماصة، وفي القرن الخامس عشر أخبر العرب، وتجار صنهاجه كاداموستو Cadamosto أن هذه التجارة ما زالت باقية كما هي بل أن بعض

---

(١) كانت صناعة الحرر لأجل تجارة السودان صناعة هامة في سبقة حيث كانت حجر الباقوت .



الرحالة المتأخرين — كما سنرى — وصفوها . وكانت التجارة الصامتة . أو دعوات الطبول وسيلة تناول الذهب في وانجارا لقرون طويلة<sup>(١)</sup> .

والطريقة الغربية التي حصلت بها غانا على ذهبها، أضافت إلى سر موقع وانجارا الغامض البحث عن كيفية فرض الضرائب على مصادر المغاربة إلى أقصى ما يستطيعون وبعد ذلك ليصبحوا أحد الأهداف الرئيسية لفئة أو أكثر من المستكشفين الأوربيين وطالى المخاطر منهم .

ولم تقتصر تجارة غانا الخارجية على الذهب بل حرص التجار من المغرب الأقصى وورجالا Wargala عاصمة Mzab على أن يقوموا بالرحلة الطويلة الخطرة عبر الصحراء ليشتروا أيضاً الرقيق الزنجي لبيعه في الشمال . وقد اشتهرت كومي بسوق الرقيق فيها . وكانوا يحرصون على أن يجعلوها دائماً مليئة به عن طريق الغارات على القبائل البدائية التي تعيش بين الأحراش عند الحدود الجنوبية، وكانت هي حرفة جميع السوادنيين العادية من المحيط الأطلنطي حتى البحر الأحمر . وقد حصلت غانا عادة على رقيقها من قبائل آكل لحوم البشر الذين كان العرب يعرفونهم باسم المم Demdem<sup>(٢)</sup> أو دمدم .

وإلى الغرب من غانا عبر السنغال تقع مملكة تكرور Tekrur التي لا يعرف عنها إلا القليل وبالرغم من أن اسمها كان أكثر الأسماء السودانية شيوعاً في البلاد الأجنبية، مما يوحي بأنها أكثر أهمية عما تنبئ مصادرها وقد أطلق الجغرافيون العرب المتقدمون اسمها على كل السودان الغربي فقد عرف ملوك مالي — ورثة

(١) ولكن هذه الطريقة الغربية للتجارة كانت بعيدة عن أن تكون حصة بتجارة الذهب في غرب إفريقيا . في القرن الأول الميلادي : كانت تجارة الحرير التي كان الرومان يتبادلونها مع الصينيين على صفى نهر بارثيا Parthia تجري على هذا النحو . كما وجدها فاهين Fa-Hein المكتشف الصيني في القرن الخامس في سيلان ، وبعد قرن قيل أنها كانت موجودة في أثيوبيا . ويمكن أن تشير إلى أمثلة كثيرة لها في أنحاء أخرى من العالم . وحتى الوقت الحديث كانت تمارس بواسطة الأقزام في الكونغو وربما كانت موجودة حتى الآن .

(٢) نيام نيام التي يبدو أنها اختلاف آخر لاسم شائع الآن لأكل لحوم البشر في السودان الغربي . وكان أمراء الفولاني في كانو وراريا يستعدون النيام نيام كغذاء أحكام الإعدام . وكان أحدهم تابعاً في قصر أمير كانو حتى سنة ١٩٢٥ .

عظمة غانا — في مصر، بأنهم ملوك تكروور ويعرف كل سكان غرب السودان بهذا الاسم حتى الآن في شرق السودان .

وفي القرن الحادى عشر كانت تكروور موطن التوكولور Tucolors الذين استقروا أخيراً في فوتا Futa حيث مازالوا يعرفون بالتكاريير . مثل سوننكو غانا ، وكان التوكولور تجاراً نشطين إذ كانوا يرسلون بالذهب والرقيق إلى المغرب ولكن يبدو أنهم كانوا أكثر اهتماماً بتجارة محلية أخرى، فقد استوردوا الملح من أوليل Aulil عند مصب السنغال ليوزعوه على منطقة واسعة في السودان الغربى وكانت صناعتهم الرئيسية ، نسيج نوع من القماش يسميه البكرى تشيجيا الذى لا بد أن يكون هو نفس الغزلى Alchezeli الذى ذكر كاداموستو أنه كان يصنع محلياً في القرن الخامس عشر والشيج Chigge الذى اشتراه بارت في تمبكتو في القرن التاسع عشر .

ومن بين قبائل التوكولور التى كانت موضع الإغارة عليها من أجل الرقيق قبائل فيراوى Ferawi الذين كانوا شديدي الحاجة إلى الملح — كما يذكّر البكرى — فكانوا يستبدلونه بما يوازي وزنه من ذهب وكانت بلادهم تستخرجه .

وليس هناك حب مفقود بين التوكولور وسوننكى غانا أكثر مما كان بين الآخرين والمرابطين، فبالرغم من أن كثيرين من السوننكى كانوا مسلمين فإن ديانتهم لم تمنعهم من شغل الوظائف الكبيرة، فقد ظلت غانا وثنية فكونت خطراً على المرابطين أصحاب السيادة في السودان الغربى . وكان كل من المرابطين يبطن أمل القضاء على هذه الدولة ، وهو مشروع لا بد أن أبا بكر فكر فيه حين سلم الجيش الشمالى إلى يوسف في سنة ١٠٦٢ ( ١٠٥٤ هـ ) وعاد إلى الصحراء ولكن مضت أربع عشرة سنة أخرى حتى استولى على كومبي وقتل أهلها وفرض الإسلام على البلاد — التى أصبحت بما فيها من حقول الذهب أسلاباً للمرابطين .



ولم تكن عواقب سقوط غانا بعيدة الأثر كما كان ينتظر، لأن انهيار قوة المرابطين في الجنوب كان أسرع منها في الشمال. وبتحطيم قوة العدو المشترك انبعثت من جديد الحزازات القبلية التي كان المرابطون قد أضعفوها في أيامهم الأولى، فبعض القبائل التي منها المسوفة رفضت أن تخدم تحت رئاسة أى زعيم من لتونه التي كانت — كما كانوا هم — العمود الفقري للجماعة، وكذلك جداله التي كانت مبتعدة منذ البداية فظلت خارج النطاق. وموت أبى بكر في سنة ١٠٨٧ (٥٤٨٠هـ) قضى على تناسق المرابطين في الصحراء. وظهر به التنافر. وبذلك استعاد سوننكى غانا في مدى أقل من عقد استقلالهم، ولكنهم كالمرابطين كانت النزعات القبلية تفتتهم وكل قبيلة من القبائل التي احتوتها، فأعطت الدولة المتحدة قوتها أرادت لنفسها استقلالاً كاملاً، ولم تقبل القيام بأية تضحية في سبيل الصالح العام.

ففي سنة ١٢٠٣ (٥٦٠٠هـ) استولت أقوى قبائلهم وهي السوس على كومي فكان أن تهدم هذا السوق الهام وخرج التجار العرب وبعض أثرياء تجار السوننكى إلى الصحراء، لينبؤوا لأنفسهم من جديد مدينة جديدة تبعد مائة ميل إلى الشمال، على أرض كانت القوافل تسميها ولا تا Walata، وانتعش هذا السوق الجديد وأصبح واحداً من أهم الأسواق في الصحراء الغربية، بينما اختفت كومي من التاريخ.





(٨)

## مفسا موسى

حين احتل السوس كومبى ساد أفقم بعض الاضطراب بذه وقوة فرع آخر من جنسهم وهم ماندنجو مالى Mandingo of Mali وكانت حتى الآن دولة غير ذات أهمية تمتد من باخوى Bakhoy الأعلى شرقا عبر النيجر . وبخلاف السوس كان الماندنجو قد اعتنقوا الإسلام فى الأيام الأولى لحركة المرابطين، وربما كان سبب هذا بعض الحب المفقود بين القبيلتين ، إذ كان السوس حين استولوا على كومبى يبحثون عن مطامعهم التى قد تتدخل فيها مالى، فأرادوا أن يهزوا هؤلاء الأعداء الأقوياء بقتل أحد عشر أخاهم ورثة عرش مالى . وكان هناك ثانى عشر لهم وهو سوندياتا Sundiata، ولكنه نجما من المذبحة لأنه كان طفلا معلول الصحة ولم يكن منتظرا أن يشفى . وكان هذا من حسن حظ مالى . كما كان من سوء حظ سوسو أن شفى سوندياتا وحين أدرك الرجولة انقلبت قدراته غير العادية إلى الناحية الطيبة إلى حد أن أصبح مؤسسا لإمبراطورية كبيرة . فبالرغم من انقضاء سبعة قرون بدون أية وثيقة مكتوبة لا يزال سوندياتا أو مارى جاتا Marijata — كما أصبح يدعى — يعتبر البطل الوطنى للماندنجو .

وعندما اعتلى سوندياتا العرش كان مركزه دقيقا لا بسبب السوسو ولكن بسبب شعبه . الذى لم يحمل له الحب . ولذا أحاط نفسه بجماعة من ذوى الجراة الهائلة، فكنوه أول كل شىء من أن يحفظ شعبه فى حالة من الهدوء ، ثم من أن يمضى فى سلسلة من الحروب ضد جيرانه الضعفاء . وقدر له أن ينتصر فى كل حروبه، ومع كل نجاح حاز جيشه الخاص مزيدا

من القوة كما أصبح مركزه بين قومه لا يرقى إليه الشك، ولكنه حين فعل ذلك أثار أمر أنواع العداوة في السوسولاً أنه كان قد اعتدى على أرضهم أثناء حملاته ، فصمم السوسو على أن يبادئوه قبل أن تصبح مالى أكثر قوة ، ولكن ذلك كان متأخراً ، ففي سنة ١٢٣٥ (٦٣٣هـ) حطم جيشهم في كيرينا Kirina التي ربما كانت شمال كوليكورو Kulikoro مباشرة، واستولى على أرضهم وبذلك امتدت مالى نحو الشمال إلى الصحراء .

وحتى هذا الوقت كانت جريبا Jeriba عاصمة مالى، ولكن سوندياتا نقلها إلى مدينة مجاورة هي نيانى Niani التي أشير إليها في بعض الأوقات باسم مالى وفي البعض الآخر باسم ماندى Mande ، ولم ينزل سوندياتا بنفسه إلى المعارك ثانية ولكن جيوشه استمرت تمد حدودها . وخاصة نحو الغرب حتى وصلت نهر جمبيا Gambia ومستنقعات تكرر ، وأصبحت مالى بذلك أقوى ممالك السودان الغربى وكانت مدينة شهرتها العريضة في أوروبا لا إلى اتساع رقعتها، بل إلى الثروة التي استمدتها من حقول الذهب في وانجارا . وبالرغم من ذلك لم يكن الماندنجو سادة أرضهم، بل نازعهم إياها الوثنيون المشتغلون باستخراج الذهب ، إذ كان رد الأخيرين على جهود الفاتحين من أجل فرض الإسلام عليهم، هو التوقف عن الإنتاج . فلم يسع الماندنجو سوى أن يتركوا هذا الشعب وديانته، مقابل أن يستمر استخراجهم للذهب الذي توقفت تجارتهم عليه .

وبرهنت أسرة سوندياتا على أنها كانت جذيرة بمؤسسها ، ففي أثناء حكم حفيده منسا موسى<sup>(١)</sup> الذي اعتلى العرش سنة ١٣٠٧ (٦٠٧هـ) . بعد أن مات سوندياتا بنصف قرن فانتشرت شهرة مالى إلى أوروبا والشرق الأدنى . وذلك بسبب قيامه بالحج إلى مكة، إذ ارتفع اسمه إلى الذروة في القاهرة والمدن الأخرى

---

(١) دعاه بعض الكتاب في بعض الأوقات كان كان . وسا أو كونجوموسى لا سيما الكتاب الفرنسيون .



التي شهدت مرور قافلته الفخمة، حتى أصبح اسم ملك الماندنجو شهيراً في جزء كبير من العالم المتمدين .

خرج منسا موسى للحج في سنة ١٣٢٤ (٧٢٥هـ) وهي السنة السابعة عشر من حكمه تصحبه جحافل من أتباعه من أهل وانجارا وولا تاوتوات *Tuati*، واختلفت الروايات بعد ذلك في الطرق التي سلكها إلى القاهرة، وربما كان طريق ورجلا *Wargala*، ثم تتبع شاطئ سرتس الذي كان يمد تجار أجزاء كثيرة من أوروبا بتجارة إفريقيا، فكانت فرصة ليشهدوا العظمة التي لازمته قبل أن يصل القاهرة. إذ كان منسا موسى يمتطي جواداً يتقدمه خمسمائة رقيق، كل منهم يحمل كتلة من الذهب وزن خمسمائة مثقال<sup>(١)</sup> وفي القاهرة لم تكن العظمة التي أحاط بها الملك الزنجي نفسه هي التي سببت شهرته بل عطفه، إذ كان لونه الذي وصف به بأنه أصفر أو أحمر غير متوقع، واشترك في إثارة الشعور الذي تركه، فبالرغم من ضخامة رحلته فإن حجه يبدو أنه لم يكن ذا دوافع سياسية، إذ رفض أولاً أن يقدم الهبات المعتادة لسلطان الماليك بسبب عدم الرغبة في تقبيل الأرض بين يديه، وأظهرت الترتيبات التي فعلها السلطان لراحة ضيفه خلال رحلته أنه لم يأل جهداً في تكريمه، إذ لم يكن هناك أثر مطلقاً من الاحتقار التقليدي الذي يكنه الشرقيون للزنج<sup>(٢)</sup>.

ووجد العمرى<sup>(٣)</sup> — الذي كان في القاهرة بعد زيارة منسا موسى باثنتي عشرة سنة — أن الناس لا يزالون يشيدون بمدحه. فصغار الموظفين الذين كثيراً ما يتكالبون على الأغنياء، يذكرون هداياه من الذهب الذي حمله معه، إذ كان ٨٠ — ١٠٠ جملاً يحمل كل منها ثلاثة قناطير (٣٠٠ رطل)، كما استفاد آخرون من التجارة التي أتموها مع أتباعه إذ كان الواحد منهم يدفع بكل بساطة خمسة دنانير لثوب لم يكن يساوي أكثر من دينار واحد. وكانت

(١) يعادل المثقال  $\frac{1}{8}$  أوقية

(٢) لا يكن الشرقيون احتقاراً ما للزنج على ما يروى المؤلف وائس أدل على ذلك من مصاهرتهم لهم في كثير من الأحيان .

(٣) هو ابن فضل الله العمرى صاحب المسالك والممالك .

النساء وملابسهن الرقيقة هي أشد ما أعجبهم ، وحدث ولا حرج عن تبذير السودانيين وكرم ملكهم الهائل فكان أن طرح ذهب كثير في السوق إلى حد أن هبطت قيمته هبوطاً شديداً ولم يستعد الذهب سعره الأول إلى وقت قدوم العمرى .

ولم يقتصر توزيع منسا موسى لذهبه وثروته على القاهرة ، بل كان ينثر الذهب أينما ذهب ، وفي المدن المقدسة استفاضت هداياه التي دلت على الكرم ، فليس من الصعب أن نصدق أنه حين عاد إلى القاهرة خلال عودته إلى وطنه كانت ثروته قد أتت إلى نهايتها، مما سبب له بعض الحرج ولكنه لم يجد صعوبة في أن يجد بعض التسهيلات الموقته للملك الذي ينتج بلده الذهب على مدى آثار دهشة الكثيرين، وكان واحداً من الذين تقدموا لمساعدته تاجر من الأسكندرية، ذهب معه إلى السودان ليسترد ما أقرضه إياه، ومات الرجل في تمبكتو ولكن منسا موسى دفع دينه كاملاً لورثته .

وقبل أن يكمل رحلته إلى بلده سمع منسا موسى عن استيلاء أحد قواده على جاو Gao عاصمة الصنغاي . وكانت صنغاي مملكة تابعة له ولكنها هامة، تمتد على طول النيجر الأوسط ، لألف ميل ابتداء من حدود مالي ، فكان خبر إتساع أملاكه هو الذي جعل منسا موسى يعود مسرعاً ليزور جاو وهناك قدم له ملك صنغاي خضوعه الشخصي ، ولكن ليتأكد من إخلاص تابعه الجديد أخذ معه إلى مالي اثنين من أبناء هذا الأخير كرهينة وهما على كولن Ali kolen وسليمان نار .

وضمت حاشية منسا موسى شاعراً أندلسياً اتصل به في مكة، وظل يتابعه حتى دخل خدمته ويسمى بالساحلي وكان إلى جانب كونه شاعراً - مهندساً، فكان أول عمل أوكله إليه سيد، الجديد ان يستبدل بالبناء القديم للمسجد بناء جديداً أليق بعبادة الله . وبني المسجد الجديد - الذي ظل قائماً



ثلاثمائة سنة والذي مازال أساسه قائماً - من الأجر، الأمر الذي لم يكن معروفاً حتى هذا الوقت في السودان .

وكانت هناك مدينة في صنتغاي التي طالما نافست جاو الأهمية وتقع في طريق أوبة منسا موسى إلى وطنه عند النيجر وهي تمبكتو . وكانت مكان اللقاء لهؤلاء الذين كانوا يسافرون براً أو الذين يسافرون بحراً سواء من بدو الصحراء أو من الذين يقطنون جانبي النيجر . إذ كانوا يتقابلون فيها لمبادلة الملح والبلع وتجارة المغرب بالقمح وحبوب الكولا وتبر الذهب من السودان وفي سنة ١١٠٠ بدأت خيام البدو تملأ مكانها لأكواخ الحشائش ، وهذه بدورها لمساكن مستديمة من اللبن كتلك الموجودة الآن هناك ، وبعد قرنين أصبحت مركزاً للتجارة المارة بين جنى Jenne وولاتا كما أصبحت قرية الصيد كبارا Kabara المجاورة ميناء لها . وكان موقعها بالقرب من طريق ماني يتحكم في جزء كبير من السودان الغربي قد أعطى تمبكتو ميزة كبيرة على الأسواق المجاورة التي أخذت تجارتها في الوهن .

وكان طبعياً أن تأتي الثروة التجارية معها بكل من الثروة والثقافة ، فتحكمت تمبكتو في تجارة وولاتا . ثم في ثقافتها وكان كلاهما في يد رجال جداله . ومثقي الصحراء ، وكانوا مستعدين دائماً ليأقلموا أنفسهم تبعاً للظروف المتغيرة ، وكانوا قد جاءوا أصلاً من أدرار Adrar في موريتانيا ، ولكنهم هاجروا إلى كومي حين أصبحت سوقاً هامة . وحين احتل السوسو كومي في بداية القرن الثالث عشر انضمت جدالة المهاجرة إلى المكان الجديد في وولاتا ، فأنشأوا هناك مركزاً للعلم وحين بدأت وولاتا تفقد تجارتها إلى تمبكتو تبعها جدالة . وظلوا هناك طويلاً معلمين كما كانوا تجاراً ، فكانوا أول من أعطى المدينة سمعتها كركز من مراكز العلم كما زودوها بالأئمة المتعلمين بصفة منتظمة من أجل

مسجدها . وكان أكبر أساتذة جدالة أحمد بابا المؤرخ الذي كثيراً ما أشار إليه السعدى<sup>(١)</sup> .

وفي أيام منسا موسى استقرت التجارة والأدب في تمبكتو، واستفاد كلاهما من تغير الحاكم فبدأ الساحلي للوقت في بناء مسجد جديد وقصر للملك . وأصبحت المدينة بسرعة أهم أسواق الداخل، وجذبت شهرتها كمرکز رئيسي لتبر الذهب التجار من جميع الأنحاء، من درعة وسوس وسجلماسة وفاس ومن المغرب الأقصى ومن توات وغدامس وفزان وعجيلة في الصحراء . وأيضاً من مصر وهي التي كانت تجارتها مع السودان قد تعززت منذ رحلة منسا موسى للحج وقدم مع التجار المتعلمون ورجال الدين من بلاد كثيرة ليجتمعوا حول مشهورى علماء جدالة في جامع سنكور Sankore .

ومات منسا موسى سنة ١٣٣٢ (٧٣٣هـ) وترك وراءه إمبراطورية اشتهرت بين الممالك الإفريقية الخالصة بإتساع رقعتها وثروتها . كمثل قوى لقدرة الزوج على التنظيم السياسى، امتدت من تكررور في الغرب إلى جاو في الشرق وما وراءها . وضمت جزءاً كبيراً من الصحراء وامتدت جنوباً حتى الغابات ومما يثير الدهشة إلى حد كبير ، أن المدينة الصغيرة جنى — رغم أهميتها الثقافية والتجارية وموقعها على مسافة أيام قليلة من نيانى والتي تحميها شبكة من القنوات المائية ظلت تحافظ على استقلالها .

---

(١) والكن تحارة جداله وعلمها لم يقتصر على غرب الصحراء ، فقد أسس أهل جدالة أنفسهم في مراكش ثم في البرتغال وربما يكون ذلك عن طريق التصاهر في إفريقيا مع اليهود البرتغاليين ، وفي القرن الخامس عشر كان طبيب دوارت Duarte ملك البرتغال رجل يسمى جويدالها Guedalha وكان أيضاً الفلكي الملكي ، ويظن أن له ضلعاً في تعليم الفروسية للأمير هنري الملاح وقد أشير إليه في حوايات غانة The Chronicles of Guinea وفي القرن التاسع عشر كان أهم بيت تجارى في مراكش يسمى جويدالا وشركاه .



وشهد حكم منسا موسى إتساعاً كبيراً في تجارة مالى بسبب المرونة التي أقام بها علاقته مع الخارج ، فبخلاف الصداقة التي أقامها مع مصر والجزيرة العربية بفضل رحلة الحج المشهورة التي قام بها كان على صلات طيبة بينى مريين في فاس . وكان في الواقع أول من اخترق الستار الحديدي للحاجز اللوني الذي كثيراً ما أبعد الزنوج عن العالم المتمددين . ليكسب للإفريقيين التخلص قدرأ يسيراً من الاحترام يهود الفضل فيه إليه حتى اليوم .

وهناك كثير من الأدلة على ما اكتسبته مالى وحاكمها العظيم من الشهرة والعزة توجد في ( خريطة العالم ) التي رسمها راسمو الخرائط الأوروبيون حين كانوا للمرة الأولى يحاولون أولى محاولاتهم ليصوروا داخل إفريقيا، فمن أوائل المصادر التي أشارت إلى مالى وملكها ( خريطة العالم ) التي رسمها إنجلينو دولسرت Angelino Dulcert الميورقي وهي مؤرخة في سنة ١٣٣٩ أي بعد سبع سنين فقط من موت منسا موسى فقد وضع في وسط الصحراء الغربية عرشاً عليه تمثال كسائه بالثياب الملكية وعلى رأسه تاج وذكر أنه ملك مالى . وبدأ راسمو الخرائط يشيرون التساؤل عن منسا موسى . وكيفية الوصول إلى بلده . ورسم دولسرت جبال أطلس وقد قطعها وادى سوس الذي يقود إلى ملك الزنوج . وكان اهتمام الأوروبيين بالداخل تجارياً محضاً وقد أظهرت إحدى طبعات خريطة العالم التي رسمها بيزيجاني Pizzigani البندقى والمؤرخ في سنة ١٣٦٧ جبال أطلس وقد كسرت بنفس الطريق الذي يأتي من ملك مالى — وأطلس كاتلان Catlan المشهور الذي رسم أيام شارل الخامس بواسطة أبراهام كرسكس Abraham Cresques في سنة ١٣٧٥ أظهر في وسط الصحراء رجلاً ملثماً راكباً جملًا متجهاً إلى ملك جالس على عرش لابساً ملابس ملكية وتاجاً ، ممسكاً بالصولجان في إحدى يديه والصابجات الذهبية في اليد الأخرى ، وهو يناولها إلى الراكب . وقد كتب تحت هذا الملك الزنجي ( منسا موسى ملك الزنوج في غانة والذهب كثير في مملكته إلى حد أن أصبح أغنى وأنبل ملك في العالم ) .

وظلت شهرة هذا الملك الزنجي العظيم مستفيضة زمناً . واعتقد الناس إنه ليس أقل شخصية من الملك الأسطوري القس حنا، وإحدى الخرائط الأخيرة التي ظهر فيها منسا موسى تلك التي رسمها فالدسي مولر Waldseemuller في سنة ١٥١٦، ويبدو أنها أخذت تختفي من الأطالس بعد ذلك نتيجة للضوء الذي ألقاه ليو الإفريقي<sup>(١)</sup> على وسط إفريقيا .



---

(١) كان راسمو الخرائط يجدون صعوبة في إظهار ملامح الزنوج وخاصة شعرهم القصير والتجرد عن الملابس تحت تأثير ما لديهم من أفكار عما يجب أن يكون عليه الملك . ففي رأيهم أن لابد للملك أن يكون ملتجياً وقد رسم دولسرت لمنسا موسى ذقناً صغيرة ولكنها كثيرة الشعر ولم يكن هذا موحياً بما فيه الكفاية للراسمين المتأخرين . ولذا أعطوه ذقناً طويلة . وبمرور الزمن نما الشعور بأن منسا موسى بالرغم من سواد بشرته لابد أن يكون منظره كالأوروبيين ، ولذا بدأ يظهر متوجاً وجالساً على عرش ويلبس الملابس الملكية ، ولكن الثوب مشقوق كي يصبح جبة أو عارياً تماماً . ولم يهمل الراسمون الفرصة التي أعطتهم إياها هذه الفكرة ليؤكدوا الملامح الزنجية للزنوج .



## ابن بطوطة

بعد موت منسا موسى بدأ حظ مالى ينخبو بسبب عدم كفاءة خلفائه وجنوحهم نحو المفاسد، فانتقل العرش أولاً إلى ابنه ماغان Maghan الذى حكم أربع سنين فقط . سمحت لميراثه العظيم أن يقاسى من سوءتين مهمتين أحدهما كانت محطمة له . فبعد اعتلائه العرش بقليل اكتسح موسى ، Mossi المحارب العظيم ياتنجا Yatenga على أعالى القولتسا مدينة تمبكتو . وحطم حامية الماندنجو وأحرق المدينة ، وفى فرصة سيئة كانت سفارة من أبى الحسن أكبر سلاطين بنى مرين فى فاس التى تعنى بالتجارة مع ( الماندنجو ) قد وصلت إلى تمبكتو فى هذا الوقت ، ثم وقعت حادثة أخرى كانت ذات نتائج أكثر أهمية . إذ سمح ماغان دون حرص لأميرى صنغاي على كولن وسليمان نار بالحرية التامة وكان أبوه قد احتفظ بهما رهينة عند الإستيلاء على جاو ، وسرعان ما رأى الأميران فى تغيير الملك فرصة لبلدهما لىستردا استقلاله فدبرا أن يهربا من جاو وبطردا الماندنجو من العاصمة . وأعلن على كولن نفسه ملكا على صنغاي ، وتحصن فى عاصمة والده القديمة حتى لا يستطيع أحد طرده منها ، وخلف ماغان عمه سليمان أخو منسا موسى وعمل كثيراً لىستعيد جاو واستعاد السيطرة على معظم أملاكه وقام بالحج إلى مكة فى سنة ١٣٥١ ( ٧٥٢هـ ) مما أعطاه فرصة ليعيد إلى سلطة الماندنجو أغلب أجزاء الإمبراطورية البعيدة فى الطريق الذى اجتازه . ومن بينها أهم أجزاء مالى وهى مدينة تاكدا Takedda التى كانت مركزاً هاماً لتجارة القوافل ومازال موقعها غير معروف تماماً ولكنها كانت تقع بين جاو وإيرى على طريق الحج عبر الصحراء . واستناداً إلى ابن خلدون كانت على مسيرة سبعين يوماً جنوباً بغرب من ورجالا التى

كانت على صلات تجارية وثيقة بها . وقد اعتادت أن تمر بها قافلة واحدة في السنة مكونة من اثني عشر ألف جملا في طريقها من نياني إلى القاهرة ، ورغم ما في هذه الرواية من مبالغة فإنها ترينا أن التجارة بين مالي ومصر كانت على قدر من الأهمية . فتأكدنا مع ذلك لم تكن تدين بانتعاشها للتجارة المارة بها فحسب ولكن إلى مناجم النحاس التي كانت مصر والمغرب ومالي ودول الهوسا وبرنو تحصل منها على كميات من هذا المعدن النفيس إذ قال منسا موسى مرة أن هذه المناجم كانت أهم مصادر دخله<sup>(١)</sup> .

وأهم حوادث عصر سليمان هي زيارة الرحالة المشهور ابن بطوطة لمالي ، ونحن ندين لما كتبه عنها بكثير من معلوماتنا عن العالم الإسلامي في النصف الأول من القرن الرابع عشر . فقد أرسله إلى السودان السلطان أبو عنان (٧٤٩ - ٧٥٩) الذي استولى على عرش مراکش العظيم من أبيه أبو الحسن . فخرج في سنة ١٣٥٢ (٧٥٣هـ) وسلك طريق سجلماسة حيث رست قافلته في آغازة Tagbza في مكان يسمى تاسرهلا التي كانت مركزاً بعض الأعلى همة تتوقف فيه القوافل الصحراوية ومكثت قافلته هناك بضعة أيام لتصلح وتملاً قرب الماء ومن هناك أرسلوا التكشيف وهو رسول من المسوفة كان يسبق القافلة إلى ولانا ليعلن وصولها وليرسل منها الماء ليقابل القافلة في الصحراء وإذا حدث أن فشل التكشيف في الوصول وفشل معه إرسال الماء فقد تهلك القافلة في الصحراء .

وفي هذه الفرصة كان التكشيف — الذي يدفع له مائة مثقال من الذهب من أجل خدمته هذه — كفيفا في الغالب وهذه النقطة جديرة بالعناية فليوالإفريقي الذي سافر في نفس الطريق بعد هذا الزمن بقرن ونصف، يذكر أن قافلة ضلت طريقها قد أنقذها دليل أعمى كان يركب جملا حين

---

(١) اكتشفت بقايا هذه المناجم في إزليك Azelik بواسطة موني في سنة ١٩٥٩



طلب فأعطى له في آخر كل ميل حفنة من الرمل فيشتمها ثم يعلن موقع المكان<sup>(١)</sup>.

ولحسن الحظ سار كل شيء حسناً لابن بطوطة الذي يسجل السرور الذي أحسه هو وجماعته بعد خروجهم من تاسره لاه بسبعة أيام حين رأوا نار من خرجوا لاستقبالهم.

(١) في الأيام الحالية اعتاد دليل أعمى أن يقود القافلة عبر ٩٠ ميلاً بدون ماء بين أم قوبور Umm Qubur في تلال البحر الأحمر ووادي النيل (موراي . أبناء إسماعيل ص ٦٦) وفي تجربة الكاتب أن الإفريقيين ليسوا بأحسن من الأوروبيين في معرفة الطريق في أرض محبولة ، ولكن يبدو أن هؤلاء الأكثر بداوة والمعتادون على السفر لمسافات طويلة حاسة الإتجاه التي تعطيهم استقلالاً كبيراً في النظر. أما الرجل المتمدين فإنه لا يفقد نفس الحاسة ، ففي الحرب العالمية الثانية أدهش كابتن من صيادي السمك — في بحر الشمال البحرية الملكية حين وجد طريق عودته خلال ضباب كثيف بدون استعمال الآلات ، ففي بعض الظروف كما تبين عبارة ليو — تكون حاسة اللمس والشم قوية إلى حد أنها تقود أكثر من النظر فملدرد كابل مثلاً Mildred Cable ( في كتابه صحراء جوبي ص ١١ ) يروي كيف أن بعض الحصى الملتقط على مدى واسع قد يعاد إلى المنطقة التي جمع منها ، وإلى مثل ذلك ذكر شو للمؤلف كيف أن الحصى على ساحل شيسل مرتب جداً إلى حد أن الصيادين حين يطأونه بأقدامهم في الليل يستطيعون أن يعرفوا في أي مكان من الشاطئ نزلوا . ويروي المستكشف دنهام ( تقرير الجمعية الجغرافية لسنة ١٩٣٦/٣٥ ص ١٥٩ ) كيف أن العرب في الصحراء الجنوبية قرآن يعرفون في بعض الأوقات بشم الأرض أين تكون الينابيع ، ولم يخطئوا أبداً في التعرف على الموقع .

واستعمال الأدلاء الكفيفين الذين ترشدهم حاسة الشم في الصحراء سجلها أيضاً توماس بلو Thomas Pello في كتابه ( مخاطرات ١٨٩٠ ص ١٩٥ — ١٩٩ ) وجاكسون ( قصة عن مراکش ١٨٠٩ ص ٢٤٠ ) ، ( وقصة عن تمبوكتو سنة ١٨٢٠ ص ٥ ) وقد سجلت مذكرات كثير من الرحالة في الصحراء إن هؤلاء الأدلاء الكفيفين قد أدوا خدمات لم يستطع الأدلاء المبصرون أن يؤدوها .

بعد شهرين من تركه سجنه ، وصلت القافلة إلى ولاتا أكثر مراكز مالي تطرفاً نحو الشمال والمغرب إلى السودان ، حيث كان لابن بطوطة صديق تاجر من سلا وكان قد كتب إليه أن يؤجر له منزلاً . وبذا تأكدنا من كل الجهود قد بذلت لتكريم الزائر الممتاز وبالرغم من ذلك بأنه برهن على أنه ضيف ثقيل فلم يكذب يصل حتى أسف على قدومه ، لأنه وجد سكانها زنجياً — وهم الذين لم يتعود أن يراهم سوى رقيقاً — يعاملون معاملة الأسياد في بلادهم ، ولذا تألم كثيراً حين أكد كم هو مشين لرجل عرف جميع الدول الإسلامية من مراکش حتى الصين أن يزور دولة زنجية . فرفض أن يلبي دعوة موظف من الماساننجو دعه إلى زيارة منزله . وتحایل رفاقه عليه ليحملوه على الزيارة ولكنه رفض .

( واستدعى ( مشرف ابو الاتن ) من جاء بالقافلة إلى ضيافته ) فأبيت من حضور ذلك ، فعزم الأصحاب على أشد العزم فتوجهت فيمن توجه . ثم أتى بالضيافة وهي جريش انلى مخلوطا بيسير عسل ولبن قد وضعوه في نصف قرعة صبروه شبه الجفنة ، فشرب الحاضرون وانصرفوا فقلت لهم ألهذا دعانا الأسود ، قالوا نعم وهو الضيافة الكبيرة عندهم ، فأيقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم ) ، ولذا عزم على أن يعود إلى مراکش مع قافلة من قوافل الحج كانت على وشك الرحيل ، ولحسن الحظ قرر أنه من الأفضل أولاً — وقد ذهب بعيداً — أن يذهب ليرى العاصمة .

وقبل أن يكمل رحلته أمضى بضعة أيام أخرى في ولاتا ونخبنا أنه وجدها شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ وماؤها من أحساء بها ، ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها من مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظم شأنًا من الرجال . كما رأى أن ( امرهم غريب فنساءهم لا يحتشمن من الرجال فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ) .



ورحل ابن بطوطة إلى نياى مع رفاق ثلاث ودليل ، وكانت الدولة قد استقرت يسودها السلام إلى حد أن لم تعد حاجة إلى السفر في صحبته ورغم أنها كانت على مسافة أربعة وعشرين يوما فإنهم لم يحملوا طعاما أو ذهابا أو فضة . بل الملح والخرز والبضائع للمقايضة ، إذ كانوا قادرين على أن يحصلوا على مختلف الطعام من كل قرية يأتون إليها ، وعندما عبر النيجر ظن ابن بطوطة أنه نيل مصر فوصفه وهو يجتاز تمبكتو وجاو ومولى بين بلاد الليمين ثم إلى يوفى وربما تكون نوبى فى نيجيريا . وكان ظنه أنه يصف النيل مما جعله يقع فى خطئه فيقول . . . ومن يوفى ( ينحدر إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم إلى دنقلة وهى أكبر بلادهم ) .

وفى نياى وجد ابن بطوطة نفسه بين مواطنيه الذين احتفوا به وأكرموا ، ولكنه مرض عقب وصوله واعتنى به طبيب مصرى وعندما تعافى وذهب لزيارة سليمان فى قصره وجد من مظاهر الحضارة ما هو جدير بالتسجيل تفصيلا . ( والسودان أكثر الناس تواضعا للملكهم وأشدهم تذلا له . . . فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه . . . نزع ثيابه ولبس ثيابا خلقة ونزع عمامته وجعل شاشيته وسخة . . . ورمى بالتراب على رأسه وظهره . وعلامة الاستحسان نزع القسى شكراً للسلطان . والتفضحية بما عزين يراد بها إبعاد العين الشريرة ) وعندما كان فى القصر كان هناك بعض آكلى لحوم البشر من وانجارا فيصف مارآه فيقول ( أكرمهم السلطان وأعطاهم فى الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوهم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين . وأخبرت أن عادتهم متى وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك ) .

وبالرغم من أن طريقة سليمان فى الترحيب برعيته من أهل وانجارا أكدت أسوا انطباعات ابن بطوطة ، إلا أنه حين ازداد معرفة بالسودانيين تبين له بعض صفاتهم الحسنة ، وخاصة حبهم للعدل وحفظهم الأمن على طول الطريق ، ولم يكن فى الواقع يملك دليلا على عطفهم وشرورهم — كما سئى — أكثر مما

ذكره زميله ليو الإفريقى والمستكشفون الأوريون في الأيام الأخيرة .

( فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم . فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة ، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه ، ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها . . . . ومن مساوى أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات . ومن عاداتهم في رمضان أن يفطروا بدار السلطان ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون وما فوقهن من جواريه وهن عرايا ، ومنها دخول النساء على السلطان وهن عرايا غير مستترات وتعري بناته . ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبا . . ومنها أن كثيرين منهم يأكلون الجيف والكلاب والحير ) .

ويبدو أن ابن بطوطة قد سر من إقامته في نيانى إذ مكث بها ثمانية أشهر وخرج يقصد تمبكتو في آخر فبراير سنة ١٣٥٣ ( الثانى والعشرين من محرم سنة ٧٥٤ ) راكباً جلاً ، لأنه لم يكن يملك مائة مثقال من الذهب يدفعها لحصان ، لم يفكر كثيراً في مدينة تمبكتو لأنه يخبرنا أكثر عن الناس فيقول (أنهم مثل أهل ابوالاتن مسوفه طوارق) ثم يشير إلى قبر الساحلى الشاعر المهندس الأندلسى . ومن هنا تابع رحلته بحراً متتبعا للنيجر في قارب منحوت وتوقف في قرى صنغاي حيث حصل على اللحم والزبد بديلا عن الملح والبهار والزجاج والخرز ، وفي إحدى هذه القرى أعطى عبداً ظل معه عدة سنين إلى وقت كتابته رحلته . وذكر أن جاو أحسن مدن السودان ولكن ليس فيها ما هو جدير بالذكر . وبعد شهر رحل إلى تكدا في قافلة كبيرة للتجار



من غدامس ( ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب وسواها ، ولأهلها رفاهية وسعة حال . يتفخرون بكثرة العبيد والخدم ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادراً وبالمن الكثير — ومعدن النحاس بخارج تكدا . ويحملون النحاس منها إلى كوبر من بلاد الكفار وإلى زفای وإلى بلاد برنو على مسيرة أربعين يوماً من تكدا ) وبينما هو هناك استدعى ليعود إلى فاس فخرج إليها في قافلة ضمت ستائة من النساء الرقيق وعاد عن طريق إیری وتوات وسجلماسة .

ومن المستحيل أن تقرأ رحلة ابن بطوطة عن السودان دون أن يأخذك مدى نشاطه التجاري ففي هذا الوقت تبدو حركة قوافل الطرق الصحراوية أنها كانت نشطة وأن الروابط بين المغرب والسودان دينية وقوية . ونحن نعرف بعض تنظيم تجارة السودان من الطريقة التي كان تاجر كبير من تجار تلمسان يدير بها شؤونه . إذ تكونت شركة من خمسة إخوان يسمون بالمقرى وكانوا شركاء متساوين . يقيم اثنان منهم في ولاتا حيث يجمعان العاج ، وفي بعض الأوقات يزوران الأسواق الهامة في الجنوب ، وكان اثنان آخران يقيمان في تلمسان ويحرصان على تزويد الآخرين بالتجارة الأوربية ، أما الخامس فكان رئيس الشركة واستقر في سجلماسة التي كانت لا تزال أهم مراكز الشمال في تجارة القوافل ، حيث كان قادراً على أن يراقب الأسواق عن قرب ويرسل إلى بقية إخوانه عن أسعار البضائع . ولا بد إنه كان هناك آخرون مثل إخوان المقرى إلى حد أن أبا هشام Haccam ملك تلمسان تذكرهم حين قال في بداية القرن أنه يسره أن ينفي جميع التجار إلا هؤلاء الذين يتاجرون مع السودان فهؤلاء سبب ثروة مملكته بينما الآخرون يفقرونها .

ومع بداية القرن الخامس عشر لم تعد قوة مالي أكثر من شبح باهت لما كانت عليه أيام منسا موسى إذ فقد الماندنجو سيادتهم على تكرر

وربما على الجزء الأكبر من صنغاي، وبالرغم مما كان لهم من صلات وثيقة مع تمبكتو، فدى أثر الماساندينجو في الصحراء كان دائماً موضع الشك . واستناداً إلى ابن خلدون كان اتحاد قبائل صنهاجة من الطوارق لا يزال يدفع الجزية إلى ملك مالي ويدعونه ملك السودان أو ملك أرض الزنوج<sup>(١)</sup> . ويقول أنهم يكونون فرق جيش الماساندينجو، ومنها عرفنا كثيراً عن شعوب الصحراء المتكبرة ولكننا نستطيع أن نشك ما إذا كان ذلك يعصور حقيقة العلاقات بينه وبين جيرانهم الزنوج .



---

(١) أحد ألقاب أمير كوناجورا النيجيرية Kontagora الموروثة هو ساركين Sarkin السودان وهو هوسا ملك السودان .



## صنغاي

يضطرب مجرى الجزء الأوسط من نهر النيجر عند نقطتين وهما كيني Kenié جنوبي باماكو Bamako وبوسا Busa حيث تشتد سرعة الماء الذي غرق فيه منجو بارك Mungo Park ، وبين هاتين النقطتين تستقيم الملاحة مسافة ألف ميل ينحني فيها نهر النيجر انحناءه الكبرى نحو الشمال وتحف بالنهر في هذه المنطقة مساحات كبيرة من نبات اليورجو الشديدة الكثافة. وهو نوع من الحشائش المغذية للحيوان وإليها يأتي الأهالي بما شيتهم من مسافات بعيدة . وتزدحم الضفتان بكثير من الكسور والمداخل . كما يزدحم المجرى بالجزر وتمتد إلى الجنوب والشمال مساحة كبيرة من الصحراء . والجنوب هو موطن الطوارق كما هو الحال في الشمال . وفي خلال عصور تاريخ السودان الغربي كان منحني النيجر دائماً مأوى للمظلومين ، إذ أعطت هذه الكسور المختبئة التي لا عدد لها والكهوف التي يصعب الصعود إليها الأمان للاجئين . كما أعطاهم البورجو الطعام لحيواناتهم .

والنيجر الأوسط كان أكثر من مجرد ملجأ للاجئ ، إذ أنه موطن الصنغاي وهو شعب زنجي — كان قبل أن تلم بهم النكبة — قد لعب دوراً هاماً في تاريخ شمال غرب إفريقيا . وهو يتكون من عشيرتين هما السوركو Sorko الصيادون والجايبى Gabibi الزراع ، وموطنهم الأصلي كان قبل ذلك في دندى Dendi في النيجر الأدنى شمالي بوسا بقليل . ثم انتشروا على طول المجرى إلى تمبكتو والبحيرات الكبيرة التي وراءها<sup>(١)</sup> وفي القرن التاسع

(١) ما زالوا يسمون الضفة اليمنى من النهر جورما Gurma واليسرى هوسا Hausa كما فعلوا في دندى وما زالت هذه الأسماء شائعة على طول النهر وكذلك بحيرة دوبو Dobo

غزتهم قبائل لمتة البدوية من الشمال والطوارق تحت قيادة ذا اليمين الذي ذبح عمدة صنغاي إله النهر وأسس أسرة استمرت لعدة قرون .

وعاصمة صنغاي هي جاو وتقع على الضفة اليسرى للنيجر حيث يتصل به وادي تلمسى Tilemsi متحدراً إليه من قلب الصحراء . وفي القرن الحادى عشر اعتنقت لمتة—التي هي أغنى الرعايا—الإسلام ولكن أغلبية الصنغاي ظلوا وثنيين وانقسمت جاو مثل كومبى إلى جيين ، أحدهما للمسلمين والآخر للوثنيين<sup>(١)</sup> . وظلت لمدة طويلة سوقاً هامة جذبت إليها تجار البربر .

وعلى مسيرة بضعة أيام مع وادي تلمسى فى منطقة أدرار Adrar الجبلية عند إيفوغاس Efoghas كانت تقع تدمكا Tedmekka إحدى أسواق الصحراء الهامة . وأطلق عليها العرب اسم السوق . وما زالت خرائبها تحمل هذا الاسم وكانت فى القرن الحادى عشر تتبادل التجارة مع القيروان وغدامس فى الشمال . ومع السودان فى الجنوب وكان عملتها ذهباً غير مسكوك . وإلى الشرق من جاو وإلى الخارج من الصحراء يقع السوق الثالث الهام لهذا الجزء من داخل إفريقيا . بلد مناجم النحاس تاكددا Takedda التى تقع على نهر ملاهى<sup>(٢)</sup> وتتصل اتصالاً سهلاً بالأسواق

---

(١) يقول البكرى أن العرب عرفوا أهل جاو باسم بوزورجانيين Buzurganiyin أو بصركاين Basar Cayin وليس المقصود بهذه الكلمة الوطنيون بل التجار الأجانب القادمون من المغرب تمييزاً لهم عن العرب ، وهم تجار كانوا وألورى بورنو ويحسن بنا أن نلم بحكام صمغاي الأولين . وأثر المرابطن على النيجر الأوسط حين اكتشف فى سنة ١٩٢٩ بعض شواهد القبور التى تعود إلى القرن الثانى عشر . وهى منقوشة بالعربية والأسبانية ومن ثم درس جيداً موقع مدينة جاو .

(٢) إذا كان النيجر قد مون تمونيا طياً بالحشب لأصح أكثر قيمة لصنغاي إذ تحف الصحراء بمظم الطريق من تمبكتو إلى هاو وهناك قليل من الشجر غير النخيل . وهى مادة خفيفة تصنع منها جميع قوارب النيجر الأوسط . وفى مناسبة ما حين كان اسكيا داود يريد بناء مسجد فى تمبكتو استورد الحشب عن طريق النهر .



الأخرى تدمكا وتدمكت وكانت جاو مضاعفة الأمان في مكان يتحكم في  
تجارة السودان الغربي .

ومعلوماتنا عن صنغاي بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر قليلة  
ولكنها دليل الأهمية التى علقها منسا موسى على إستيلائه على جاو فبعد تحرير  
المدينة بواسطة على كولن وأخيه بقرن ، قنع أهل جاو من الصنغاي بالدفاع  
عن أنفسهم وحريتهم ضد ماندنجو مالى . فقوة الأخيرين كانت تسير دائماً  
إلى الوهن ، والطوارق يقودهم اكيل اج ملول Akil eg Millwel ساقوهم  
خارج تمبكتو . مما فتح الباب للصنغاي لىستعيدوا المدينة التى كانت مدينتهم  
التقليدية كان نهم الطوارق والخيانة هما اللذان جعل ذلك ممكناً .

و حين ساق الطوارق الماندنجو خارج المدينة عينوا صنهاغيا اسمه عمر  
ليحكم المدينة . وكان همه الرئيسى أن يستولى على ثلث الضرائب ، أما الباقي  
فالى من نصره . وعلى كل حال ، كان سيده الصحراوى اكيل ينزل على  
المدينة عقب جمع الضرائب ليحمل نصيب الحاكم . وحين بدأ اكيل وأنصاره  
يقتحمون منازل الناس واغتصاب نساءهم ، أرسل عمر سراً رسالة إلى أهل صنغاي  
يمنحهم المدينة إذا قدموا وخلصوهم وكان ملك الصنغاي آنئذ هو سنى على  
Sonni Ali وهو رجل قدير طموح . فلم يدع هذه الفرصة تفوته ، فقام  
فرسانه وسار إلى تمبكتو وعندما رأى كل من أكيل وعمر الصنغاي قادمين  
هرب الأول للوقت إلى ولا تا . وفى أثره علماء مسجد سانكور بينما أسرع  
عمر الذى كان ينتظر مكافأة ضخمة على خيانتة — بالهرب أيضاً ودخل  
سنى على تمبكتو فى يناير سنة ١٤٦٨ ( ٨٧٢ هـ ) . وقتل عدداً كبيراً  
من سكانها .

وشعب تمبكتو ذوو بشرة زنجية الدم البربرى يجرى فى عروقهم  
وهم دائماً فخورين بها الى حد أنهم يحتقرون زفوج صنغاي ويعتبرونهم

متوحشين، بالرغم من أن يبتهم المالك بربرى الأصل . وكان سنى على — الذى يبدو عليه أنه قد يكون به أثر من الدم الشمالى — مكروها إلى حد كبير من السعدى مؤرخ السودان الغربى . وهو يطلق عليه أسماء تدل على ذلك مثل الطاغية . ويصوره بصورة الرجل الذى يجد نخره فى قتل العلماء والاقوياء . وربما طرب السننى للتعبيرات التى أطلقها عليه السعدى، فمن الواضح أن كان مسلماً اسماً فقط، بل قيل إنه كان يمارس العادات الوثنية مثل كثيرين غيره من السودانيين المسلمين عبر القرون. وقد علل عداوته لشعب تمبكتو بأنهم أصدقاء الطوارق . الأعداء التقليديين لصنغاي . ومن أقدم العصور كانت المدن الامنة ضحية سهلة دائمة للبدو إذ كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمام قوة أعدائهم .

وكان نجاح سنى على الثانى استيلاؤه على جنى التى قاومت على ما يقال تسعة وتسعين هجوماً لملك مالى . وقد تأسست جنى فى القرن الثالث عشر بواسطة السوننكى الذين بنوها على موقع لمدينة سابقة عند ظهير نهر بانى Banى، وكانت المدينة الرئيسية فى منطقة خصبة مزدهرة بالسكان تتخللها الأنهار والبحيرات والمستنقعات تعلو تمبكتو، وخلالها كانت مياه نهري النيجر وبانى تجرى قبل أن يتحدا ليكونا مجراهما الكبير إلى الشرق . وكما يقول السعدى كانت أحد أسواق إفريقيا الهامة حيث يجد الإنسان تجاراً من المغرب يبادلون ملح تغازة بذهب الجنوب، وبسبب هذه المدينة المباركة كما يقول ( تأتى القوافل إلى تمبكتو من جميع أنحاء الأفق ) وهى ضريبة ضرورية . لأن السعدى كان شديد الحسد لشهره مدينة تمبكتو التى كانت جنى تنافسها فى التجارة والثقافة .

إن شهرة تمبكتو وما يحيط بها من السحر هى الشيء الوحيد الذى يمكن أن نعزى إليه الصورة الجميلة التى رسمها لها ليو الافريقى فى القرن السادس عشر . والأخرى التى رسمها بعصبية فليكس دى موى وآخرون من كتاب



القرن العشرين، والتي أخذت إدعاءات جنى بتميزها كمرکز تجارى وثقافى فى الدرجة الأولى من الأهمية وبينما كانت تمبكتو محرومة من وسائل الدفاع الطبيعية بل كانت تحت رحمة أى غاز، كانت جنى محوطة بشبكة من الطرق المائية التى — بالإضافة إلى جعلها سهلة الوصول إليها — أعطتها أماناً جذب لها خلال ثمانمائة سنة، التجار ورجال الأدب من المغرب . وفى تمبكتو كان كل التجارة والعلم مضطرباً بسبب سياسة الصحراء . حتى أخذت فى جنى جذوراً عميقة وكونت نواة ، منها انتشرت ثقافة ساحل البحر المتوسط إلى الدول المحيطة بها .

وسيطر سنى على جنى فقط بسبب الحصار الذى استمر عدة سنوات . وربما كان إرتفاع الماء وهبوطه هو الذى جعل إستغلال النهر مستحيلاً ، لأننا نعرف أن المحاصرين كانوا دائماً يغيرون مواضعهم ، وأثرت المجاعة فى المحصورين كما أثرت فى المحاصرين ، إذ كان الآخرون قد وصلوا إلى ذروة تحملهم بل كانوا على وشك الانسحاب حين سلمت المدينة . وبهذه المناسبة كانت معاملة سنى على للمغلوبين على أمرهم الذين لم يكونوا أصدقاء للطوارق الذين يكرههم ، موسومة بالرحمة ، بينما كانت قاسية فى تمبكتو . ويحوط الشك تاريخ سقوط جنى ويحتمل أنه كان فى سنة ١٤٧٣ (٨٧٨هـ) . وقط أثار نجاح سنى على فى حملته الغريبة إعجاب وحسد موسى ياتنجا Yatenga الذى نذكر غارته على تمبكتو بعد موت منسا موسى بقليل وفى سنة ١٤٨٠ (٨٨٥هـ) تقدموا نحو الشمال الغربى بجرأة شديدة نحو الصحراء واستولوا على ولاتا بعد حصار دام شهراً . وبعد أن نهبوا المدينة انسحبوا حاملين معهم عدداً كبيراً من النساء والأطفال وقدرأ كبيراً من الأسلاب .

وفى الوقت الذى كان قلب سنى على يغلى بكراهية الطوارق خطط أمر

الانتقام من أكيل وبقية هؤلاء الذين تجنبوه عند سقوط تمبكتو، وكانوا لا يزالون في ولاتا وقد تأثروا من غارة موسى، فرسم الخطة من أجل أن يحطم أكيل ويضيف ولاتا إلى إمبراطوريته. وإتمام ذلك فكر في مشروع مدهش وهو حفر قنال على طول الطريق من بحيرة فاجبين Fagbine إلى ولاتا، وهي مسافة تقرب من مائتي ميل، وربما كانت البحيرة في القرن الخامس عشر تمتد غرباً حتى باسيكونو Bassikunu التي اختصرت المسافة بعض الشيء. وحتى إذا كان الأمر كذلك لا بد للإنسان أن يعجب بتخطيط رجل مثل سني على مثل هذا المشروع المضحك. ولكن نستطيع أن نفرض أن تجربته خلال حصار جني قد خدعته عن المزايا الحربية لطريق مائي، إلى حد أنه فكر في شق قنال كوسيلة ليجعل من ولاتا جزءاً لا يتفصل من إمبراطوريته، ومهما كانت الأسباب فقد بدء في هذا العمل العظيم ولكن تهديد موسى له بغزوه أعطاه عذراً وقتياً للتخلي عن هذا المشروع مبكراً.

ولم يكن تهديد موسى عبثاً. إذ كان لا بد من ردهم، ولما وجدوا سني على قوباً عليهم، وجهوا استعداداتهم القوية نحو الماندنغو في مالي، إذ كانت صنفاء تضطهدهم في الشمال بينما كان الفولاني يضطهدونهم في الجنوب في قوتا، وطلبوا العون من جيرانهم الأقوياء البرتغاليين الذين كانوا — نتيجة سلسلة الرحلات الموفقة التي غذاها وأدارها الأمير هنري — قد أسسوا لهم مراكز تجارية عند أرجوين Arguin، وتقدموا في الداخل حتى وادان Wadan وأسسوا مركزاً تجارياً هناك. ورفض هؤلاء أن يذهبوا لمساعدة الماندنغو.

ونسلم بعد ذلك عن عودة سني على إلى تمبكتو معذبا شعبها مرة أخرى، ومدبر لهم طرداً جديداً نحو الصحراء، ولكنهم لم ينتظروا طويلاً ليتخلصوا من الاستبداد الذي أحنى عليهم طويلاً إذ مات في سنة ١٤٩٢ (٨٩٧ هـ).



وفي خلال حكمه الذي استمر ستا وعشرين سنة حول سنى على مملكته الضعيفة إلى إمبراطورية قوية سيطرت على جزء كبير من السودان الغربى . وإلى جانب نشاطه وحروبه ومقدرته الإدارية التى بدونها لم يكن يقدر له أن ينجح فى الحقل السياسى، لم يكن هناك من شىء فى أخلاقه يحببه إلى شعبه . بل ظل مذكوراً دائماً بقسوته ، ولكن أسوأ جرائمه كانت دائماً تتبع بنوم عميق وكان فى بعض الأوقات قادراً على عمل كريم مثلما فعل عند سقوط جنى . وفى فرصة أخرى أدهش نبلاء تمبكتو —الذين كثيراً ما طاملمهم بقسوة بالغة — حين منحهم عدداً من بنات الفولاتى الجميلات وأصبح بعضهم زوجات شرعيات لأسيادهن وكان السعدى ابناً لواحدة منهن .

وورثه ابنه ، ولكن سرعان ما سلبه العرش أحد قواد أبيه . وبارتقائه انتهت أسرة لته القديمة التى حكمت صنغاي ثمانية قرون . وكان المعتصب محمد تورى من زنوج السوتنكى، ولذا حمل لقب اسكيا أى المعتصب وبه اشتهرت الأسرة التى أسسها . وأصبح هو نفسه اسكيا محمد الأول . وكان الحاكم الجديد يتحلى بصفات طيبة جعلته جديراً بالمركز الذى اغتصبه، إذ كان ذا كفاءة فى التنظيم السياسى تفوق كفاءة سنى على . ميالاً إلى الدين والعلم وهى صفات لم تعرف يوماً فى البربر، وشهد حكمه إنتعاشاً إسلامياً، كما شهد العلماء حالة لم يتمتعوا به من قبل حتى أيام سنى على حين كانوا أكثر الناس إضطهاداً فى الجماعة ولكنهم أصبحوا الآن أكثر الناس مراعاة . وسار مع انتعاش العلم — كما هى العادة فى السودان — انتعاش فى التجارة الخارجية التى أضافت ثروة جديدة إلى جاو ونمبكتو .

وأسرع اسكيا بعد إرتقائه العرش إلى الحج وضمنت قافلته خمسمائة فارس وألف راجل، وحمل معه ثلاثمائة قطعة من الذهب من الكنوز التى تركها سنى على . ومن هذا المبلغ خصص ثلثه للمنشآت الخيرية فى الأماكن المقدسة وبالرغم من أن

رحلة الحج التي قام بها اسكيا قد نظمت على نطاق يمكن مقارنته برحلة منسا موسى منذ قرن ونصف ، فإنها لم تثر نفس الإلتباه في الشرق الأوسط . بل لم تجذب انتباه أحد . ويرجع ذلك إلى أن اسكيا كان أقل من منسا موسى إندفاعاً وأكثر منه إستقامة في الدين، وكان عدم تقدير هذا الأخير للمواثيق هو الذي أدى إلى إنتقاد الناس له كرجل يعرض ثروته بلا وعى . فحين وصل منسا موسى إلى مصر استطاع المصريون بصعوبة إغراءه على أن يدفع الهدايا المعتادة لسلطان مصر . ولكننا نسمع أن اسكيا سأل الخليفة العباسي المتوكل وكان قد قابله في الحجاز تأكيد لقبه كملك صنفائى .

واتجه اسكيا بعد ذلك إلى محاولة مد حدود دولته ، وهي التي ضمت الرقعة الكبيرة التي حكمها سنى على . فكانت حملاته الأولى موجهة باسم الإسلام إلى البلاد الوثنية التي تحيط به من الغرب والجنوب وكان هذا اتجاهاً طبيعياً من رجل عاد تواءم رحلة الحج . فاستولى من ناحية الغرب على جزء كبير من دولة مالى ، التي أصبحت عظميتها ليست أكثر من ذكرى باهتة . وكاد أن يصل إلى حافة المحيط . ولكن أهم حملات اسكيا حدثت بعد ذلك بعدة سنين حين غزا إقليم الهوسا الذي يقع وراء حدوده الشرقية، وكانت إمارات الهوسا قد امتدت شرقاً من النيجر نحو بحيرة تشاد . وكانت خصبة جيدة الرى . وهي موطن زنوج ينتمون إلى أصول مختلفة ، وكانوا ولا يزالون يتميزون بصفات عظيمة، فهم زراع نشطون وتجار مهرة . كما اشتهروا بالعقريّة الصناعيّة وخاصة كنساجين وصباغين وصناع وعمال جلود . وعاشوا في مدن مسورة وقرى . ومن مدنها جوبر Gobir و كانو Kano وزاريا Zaria و كاتسينا Katsina ، وكانت أهميتها كافية لأن تجذب تجار البربر ليستقروا فيها، ولكنها كانت محرومة من وسائل الدفاع الطبيعية وكان حبهم للسلام قوياً



إلى حد كبير، جعلهم قادرين على القيام بعمل متحد. ولذا سقطت بلادهم فريسة سهلة لقوة صنغاي الغازية التي لم تجد مقاومة جدية إلا في كانوا .

وبفتح إمارات الهاوسا أضاف اسكيا إلى دولته الواسعة جزءاً غنياً مزدحماً بالسكان، ولكن هذا جلب على صنغاي اتصالاً مباشراً بأعدائهم التقليديين وهم الطوارق إذ كان من عاداتهم الإغارة على إمارات الهاوسا بنفس طريقة أقربائهم الذي اعتادوا الإغارة على قرى النيجر في الغرب، وحب الطوارق للاعتداء يشكل دائماً مشكلة صعبة الحل لصنغاي التي لم تجد أي وسيلة لصدهم إذ كان دفع شيء لهم مستحيلاً، كما كانت مطاردتهم في الصحراء غير مجدية أيضاً إذ كان استمرار تحركهم يجعل الوصول إليهم والقبض عليهم مستحيلاً إذ كانوا قادرين على أن يعيشوا في ظروف يهلك غيرهم فيها من جراء الجوع والعطش، فكان فتح إمارات الهاوسا أضخم مشكلة للطوارق . ولكن اسكيا كان سريعاً في الوصول إلى حل جزئي، وكما كان أهل جارامانتس مع استقرارهم في فزان لا يكاد الرومان يمشونهم إلا قليلاً، كذلك كان الطوارق لا يمكن الوصول إليهم إلا في مواطنهم في إيرى وأسبن Ashen وخاصة في مدينتهم أغادس التي كانت على مسافة بعيدة من الهاوسا (١) .

وهكذا فتح اسكيا إيرى وطرد الطوارق منها — كي يكون مطمئناً بقدر كاف — إلى الصحراء . وعرف اسكيا أن أفضل وسيلة لتجنب المتاعب في

---

(١) أول من استقر من الطوارق في إيرى كانوا لمتة الذين قدموا من برنو . وسكن قلمهم قبائل جوبيراوا الرنجية Gobirawa وعاصمتهم تعن شامان Tin Shaman بالقرب من أغادس وعاشت لمتة مع جوبيراوا في سلام حتى وصول الطوارق منل كالجرس Kelgeres وصنهاجه الذين طردوا الجوبيراوا وكان ذلك في أوائل القرن الخامس . وأصبحت إيرى بذلك دولة طوارق مستقلة ولها سلطان منهم ويسمى امينوكال Amenokal ولما كانت استئول هي التي تعينه فقد كان مسيحياً بيزنطياً وليس تركباً مسلماً كان اسمه يونس أو جون واسم زوجته ابوزاهيل IbuzahiI القريب من إيزابيل .

المستقبل أن يحرم البدو من مراعيهم الثمينة . وفي كلتا حملتيه ضد الهوسا وارى صاحب ملك كبي المسمى كانتا Kanta<sup>(١)</sup> وهى مملكة صغيرة تابعة لصنغاي وتقع بين الهوسا والنيجر، وبعد حملة ايرى لم يرض كانتا عن نصيبه من الغنائم كما قيل، فثار على اسكيا وأعلن استقلال كبي Kebbi وثورة ملك مملكة صغيرة يحتاج إلى شجاعة ، ولكن كانتا كان في ثورته يرتكب مخاطرة يحسب حسابهم إذ لم يكن هناك من يعرف أحسن منه ضعف جيش صنغاي واستحالة قدرته على متابعته خلال مستنقعات كبي الكبيرة . والى جانب هذه الميزة الحرية الكبيرة فإنه كان واثقا من نصرته شعبه الشجاع له . وهو الذى يحبه حبا أعمى وكانت ثقة فى محلها . فمن وراء عاصمة سورام Suram ذات الأحجار السبعة والتي مازالت أنقاضها موجودة كذكرى حية لمؤسسها ، دافع كانتا بنجاح وصد الصنغاي الذين لم تكن محاولتهم لسحقه إلا هزيمة ساحقة لهم.

ولم يكن الخطر الحقيقى على كانتا فى الغرب ، حيث تقع مستنقعات دولة تهميه . بل فى الشرق حيث جاره القوى ماى على سلطان بورنو ، الذى كان يترقب بخوف نشأة مملكة استطاعت هزيمة الصنغاي ، ولم تكن لكبي وبورنو حدود طبيعة سوى سهول الهوسا الممتدة ، إذ عبرها ماى على ليحطم قوة كبي النامية . وعلى مثال اسكيا هزم ، أمام أسوار سورام وتقهقر فى سرعة وكيباوا فى أعقابه وتذكر كانتا بانتصارها الساحق على صنغاي أكثر مما تذكر لهزيمتها لجيش بورنو . وظل انتصارها الأول أكثر الأساطير بقاء

---

(١) يصف محمد بلو من سكوتو ( انفا كول ميسورى ) Infakul Maisuri ملك كانتا بأنه كان عبداً للقولانى فى كتابه ( أظن نشأة قولانى سكوتو . المطبوع فى كانو سنة ١٩٢٩ لأرت ص ١٣ ) .



في الشعب<sup>(١)</sup> .

و حين طرد اسكيا الطوارق من ايرى أمر فأقامت هناك جماعة من الصنغاي فاستقروا في أغادس وما حولها . وبالرغم من عزلتهم وتتابع القرون الطويلة عليهم لم يفقد الصنغاي سيطرتهم على المدينة وما زال سكان المدينة من الزوج وما زالت لغتهم هي الصنغاي ، وبذا كان أثر فتوح اسكيا هنا أكثر استدامة منه في أغادس التي ظلت مركزا خارجا للصنغاي .

و كانت أواخر أيام حياته تراجديا مؤلمة . اذ ثار عليه ثلاثة من أبنائه يقودهم أكبرهم موسى ، ولما كان اسكيا كبير السن محطما من جراء جهاده الطويل فإنه استدعى أخاه يحيى لمساعدته ولكن الأبناء قتلوه وساروا الى جاو وأرغموا اسكيا على التنازل لموسى وبذلك انتهى في سنة ١٥٢٨ حكم أكبر ملك حكم السودان الغربي .

ويدين له شعبه بتعليمه إياه الحكومة المنظمة التي بها ضمن النجاح الذي حققه أكثر مما يدين له بهذه الإمبراطورية الكبيرة التي أعطاها إياهم . وكانت هاتان الحالتان من الحياة قد وجدتا أيضا حكم ، ففي فصل تال سوف تعود إلى وصف ليو الإفريقي للسودان تحت حكم اسكيا العظيم كما دماه ولكن لم ينتبه كل شيء يتنازله . ولسوء حظ هذا الرجل العظيم حقا بقيت له سنين من البؤس والانحطاط واليأس يعانيتها وقال موسى بعد شعبه الثائر بسبب قسوته وخلعه اسكيا بنجان كوري Askia Bangan Korei قائد حملة كومي

---

(١) يدعى كيباوا أن قوارب كانتا لا تزال تقم في مستنقع تحت برنين كبي Barnin Kebbi ومازال نكات خير خلف هو العجوز انشهم ساركين كبي ساما Sarkin Kebbi Samma في أرجونجو Argungu وهذا الذي وجدته البريطانيون بعد فتحهم لسكوتو لا يزال يحتفظ بمدينة ضد اعتداءات القولاني المتكررة وكانت عاصمتا القولاني سكوتو وجواندو على قيد بضعة أميال من مدينته .

الدمرة الذي أخرج اسكيا العجوز من القصر الملكي حيث كان موسى قد سمح لوالده بالإقامة ونفاه إلى جزيرة في النيجر . وظل هناك تهاجمه الضفادع والناموس وكان حقا قد مات .

و كانت الضرائب التي انصبت على خزائن جاو — نتيجة لفتوحات اسكيا — قد أدت إلى نشاط كبير للتجارة ، وجذبت تجاراً كثيرين إلى السودان وعلى أثر هؤلاء التجار الأجانب جاء العلماء ومن بينهم محمد المغيلي Mohammed el Maghili الذي يعرف في بعض الأوقات بالبغدادى . رغم أنه مواطن من تلمسان، وكان المغيلي قد قضى شبابه في توات في شمال السودان الأوسط حيث كسب الشهرة كداعية، إذ يقال أنه كان رسول الإسلام إلى الطوارق الذين ما زالوا يحترمون اسمه وكان ذبح جالية توات اليهودية أثراً لتعاليمه التي كانت سبباً لمذبحة جورارين Gorarin وتوجورت Taggart في نفس الوقت تقريباً، ولكن قسوة التعليم الذي دعا إليه المغيلي لم تكن له بين شعوب الصحراء كتلك التي قام بها ابن بس منذ خمسة قرون فاخرج من توات، وهرب جنوباً إلى هوسا عن طريق ايرى يعلم في طريقه ويكسب سمعة جديدة .

وقد اكتشفت حديثاً نسخة من أعمال المغيلي في كمتسينا وهي تتعلق بالحكومة بعنوان (واجبات الأمراء) وكانت قد كتبت لأن كانوا ، وهي تكشف عن مثل عليا وعن أدراك عميق من الكاتب لمصاعب الحكومة العملية، وكثيراً ما كرر في كتابته عبارة ( أن احتجاج الملك عن رعيته مصدر كل الشر ) بينما عارضها في عبارة أخرى حين قال ( إن تجول الأمير في المدينة يحمل كل المتاعب والضرر، فالطيور الجارحة تسكن الأما كن المفتوحة والديك قوى طالما يحوم حول أملاكه ويمكن للنسر أن يكسب مملكة بقرارات حاسمة وصوت الديك قوى يسيطر على الفراخ فليركب خيول التصميم ويضع عليها سروج التكبر ) .

وفي سنة ١٥٠٢ (٩٠٨هـ) ترك المغيلي كانوا إلى جاو حيث وصلتته أنباء أن اليهود



الذين نجوا من مذبحة توات قد انتقموا لأنفسهم بقتل ابته. وفي موجة حزنه قرر أن يسلك مسلك اسكيا بطرد اليهود من جاو ولكته فشل . وبعد سنين يسيرة أغلق اسكيا تمبكتو أمام التجار اليهود ومنع شعبه من معاملتهم. ولا نعلم أ كثر من ذلك عن المغيلي إذ مات بين سنتي ١٥٣٠ و ١٥٤٠ (٩٣٧-٩٤٧هـ) ولكن أثره استمر طويلا بعد موته . وما زالت هناك أمكنة في السودان الغربي يقدسها الناس لأنه تعيد فيها منذ أربعة قرون .

وخلف المغيلي في السودان زائر من الشمال أكثر منه شهرة ، وهو ليو الإفريقي وعلى رواياته اعتمد كثير من الجغرافين ورسمى الخرائط في كل ما عرفوه عن داخل إفريقيا خلال الثلاثمائة سنة التالية. ولكن قبل أن تأتي على قصة ليو الشهيرة عن رحلاته يجب أن نأخذ في اعتبارنا ما صنع الآخرون في هذا الحقل . ففي أوروبا كانت هناك رغبة عارمة في كشف أسرار القارة التي كانت رغم قربها وأهميتها للتجارة ، لا تزال مجهولة إذ استثنينا موانئ التجارة التي تنتشر على الساحل البربري .







## كشف ساحل غانة

كانت العلاقات بين شعوب جنوب أوروبا والبحرية والولايات البربرية خلال العصور الوسطى وثيقة جداً . فبالرغم من الاختلاف بينها في الديانة ، واستمرار حاله التوتر بسبب غارات القراصنة من المسيحيين والمسلمين ، وهى التى أزعجت البحر المتوسط حيث كان كل منهما يسطو على مراكب الآخر وسواحلها استمرت اتصالات الصداقة بين أوروبا وإفريقيا . فالجنود المرتزقة من الأوروبيين ( الفرنجى ) الذين كانوا يجندون فى دولهم وجدوا فى كل جيش إسلامى على طول الساحل الإفريقى <sup>(١)</sup> علاوة على الأسرى الأوروبيين الذين عملوا فى الجيوش الإسلامية قسراً <sup>(٢)</sup> والسفن المسيحية أتت إلى كل ميناء مسلم تحمل إليه الملابس والخرز البندقى والمصنوعات الأخرى يمين كما تحمل منها الرقيق والخصيان والذهب والعاج والأبنوس وريش النعام . وكان للتجار الأوروبيين منشآتهم وفنادقهم فى كل ميناء كما تمتعوا بالحقوق والامتيازات التى تحميها المعاهدات التجارية العديدة التى عقدت بين السلاطين الإفريقين (البابى) والداى ونجار مدن جنوب أوروبا وخاصة مرسلية جنوه وبيزا وفلورنسا وأمالفى والبندقية وغيرها وكلها تتفق مع المصالح الإسلامية .

(١) يجب أن نذكر أن ( النبيل ) فى قصة شوسو (قصص كاتدربرى) خدم والبربر .

(٢) اعتماداً على ما يقوله ليو الإفريقى . كان لدى سلطان تونس فى القرن السادس عشر خمسة عشر ألفاً من خيرة الجنود معظمهم من الأسرى المسيحيين وكان الأسرى ( الفرنجى ) يقارنون من بعض الأوجه بالإنكشارية الذين كونتهم الدولة العثمانية وبالماليك فى مصر . رغم أن الماليك لم يكونوا بتاتا من الأوروبيين .

( م ١٠ — الممالك الإسلامية )

وعرف المسيحيون كل ميناء ومرسى على طول الساحل الإفريقي ولكنهم كانوا مرغمين على أن يحدوا من نشاطهم على الشاطئ خوفاً من أن يصبحوا دخلاء في تجارة الداخل . فمرا كش التي كانت دائماً على غير العادة متسامحة مع المسيحيين<sup>(١)</sup> كانت إحدى المدن القليلة في الداخل التي سمح للتجار الأوروبيين بأن يعيشوا فيها ، وإذا صحت هذه الامتيازات القادرة فإن الاحتياطات التي كان يساء استخدامها كثيراً ما تتخذ وسيلة للتدخل . فكانت نتيجة ذلك أن ظلت أوروبا في جهل تام بما يوجد وراء الحزام الساحلي الإفريقي . ففي الوقت الذي كان الرحالة الأوروبيون يقومون بالرحلات إلى أقصى بلاد آسيا . كانت أقرب القارات إليه مغلقة دونهم وكل ما عرفه الأوروبيون عن داخل إفريقيا هو أنها تخفى ممالك ذات ثروات هائلة .

ولكن معرفة الداخل لم تكن محدودة بالنسبة للمسلمين فنذ عصور متقدمة كون اليهود عنصراً هاماً من سكان المغرب وكانوا مثل جميع الأجانب محترمين . ولكن تسوخ معهم بقدر لم يعرفه المسيحيون فكانت لهم بعض الامتيازات . فممكنهم ذلك أن يلعبوا دوراً فعالاً في تجارة هذا الجزء<sup>(٢)</sup> وسمح لهم في بعض الأوقات أن يشغلوا بعض المرا كز الرسمية الهامة . وخاصة في مرا كش . ومن المغرب انتشروا في واحات الصحراء بل اتجهوا إلى السودان . وأصبح ( الملاحون ) مصدر كثير من المعلومات عن داخل القارة ولكن حتى العصور الوسطى المتأخرة لم تصبح واحدة منها معروفة خارج القارة .

وحول نهاية القرن الرابع عشر بدأت جزر ميورقة ترسم خرائط لإفريقيا

---

(١) في سنة ١٢١٩ استقر خمس من رهبان الفرنسيسكان في مرا كش وبعد ذلك بضع سنين جعلها البابا جريجوري التاسع أسقفية وطلت كذلك حتى ١٦٣٩ .

(٢) في بداية القرن السادس عشر كان كل صياغ النحاس في فاس التي اشتهرت كمركز لتجارتهم — من اليهود . وكان ذلك سبب أن التجارة كانت قاصرة على المسلمين استناداً إلى عدم أمانهم .





فاظهرت تقدما محدوداً في المعلومات الجغرافية . وكانت هذه الخرائط من صنع الجالية اليهودية التي اشتهرت بصنع الساعات والآلات الدقيقة مثل الاسترلاب وكانت خرائطهم تجارية أكثر منها سياسية وعرفنا أنها كانت على أساس معلومات مستقاة من التجار اليهود في إفريقيا .

في هذا الوقت كانت تجارة ميورقة مع إفريقيا نشطة جداً بسبب علاقات الصداقة التي نتجت عن المعاهدات التجارية المختلفة بين أراجون والساحل، فكان من السهل إذن لرأسي الخرائط من يهود ميورقة أن يحصلوا على معلومات عن الطرق التجارية التي تؤدي إلى السودان التي عن طريقها فاض دم الحياة على تجارة المغرب .

وكانت الخرائط اليهودية غير دقيقة ويشك في قيمتها الجغرافية ، ولكنها رغم ذلك بددت إلى حد ما، بعض ما كان هناك من ظلام دامس . فقد دلت على موقع بعض الأماكن كن مثل تمبكتو وجاومالي وهذه كلها كانت معروفة في أوروبا بأنها أسواق كبيرة بعيدة ، وهذا أعطى شكلاً لمنطقة كانت معروفة فقط بأنها موطن ثروة مجهولة . وكان أهم هذه الخرائط تلك المعروفة باسم اطلس كاتالان Catalan Atlas لابراهيم كرسكس Abraham Cresques وهي التي عملت على نشر اسم منسا موسى في أوروبا .

ولكن اهتمام رأسي الخرائط من اليهود في إفريقيا ، لم يكتب له أن يستمر طويلاً . فالاضطهادات التي أوقعها فرديناند وإيزابلا باليهود وانتشرت من أسبانيا إلى إفريقيا ( وكما قيل ) إلى السودان أيضاً عن طريق الصحراء . وعلى ذلك أصبحت الخرائط الميورية المتأخرة تقل قيمتها تدريجياً كمصدر للمعلومات .

وقد أحدثت مدرسة ميورقة قدراً من التقدم في رسم الخرائط الأوروبية



وخاصة في إيطاليا ، فلاهتمام الشديد بإفريقيا الذي نراه في الخرائط الإيطالية المعاصرة، نشأ عن الروابط التجارية المتينة بين الولايات البربرية والجمهوريات الإيطالية الصغيرة . وبالرغم من ذلك فمعرفة الأوروبيين لداخل إفريقيا كانت سطحية من الدرجة الثانية ، رغم أنهم حصلوا عليها في أيام عصيبة حين بدأ المسيحيون يتطلعون إلى إفريقيا لحل مشاكلهم الاقتصادية .

وفي بداية القرن الخامس عشر اشتد الطلب على التجارة الخارجية، إذ كانت الحروب المخربة قد تركت أوروبا وقد نقص فائضها من المعادن الثمينة . وبسبب أن مواد التجارة الخاصة بالغرب كانت أثقل من أن تحملها الجمال ، احتاجوا إلى الذهب لدفع ثمن المنتجات الثمينة القادمة من الهند والصين وجزر البهار . وكلها أتت برا وقد اشتد الطلب عليها . وكانت نقص ذهب أوروبا قد أصبح خطراً على أصحاب البنوك فيها . فتحولت عقول الناس إلى إفريقيا التي كان ذهب المغرب يأتي منها .

وكان البحر الواسع الذي يضرب الشواطئ الغربية للعالم المعروف لم يكتشف بعد، فكان لابد أن تمر عدة سنين أخرى قبل أن يحطم رجال البحر المسيحيون ما كان يسود اعتقادات الناس أن بعض المخلوقات الغربية تنتظر الملاحين الذين يندفعون وراء رأس بوجادور ، فلم يكن هناك من تفكير قط في البحث عن حقول الذهب الإفريقية المخبوءة عن طريق البحر . وهو احتمال لم يعتقده إلا قليلون منذ أيام هيرودرت ، ولكن الخرائط الميورقية جعلت الناس يفكرون في الطرق البرية وهكذا صان الحسد أسرار بربر المغرب .

فهذه الخرائط لم تعلن عن ثروة الداخل فحسب بل بينت طريقاً يقود إلى حقول

---

(١) كان ماقاتي يظن أنه ممثل لنك حنوي معروف في سنتوريون Centurione ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت أنه لم يكن كذلك ( المجلة الجغرافية عدد ٨٤ سنة ١٩٣٤ ص ١٧٧ ) .

الذهب المخبوءة . وهو فتحة في جبال أطلس كتب عليها ( عن هذا الطريق يمر التجار الذين يأتون من أرض غينيا أرض الزنوج فهنا كنت — كما في خرائط العالم السابقة التي كان بها مثل هذه العلامات — الدعوة للمخاطرين المسيحيين لتجنب مراقبة المسلمين — إذا كان ذلك ممكنا — واختراق قارتهم من الشمال .

ثم حدث شيء صغير — كما انتشرت الأخبار — أعطى تشجيعاً لروح المخاطرة، وهو عودة أنسلم ديسالغوى Anselm d'Isalguier غير المنتظرة إلى مارسيليا سنة ١٤١٣، وكان هذا قد ترك موطنه في تولوز منذ إحدى عشرة سنة «في ظروف ليس لدينا عنها أية وثيقة» . ومن المحتمل أن يكون قد رحل ليلتحق بالحملة النورماندية التي قادها جان دي يثنكور Jean de Bèthencourt والتي خرجت لغزو جزائر كناريا . وكان يثنكور هذا معروفا بأنه كان يجند الرجال من جوار تولوز لينزل بهم على الأرض الإفريقية . وربما كان يثنكور هذا هو الرقيق المسيحي الذي عرفناه من (تاريخ الفتاش) بأنه كان في جاو حول هذا الوقت ، ومهما كان الأمر فإنه كان هناك ، وقضى بضع سنين في جاو وتزوج من ( أميرة ) صنيغة كانت تسمى كاسياس Cassias .

وعندما عاد يثنكور إلى فرنسا كانت تصحبه زوجته الإفريقية ومعها كمية كبيرة من الذهب والجواهر . وابنتهما وثلاث خصيان وثلاث إماء زنجيات، واستقرن جميعا في تولوز حيث أثاروا الدهشة التي ظلت حية عن طريق أحد الخصيان الذي كان قد احترف الطب ونجح إلى حد أنه عالج ولي العهد شارل حين كان مريضا . الأمر الذي سبب كثيرا من الضيق لأطباء المدينة الذين ربما يكونون قد صرحوا مع باكون Bacon أن ( ضعف الإنسان وعدم نضجه يجعله يفضل ساحرا أو مدعيا على الطبيب ) .

وأصبحت مشكلة الذهب في أوروبا أشد إلحاحا قبل أن نحاول المحاولة



الأولى المسجلة لاختراق إفريقيا برية من الشمال . وحدثت هذه في منتصف القرن حين نزل تاجر جموى غنى هو انطونيو مالفانتي Antonio Melfante في حنين Honein ووصل إلى وسط الصحراء يحاول كشف مصادر الذهب الإفريقي . وأرسل وهو لا يزال في توات تقريراً أعطى معلومات جغرافية ثمينة عن داخل القارة ولكن ليس فيها ما يساعد على هدف الرحلة . وقد ألح في سؤال شيخ عجوز كان يعرف السودان جيداً عن المكان الذى يأتى منه الذهب ، وكان كل مرة يحصل على نفس الإجابة ( قضيت أربع عشرة سنة في بلاد الزنوج ولم أسمع كما لم أر رجلاً يمكن أن يدلى بمعلومات أكيدة ، هذا ما رأيته وهذه هي طريقة الحصول على الذهب وجمعه ) . ويطن أيضاً أنه يأتى من أفار Afar وفي رأي أنه من منطقة لا يمكن الوصول إليها ) ولم تكن إجابة أحد ممن سأهم تساعد على المعرفة سواء عن عمد أو عن جهل . ولم يسمع عن مالفانتي شيء أكثر من ذلك .

والمحاولة الثانية المسجلة لاختراق الصحراء ، قام بها رجل أعمال آخر هو بندوداى Benedetto Dei ممثل بنك بورتنرى الكبير Portinari وكان له إهتمام واسع بالخارج . وكانت فلورنسا قد مدت نشاطها التجارى بعد أن استولت على ميناء يزا عدوتها في أوائل القرن ، وخاصة على طول الشاطئ البربرى حيث حصلت على إمتيازات استثنائية لتجارها . وفي تونس سمح لهم بالإتجار فى الظهير . فاستقر داي فى تمبكتو حيث سمعنا عنه فى سنة ١٤٧٠ يقوم بنشاط طيب فى تجارة الأقمشة ونسج السرج الذى يشبه ما كانت تنتجه لومبارديا . وبالرغم من أن داي عاد سليماً إلى وطنه فهذا كل ما عرفناه عن أول رحلة مسجلة لأوربى إلى تمبكتو .

من الممكن أنه حتى هذا اليوم لم يكن هناك من شيء ظاهر جداً عن رحلته إلى السودان إذ ربما كان هناك من سبق داي إلى هذا العمل .

ولم يكن أصحاب البنوك الأرياء وخدم الذين يدرسون خرائط ميورقة، ويلاحظون أن جنوبى رأس بوجادور مباشرة يوجد نهر ريودورو أو نهر الذهب وهو الذى كان يعتقد أنه كان مسرحاً للتجارة الصامتة<sup>(١)</sup>. فهناك ربما يظن الإنسان أنه كانت هناك مشجعات للملاحين على أن يحاربوا الإرهاب المجهول لبحر الظلمات الأخضر كما أطلق العرب على المحيط الأطلنطى، ولكن كانت الإستجابة يسيرة حتى وقت مجيء البطل البرتغالى الأمير هنرى الملاح<sup>(٢)</sup> ويعود تصميمه على جعل ككشف إفريقيا عمله، الذى وقف عليه حياته إلى سنة ١٤١٥ حين كان فى الخامسة والعشرين من عمره وفتح ميناء سبته، وفى خلال عملية الفتح سمع عن قوافل الصحراء التى تحمل الذهب، وكان قد قرأ عنها فى صباه . وعاد إلى البرتغال مصمماً على العثور على أرض الذهب فى ساحل غانة عن طريق البحر . وأن يحول إلى الساحل تجارة الصحراء الغنية التى ملأت موانئ الساحل البربرى الكثيرة بالسفن المسيحية . ثم فتح طريق بحرى إلى الهند، واكتشاف القس حنا المحوط بالأسرار، ثم تنصير الوثنيين، وكانت هذه هى الأهداف للرحلات التى وجهها، ولكن كشف ذهب غانة كان أهمها جميعاً .

وجمع الأمير هنرى النابهين فى فنون البحر وساعده أخوه دون بدرو

---

(١) استناداً إلى المؤرخ البرتغالى الكبير باروس Barros سعى نهر ريودور بهذا الاسم بسبب أن أول رساله من سر الذهب لغرب إفريقيا جاءت من هناك وربما كان يعنى السفال رغم أن الخرائط المعاصرة وضعتة إلى الشمال قليلاً .

(٢) كانت هناك محاولات سابقة للوصول على ساحل غانة بجزراً ولكنها — على قدر ما نعرف — لم تنجح ، فافريسيون مثلاً لم أن يثبتوا أنهم بين ١٣٦٤ و ١١٤١٠ اكتشفت سفن ديب Dieppe وزوان Rouen ساحل غانة .



Don Pedro وهو رجل كثير الأسفار<sup>(١)</sup> ورسم الأمير خطة الرحلة التي جعلت اسمه مشهوراً والتي جعلت — في موضع الأساس للكشوف العلمية — من الممكن القيام بالكشوف في العالم القديم ثم في العالم الجديد في الجزء الأخير من القرن .

وبسبب صعوبة الملاحة والخوف مما هو غير مألوف، سارت أعمال الكشف بطيئة . ولكن في سنة ١٤٣٤ عاد جيل ايانس Gil Eannes وهو أحد رجال هنرى إلى سيده بياقة من زهور روزمارى جمعها من الأرض التي تقع جنوب رأس بوجادور ، فكان هذا نقطة تحول في تاريخ الكشوف الجغرافية ، فقد أثبت جيل ايانس سخافة الإرهاب الخرافي الذي كان الملاحون يكتونونه لكل ما هو مجهول . فالضباب الذي لا يمكن اختراقه والذي يضطر الملاح الماهر إلى الالتفاف حوله فلا يستطيع ، والشياطين التي تختبئ وراء الأرض منتظرة الناس لتسحقهم ، والنار السائلة التي تذيب الأجسام كل هذه الأشياء ثبت عدم صحتها كما صرح الأمير هنرى مراراً في أحاديثه .

وسار الكشف قدماً بسرعة أكبر . وسارت السفن الصغيرة ذات الخمسين طناً تشق طريقها رويداً رويداً أبعد فأبعد بجوار الساحل . وأظهرت آثار أقدام الرجال والجمالين أن الصحراء أيضاً كانت مسكونة . ثم قبض على بعض طوارق صنهاجة وحملوا إلى الوطن فكان هذا ، مع بعض تبر الذهب ، مشجعاً للأمل في أن أرض الذهب لن تكون بعيدة جداً ، وبعد ذلك بقليل أنزلت سفينة مشحونة بالأسرى حولتها في لشبونة حيث بيعوا رقيقاً، فعلمت

---

(١) يشير الأبحاث الحديثة إلى أن دون ديروكان الصريك الأكر في هذه المحاولة وأن له فضلاً أكثر مما هو معروف حتى الآن .

الأوروبيين كيف تستثمر الأموال باسترقاق الإفريقيين وبذلك بدأت طبيعة الرحلة في التغير .

ومنذ البدء كان الرأي العام في البرتغال معاديا لهنرى، إلى حد أنه وجد صعوبة في تمويل السفن بالرجال . فتغير الآن كل شيء ، وأصبح ضغط المتطوعين كبيراً حتى اضطر إلى صرفهم عنه . وأدى هذا إلى رحلات المخاطرين التي سرعان ما أثبتت أن غارات الرقيق مربحة إلى حد كبير أكثر من الكشف الجغرافي . ولم يجعل هنرى فرص الربح العاجل تستهوى رجاله عن العمل الجدى . وظل يحافظ على اهتمام أمته حيافى أذهانهم . وأكد لهم أن خلاص نفوس الوثنيين هدف من أهم أهداف أعمال الكشف ، وحصل من البابا لتاج البرتغال على كل الأراضي الجديدة التي تكتشف بين رأس بوجادور والهند . وهو الأمر الذى سوف يؤثر كثيراً إلى اقتسام إفريقيا وأمور أخرى فيما يأتى من القرون .

وفي سنة ١٤٤٥ أبحر نونو ترستام Nuno Tristam جنوباً وراء الصحراء ، واكتشف أرضاً خصبة حيث كان الزنوج — الذين كان المسيحيون لا يعرفون عنهم أكثر من أنهم أرقاء لآخرين — يعيشون عيشة حرة . وشك كثيرون في وجود حدود للصحراء . وفي أن اكتشاف أرض طيبة أخرى وراءها قد تعطى ثمراً طيباً لمكتشفها ، أمر يشير الدهشة . وكان الاكتشاف الثانى الهام هو مصب السنغال وقد ظن أولاً أنه النيجر الذى قال هيروودوت وآخرون أنه فرع غربى لنيل مصر . ولذا سمّاه مكتشفوه بالنيل ونقشوا هناك على شجرة ذراع هنرى وشعاره Talent de Bien faire ( موهبة عمل الخير ) ويعلق كاتب الحوليات على ذلك فيقول ( أشك قطعاً فيما إذا كان قد ظهر بعد الإسكندر الأكبر وقصر أمير فى العالم



ذهبت فتوحاته أبعد من هذا<sup>(١)</sup> .

وباكتشاف السنغال وصل البرتغاليون إلى السودان أرض  
المغاربة والزنوج .



(١) ليس اسم غينيا إلا اسم غانة محرفاً، النقطة البرتغاليون من المغرب، والكتاب يرى هذا غير مقبول فاسم غينيا كان مستعملاً في المغرب وأوروبا قبل عهد هنري بحدة ضويلة مثلاً نجد على خريطة رسمها راسم الخرائط الجنوى جيوفاني دي جارنيانو *Gioranni di Garignano* في سنة ١٣٢٠ وكان قد حصل على معلوماته عن إفريقيا من مواطن من سبجلماسة اسم غينيا وكذلك في الأطلس الكاتالاني في سنة ١٣٧٥ نجد أيضاً اسم غينيا *Ginyia* . ونشير عبارة فيليبو إلى غينيا كتعريف لاسم جنى وهو أقل شهرة من غانا، ولكن بالرغم من ذلك اشتهرت في المغرب لمدة قرون بأنها سوق كبير ومركز للعالم . ويقول هذه العبارة ( مملكة غينيا *Ghinea* ويسمى بها تجار أمتنا *Gheneoa* بينما يسميها سكانها جنى *Genni* والبرتغاليون وشعوب أوروبا الأخرى *Ghinea* ولكن يبدو أنه من المحتمل أن غينيا أتت من أجويناو *Aguinaou* وهم اسم يطلقه البربر على الزنوج وكان لمراكش بوابة بنيت في القرن الثاني عشر تسمى بوابة غينيا وهم اسم ظل موجوداً حتى لانتها الملكية الحديثة .

والجنية الذهبي البريطاني سمي بهذا الاسم لأنه سك أولاً في سنة ١٦٦٢ من ذهب استورد من غرب إفريقيا بواسطة الشركة الإفريقية لتجار لندن . ( خطاب من رئيس الكتاب بالشركة الملكية إلى المؤلف ) .





(١٢)

## ليو الإفريقي

في سنة ١٥١٨ استولى القرصان المسيحيون على سفينة عربية خارج جربة جزيرة اكلة اللوتس ، بينما كانت تقترب من الساحل التونسي . وبين من كانوا على سطحها وجد مغربي ذكي ذكاء فوق العادة ، ورغم أن سنه لم يكن قد تجاوز العشرين ، فإنه كان قد سافر كثيرا في بلاد كانت لا تزال مجهولة من أوروبا . ولذا لم يعرض الشاب في أسواق الرقيق ، كما هو المصير المعتاد لجميع الأسرى ، بل حمله القرصان إلى روما وقدموه إلى البابا ليو العاشر . مؤملين أن يحولوه إلى مصير أفضل مما هم مستطيعون أن يفعلوا به في أسواق الرقيق في يزا وجنوة .

وكان البابا ليو العاشر أحداً أفراد أسرة ميديتشي وابن لورنزو العظيم ، وكان قد كسب ثناء معاصريه لأنه احتضن رجال الأدب ، كما كسب احترام خلفائه لرعايته للفنون ، إن لم يكن لشئ آخر - فكل من ادعى ذكاء عقليا رحب به في حرارة بين حاشيته . وبالرغم من ذلك لم يكن هناك ما كان يبدو أقل احتمالا من أن شابا مغربيا يؤخذ من سفينة ، سوف يصبح عضوا مكرما في حاشية البابا ، وأن اكتشاف البابا له بعد مساهمة للأدب والعلوم ، وكان اسم الشاب حسن بن الوزان . ومن المحتمل أنه فضل أن يدعى الفاسي نسبة إلى مركز العلم الذي كان يدين له بتعليمه ، ولما كان الشاب يتكلم الأسبانية فلم يكن من الصعب على البابا بأن يكتشف اتجاهاته الأدبية . وأهم من ذلك كثيراً علمه المدهش بدول إفريقية كان يعلم أن الوصول إليها صعب ، كما لم تكن معروفة للأوروبيين بوضوح ، عن طريق كتابات البكري والإدريسي ، فرد إليه

البابا حريته في الحال كما منحه معاشاً ودفعه إلى اعتناق المسيحية . وفي عماده أعطاه اسمه جيوفاني ليوني ومنه أصبح اسمه ليو الإفريقي .

وعندما أسر ليو الإفريقي هذا، كان يحمل معه مسودة عربية للعمل الذي جلب له الشهرة ( تاريخ ووصف إفريقيا والأشياء البارزة التي احتوتها ) فآمنه باللغة الإيطالية في سنة ١٥٢٦ بعد موت سيده بثلاث سنوات . وفي سنة ١٥٥٠ ، وقع المخطوط في يد راموسيو Ramusio الذي نشره ضمن مجموعته المسماة ( رحلات وأسفار ) ، وترجمه إلى الإنجليزية جون بوري John Pory وهو باحث كان صديقاً لريتشارد هاكليت Richard Hakluyt ونشره في سنة ١٦٠٠ .

ونحن لا نعرف عن حياة ليو إلا القليل فيما عدا رحلاته الإفريقية . فها وهناك من بين أجزاء أعماله نجد مفتاحاً لتاريخه المبكر ورحلاته خارج إفريقيا . ولكنها لا تساعدنا دائماً . فهو يذكر ( أما عن نفسي — فحين أسمع مساويء الإفريقيين يتحدثون بها أأمر أني أؤكد لسامعي أنني أحد أبناء غرناطة ، وحين أسمع شعب غرناطة ينتقد أذكر أنني إفريقي ) فمثل هذه العبارة تؤكد الإضطراب الذي وقع فيه والذي يقع فيه الباحث الذي يريد أن يعرف مولده . ولكن ثبت الآن بما لا يدعو إلى الشك أن ليو ولد في غرناطة في سنة ١٤٩٣ أو ١٤٩٤ من والدين مغربيين ريفيين المنزلة . وكانا من رطايا فرديناند وإيزابلا ، وشهد الحكم المسيحي في أحسن صورة ، وأتى اليوم الذي ستم فيه الكردينال اكسيمنس Cardinal Ximenes عقل إيزابلا بقيادة الهرطقة التي تقول ( إن حفظ العهد مع غير المسيحيين إنما هو كسر للعهد مع الرب ) وعلى ذلك انضم الولد ووالداه إلى قافلة المثقفين المهاجرين الذين غادروا غرناطة إلى فاس وغيرها من المراكز الإفريقية للثقافة الإسلامية وعند وصولهم إلى فاس وجدوا



أنفسهم جزءاً من جالية كبيرة خرجت حديثاً من أسبانيا ، واستقرت في أعداد كبيرة في المدينة وما جاورها .

وكانت مراکش في حالة تدهور سياسي . فقد احتل البرتغاليون جزءاً كبيراً من الساحل آنئذ مؤملين أن يتقدموا منه إلى الداخل . وكان الجنوب في يد أشراف السعديين وكانت فاس على وشك السقوط في أيديهم . وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت فاس لا تزال تتمتع بنشاط تجاري كبير ، وكانت في ذروة شهرتها كمركز للعلم ، وكانت مساجدها ومكتباتها مقصد للطلبة من أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي . فكان لابد أن تكون المقصد الطبيعي للمهاجرين من غرناطة .

ولقي والد ليو نفس الإكرام والمكانة اللذين تمتع بهما في غرناطة ، إلى جانب التسهيلات غير العادية لتأديب ولده على يد أفضل الأساتذة في العالم الإسلامي . ومن هذه الفرص استفاد التلميذ إلى أقصى حد ، وسرطان ما أثبت ذكاه الخارق وبدأ يكسب عيشه في سن مبكرة ، حين حصل على وظيفة إدارية في المارستان ، وهو مكان علاج الأجانب في فاس ، ولكن لم تمض مدة طويلة حتى بدأ رحلاته التي كانت سبباً في شهرته ، وكلما سافر من بلد إلى آخر في المغرب قام بكثير من الأعمال بسبب درايته بالقانون . فعمل في بعض الأوقات قاضياً ولكن في معظم الأحيان كاتباً أو إدارياً للتجار وموظفي الحكومة ، ومن حين لآخر تاجر لحسابه الخاص . وفي أحيان أخرى خدم سلطانه كبعوث سياسي . أو قضى وقته في قرض الشعر وكانت هذه الحياة المتقلبة سبباً في قيامه بمخاطرات ذهبت به إلى حقول بعيدة ، فرحلاته الساحلية والداخلية العديدة في صحبة التجار أذاعت اسمه في طول البلاد البربرية وعرضها وأعطته معرفة واسعة بتجارها .

وتظهر قصة رحلاته في شمال إفريقيا بوضوح أن تجارة السودان لعبت دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية للمغرب، فهناك إشارات كثيرة إلى تجار يقومون بحركة كبيرة إلى أرض الزنوج، ويشير ليو إلى سلسلة من المدن تغطي طول بلاد البربر من المحيط غرباً إلى طرابلس شرقاً كانت تعمل في تجارة عبر الصحراء. ومما هو جدير بالذكر أن أهم هذه المدن مثل فاس وسجلماسة وتلمسان وورجالا وغدامس كانت مدناً داخلية. وكانت التجارة في يد وسطاء منعوا تجار الشاطئ الذين كان المسيحيون يتاجرون معهم من الاشتراك المباشر في الحركة الصحراوية.

وكانت البضائع الرئيسية التي ترسل إلى السودان أوربية ( وخاصة الأقمشة ) وهي السكر من سوس في جنوب مراکش والأواني النحاسية والخيول والكتب، وأهم البضائع التي تبودلت بها هي الذهب والرقيق والزبد. ويشير ليو إلى هدية أعطاها له سلطان فاس كان معظمها يتكون من منتجات السودان : ( أحضر خمسون رقيقاً من الرجال ومثلهم من النساء من أرض الزنوج وعشر خصياناً واثناعشر جملاً وزرافة واحدة وستة عشر قطاً من قطط الزبد ورطلاً من الزبد ورطلاً من العنبر وأكثر من ستائة قطعة من الجلود لحيوان معين يسمونه elant ( نوع من التيتل ) ويصنعون منها دروعهم ، وكل قطعة منه تساوي ثمان دوكات في فاس<sup>(١)</sup> . وثمان العشرين رقيقاً من الرجال عشرون دوكات للواحد ، وهو سعر خمس عشرة من النساء وكل خصي يعادل أربعين . وكل جمل خمسين . وكل قط مائتي دوكات ويباع رطل الزبد أو العنبر في فاس بثلاث أكياس من الدوكات .

---

(١) يصنع الطوارق دروعهم من جلد التياتل ويقال أن قروونه كانت تستعمل أيام الإغريق لصنع الآلات الموسيقية .



ومن حسن حظ الأجيال التالية أن ليو إفريقيا شاهد بنفسه الدول التي كان يجلب منها الرقيق والخصيان والذهب والزبد .

وأهم حادثة في تاريخ ليو في نظر معاصريه — وربما لا تكون كذلك في نظره هو — هي رحلته إلى السودان الغربي ، لأنها مكنته من أن يعطى أوروبا أول تفصيلات تتعلق بداخل إفريقيا ، وكانت معلومات الناس عنه مضطربة حتى لم يستطيعوا أن يميزوا الحقيقة من الخيال . وكثير من المشاهدين المسلمين الثقة كانوا قد زاروا هذا الجزء وسجل بعضهم ما شاهدوه . ولكن ليس في تفصيل يرضى التشوق ، وكان هذا بسبب الإحتقار التقليدي الذي يكنه المسلمون للزنج والبربر الأمر الذي عبر عنه ابن بطوطة وابن حوقل<sup>(١)</sup> وكان ليو دونهما في ذلك وأسرع منهما في التغلب على هذا النقص .

وكانت كتاباته ثمينة إلى حد كبير ، لأنها أظهرت هذا الإقليم عقب وصول دولة صنغاي إلى قمة مجدها الإقتصادية عن طريق فتوحات اسكيا ، وقد سافر ليو إليها عقب فتح جيوشه لها . فكان بذلك قادراً على أن يضيف إلى كتاباته ذات القيمة الجغرافية الكبيرة ، صورة لأعظم النظم السياسية التي حققها الزنج .

وكانت فرصة هذه الرحلة الهامة بعثة كان فيها ليو عضواً ، ورأسها عمه وكان قد أرسله إلى صنغاي شريف فاس مولاي محمد القائم مؤسس دولة السعديين ويبدو أن تاريخها كان ١٥١٠ عندما كان ليو لا يزال دون العشرين .

---

(١) إذا كان ابن بطوطة وابن حوقل قد اظهرا مثل هذا الإحتقار للزنج فليس معي ذلك أن جميع المسلمين كانوا يكنونه . بل هناك أكثر من موضع في التاريخ الإسلامي يشير إلى عكس ذلك . إذ كان بلال مؤذن الرسول حبشياً كما كانت حاصته أم أيمن حبشية كذلك ، وهما حديث عربي يقول : ( لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ) .

( م ١١ - الممالك الإسلامية )

ودار شك كبير حول الطرق التي سلكتها البعثة . لأن ليو — الذي لم ينس قط أنه كان يكتب وصفا لإفريقيا لا كتابا خاصا — يحدثنا قليلا عن تجاربه الخاصة ، ويبدو أنه كان ذا معرفة بطريقين من طرق القوافل الصحراوية ، طريق سجلماسة إلى تمبكتو عن طريق تغازة ، وهو الطريق الذي اتبعته البعثة طبيعيا عند ذهابها ، وطريق اغاديس ثم توات فتلمسان الذي يشير إليه كثيراً ولذا يظن أنه كان طريق عودته .

وبعد أن عبروا اطلس مروا بسجلماسة التي كانت في ذلك الوقت في طريقها إلى التدهور ، ثم أوغلت البعثة في الصحراء وكانت تغازة أول مكان توقفوا فيه لسبب أو لآخر ، ووصف ليو لها سيأتي بعد ولكن يكفي هنا أن نذكر أنه وجدها غير ملائمة إلى حد كبير جداً ، ولذا شكر الله هو وأصحابه حين وصلوا ولاتا في أمان، وتركوا وراءهم أسوأ مخاطر الطريق . وفي ولاتا — التي كانت أقصى مركز لصنغاي في الشمال، قابل ليودعة السودانيين في بلادهم للمرة الأولى . ومعظم الجوابين الأولين في الصحراء سواء من المسيحيين أو المسلمين سجلوا ارتياحهم عندما وجدوا أنفسهم بين الزوج الأصدقاء الذين رحبوا بالغرباء في رقة وسرور مخالفين لتجهم بدو الصحراء وكان ليوم من بينهم حين كتب ( هؤلاء الناس زوج ويبدون الصداقة للغرباء ) .

والطريق الذي سلكته البعثة بعد تركها لولاتة موضع شك ، ولكن يحتمل أنهم ذهبوا مباشرة إلى تمبكتو التي كانت في ذلك الوقت مركز بلاط اسكيا ، ومعنى ذلك أنها المكان الذي تؤدي فيه البعثة مهمتها .

وللرحالة العارفين القادمين من الشمال بدت تمبكتو حقيرة المظهر، فلم تكن المنازل غير أكواخ مبنية من الحجر الجيري مغطاة بالقش . بينما ظهرت المباني التي أقامها الساحلي في تناقض صارخ . ( هناك يوجد مسجد في حالة جيدة حوائطه من حجر الجير ثم قصر لأمير، مبنى هو الآخر بواسطة أرقى صناع غرناطة ) ،



(وهنا أيضاً دكاكين كثيرة لصناع وتجار ، وخاصة مثل ناسجى الاقمشة التيلية والقطنية ، وإلى هناك يجلب التجار البربر أقمشة من أوروبا ، وجميع نساء المنطقة - فيما عدا الخادومات - يسرن بوجوه محجبة يتعن الاحتياجات الضرورية لهن ، والسكان وخاصة القرباء المقيمون هناك كثير و الثراء إلى حد أن الملك الحالى زوج بنتيه إلى تاجرين ثريين . وهناك كثير من الآبار تحوى أحلى المياه . )

(وعندما يفيض نهر النيجر يحمل الناس مائه بواسطة أوانى خاصة إلى المدينة . ويوجد بها القمح والماشية واللبن والزبد فى وفرة كبيرة ولكن الملح نادر هنا ، لأنه يستجلب برا من تغازة التى تبعد خمسمائة ميلا . ولما كنت هناك رأيت حمولة جمل من الملح بيعت بثمانين دو كات . )

( والسكان ذوو طباع رقيقة وطبيعة مريحة . يقضون شطراً كبيراً من الليل فى الغناء والرقص فى كل شوارع المدينة . وهم يحتفظون بعدد كبير من الرقيق نساء ورجالا . ومدينتهم فى خطر كبير من الحريق وفى زيارتى الثانية حرق نصف المدينة فى مدى خمس ساعات ، وإذا استثنينا الضواحي لا يوجد فى المدينة حدائق أو بساتين قط . )

ولم تكن مهمة البعثة مع طامة الناس ، ولكن مع اسكيا الذى لم يأل جهداً — كما تأكدنا — فى أن يجتذب الشريف بثروته وقوته ، فمظاهر الترف والاحتفالات التى أحاط بها الحكام السودانيون أنفسهم تدل ولاشك على التبذير المطلق فى قصر الملك العظيم . ومهما كان الحال لم تبهر ليو هذه المظاهر البراقة أو عظمة القصر فقد كتب يقول :

( للملك الثرى فى تمبكتو أطباق عديدة وصولجانات من ذهب ، يزن بعضها ١٣٠٠ رطلا وله قصر نفخ أجيد تأنيثه ، وعندما ينتقل إلى مكان ما يركب جملا يقوده بعض النبلاء من رجاله ، وكذلك يفعل عندما يذهب إلى الحرب . وكل جنوده يركبون الخيول ومن يخاطب الملك يجب عليه أولاً أن يركع

هند أقدامه ، ويأخذ من تراب الأرض ينثره على رأسه وأكتافه . وهي عادة يراعيها كل من لم يحى الملك من قبل . أو كل من يقدم من السفراء من قبل الأمراء الآخرين ، وهناك ثلاثمائة فارس وعدد كبير من المشاة الذين يرمون بالسهام المسمومة ، يلتحقون بخدمته ولهم دائماً مصادمات مع من يرفضون دفع الضرائب ، وكل ما يأخذونه يبيعونه إلى تجار من تمبكتو . ويربون هنا عدداً قليلاً جداً من الخيول . والتجار ورجال القصر يحتفظون بعدد قليل منها يستعملونها في السفر ، ولكن أفضل خيولهم يؤتى بها من بلاد البربر ، وعند ما يسمع الملك أن تاجراً قدم إلى المدينة ومعه خيول يأمر بأن يؤتى إليه بعدد منها ليختار أفضلها لنفسه ويدفع فيها ثمناً طيباً . )

(وهنا — يستمر ليو فيقول — أن الملك ينفق بسخاء على عدد كبير من الأطباء والقضاة ورجال الدين والفقهاء الآخرين، ويحملون إلى هنا مخطوطات مختلفة من الكتب المكتوبة في بلاد البربر . وهي تباع بثمن أغلى من أى نوع آخر من التجارة وسكة تمبكتو من الذهب بلا ختم أو كتابة عليها ، ولكن فيما هو قليل القيمة يستعملون نوعاً من المحار يجلبونه من مملكة فارس وتساوى أربعائه من المحار دوكات واحداً ، وستة وثلاثون من قطعهم الذهبية زن أوقية . )

وقد وصف ليو مدينة تمبكتو وهي في قمة مجدها ، في وقت كان فيه اسكيا وحاشيته هناك ليسبغوا ثوبا من العظمة غير العادية على المظهر الكالح الذي تقدمه عادة . وبالرغم من هذا فمن الصعب أن نجد في كلمات ليو أى تبرير لمظهر النشاط الذي أمله عليهم صورة العظمة الرومانتيكية . وقد يسمح لنا بأن نشارك ليو إعجابه الظاهر في أن نجد هذا النشاط التجاري والثقافي المظهر الأول للحياة دائماً إلى حد أن يلفت نظره ولكن لا يعترف كما فعل ليقول أن تمبكتو كانت مدينة فخمة . فإن السحر الذي أسبغته أوروبا بشدة لمدة



طويلة على هذه المدينة كان يعود جزئياً إلى بعدها، وإلى اشتراكها الوثيق في تجارة الذهب . وحين زارها رينيه كاييه Rene Caillie بعد ثلاثة قرون، لم يخدع بل كتب ( إنى كونت فكرة مختلفة تماماً عن عظمة ونزوة تمبكتو فلم تظهر لى عند النظرة الأولى غير مجموعة من المنازل ذات المنظر الكئيب مبنية من التراب ) ومازال هناك من لا يستطيع أن يكتب عن تمبكتو بدون أن يعتريه حزن هستيرى .

وأقلع ليو عن تمبكتو بطريق النهر إلى ميناء مجاور هى كبارا Kabura حيث قابل شقيق اسكيا الذى كان أسود اللون ولكن أكثر إدراكاً ما إذا كان تخميننا عن سفره صحيحاً ، فقد أبحر إلى جنى ونيانى التى قال عنها كالعادة أنها مالى .

وفى الوقت الذى زارها فيه ليو، كانت جنى قد أصبحت واحدة من مدن صنغاي منذ عدة سنين، ولكن أهميتها كسوق ومركز للعلم قد قاست قليلاً . فبعد قرن تقريباً ، كان السعدى لا يزال قادراً على أن يصفها بأنها أحد أسواق العالم الإسلامى الكبيرة ، حيث يستطيع الإنسان أن يلقى تجار الملح من تغازة، وهؤلاء الذين حملوا الذهب من مناجه فى بيتو Bitu<sup>(١)</sup> . ووجد ليو جنى مليئة بالشيلم والأرز والماشية والسمك والقطن . فيخبرنا ( يبادلون قطنهم إلى التجار البربر بأقمشة أوروباً والأوانى النحاسية والدروع ومثل هذا من السلع الأخرى . وسكتهم من ذهب دون طابع عليها أو كتابة ) .

ووجد ليو أنه بالرغم من أن اسكيا كان قد اضطهد ملك مالى إلى حد أنه ( كان قادراً بالكاد على أن يحافظ على عائلته ) وبالرغم من ذلك كانت هناك ( قرية كبيرة تحتوى على ست آلاف عائلة أو أكثر وتسمى مالى . التى بها تسمى المملكة كلها ، وهى مقر إقامة الملك والمنطقة تنتج كثيراً من

---

(١) كانت ريدينواس اسما آخر لاندوكو Bonduku وهى منطقة فى شمال الأسانى

القمح واللحم والقطن . وهنا كثير من الصنائع والتجار في جميع الأمكنة .  
والملك يرحب بجميع الغرباء في كرم والسكان أترياء . ولهم كثير من الصناعات  
وهنا أيضاً كثير من المساجد ورجال الدين والأساتذة . والعلماء يقرأون  
محاضراتهم في المساجد فقط لأنه ليس لهم كلية قط ، وشعب هذا الجزء يفوق  
زنوج الأجزاء الأخرى في الذكاء والمدنية والصناعة .

ومثل كل مستكشفي السودان من المسلمين أوالمسيحيين سواء وصلوا إليه  
عن طريق الصحراء أو بالطرق الخطرة القادمة من ساحل غانة أخذ ليو  
تدريجياً بمرح السودانين .

وأبحر مرة أخرى عن طريق النيجر واتجه إلى صنغاي الشرقية ولا بد  
أنه مر بتمبكتو في طريقه . فوجد جاو عاصمة اسكيا ( مدينة كبيرة  
غير مسورة ) .

( ومبانيها حقيرة سوى ما يقطنه الملك وحاشيته، فهنا التجار فائقو الثروة .  
وهنا دائماً مصدر لعدد كبير من الزنوج يشترون الأقمشة القادمة من البربر  
وأوروبا . كما أن هناك يباع الرقيق وخاصة في مثل هذه الأيام التي يجتمع فيها  
التجار وحيث يباع الرقيق الشاب ذو الخمس عشرة سنة بستة دو كات، وكذلك  
الأولاد يباعون . وملك هذه المنطقة له قصر خاص يحتفظ فيه بعدد من النساء  
والرقيق يحرسهم الخصيان ، وللمحافظة على شخصه يحتفظ بفرقة من الفرسان  
والمشاة . ومن المدهش أن نرى كثرة التجار الذين يقدمون يومياً إلى هنا  
وارتفاع أثمان جميع البضائع، فالخيول المشتراة من أوروبا بعشر دو كات تباع  
ثانياً بأربعين وبعض الأوقات بخمسين دو كات للحصان الواحد . وأقمشة  
أوروبية خشنة لا تباع بأقل من أربعة دو كات للقطعة الواحدة ، أما إذا كانت  
جميلة نوعاً فإيهم يدفعون فيها خمسة عشر دو كات، والقطعة القرمزية من البندقية  
أو تركيا تساوي هنا ثلاثين دو كات . والسيف يسوم بثلاث أو أربع قطع



ذهبية وكذلك الحراب والسروج والسلع الأخرى . ويبيع البهار بسعر مرتفع ، ولكن الملح أغلى من كل ماعداه فهو غالى الثمن جداً .

ووجد ليو الذهب متوافراً في جاو إلى حد أن الأهالي لا يستطيعون أن يبيعوا كل ما أحضروه معهم إلى السوق فيعودون بكثير منه<sup>(١)</sup> .

وأكمل ليو رحلته شرقاً . فأتى إلى بلاد الهوسا التي كان اسكيا قد فتحها حديثاً — وإلى جوبر حيث شاهد شيئاً من صناعاتها التي اشتهرت بها الهوسا فكتب يقول (هنا مخزن كبير للصناع ونساجي التيل وكثير من الأحذية المصنوعة على مثال تلك التي كان يصنعها الرومان الأقدمون . والناس متعودون على لبسها ، والجزء الأكبر منها يحمل إلى تمبكتو وجاو) والعبارة التالية تصف بذر الأرز كما هي الآن في سكوتو وكبي وستكون موضع تقديرنا حين نصل إلى أثر أعمال ليو على خريطة أوروبا .

واستمر ليو مسافراً نحو الشرق فمر بعد ذلك بأربع من ممالك الهوسا هي زمفارا Zamfara و كاتسينا Katsina و كانو Kano و زاريا Zaria ، فوجدها جميعاً قد تخربت من جراء غزو صنغاي الحديث لها ، تسحقها الضرائب التي فرضت عليهم ، ولأجل أرغامهم على الدفع أرسل اسكيا حكاماً ظلموا الناس وأفقرهم ، وهم الذين كانوا اثرياء من قبل . حقا ان بلاد الهوسا كانت دائماً غنية ، وكان غناها هذا على حساب النشاط غير العادي للزراع والصناع والتجار أكثر مما هو على حساب خصوبة التربة رغم أنها موضع التقدير .

ويذكر ليو أحد ملوك الهوسا الذي ( ذبح في أيامى بواسطة اسكيا ملك تمبكتو وأخذ أولاده ليصبحوا من بين خصيان الملك العديدين . والجزء الأكبر من السكان حملوا إلى حيث استرقهم الاسكيا المذكور ) ، وذبح أيضا

---

(٢) هذه العبارة حذفها من النص الإنجليزي Pory واسكنها موجودة في الترجمة

الفرنسية التي قام بها تيمورال Temporal

أمراء كاتسينا وزاريا وزمفارا، ولكن أمير كانو كان أسعد حظا. إذ لم يسلم إلا بعد مقاومة جبارة، فأمن له احترام الفاتح ومنح شروطا كريمة، فقد سمح له أن يحتفظ بشعبه على أن يدفع ثلث الضريبة لأسكيا، وطلب منه أن تزوج بأحدى بنات اسكيا، وهو شيء نظن أنه كان تحية له.

وتابع ليو رحلته إلى الشرق أيضا فاتجه إلى بورتو التي لم تصلها جيوش صينغاي، وهي تقع في الطرف الجنوبي لطريق جارامانتس القديم إلى السودان. وأقل معابر الصحراء وعورة. ولذا يظن أنها لم تفقد اتصالها تماما بأسواق الشمال. وبالرغم من هذا كان معظم تجارتها مع الساحل البربري أيام ليو في الخيول. ورغم أن الذهب كان وفيرا إلى حد أن جعلت سلال الكلاب الملكية من الذهب، فقد صمم أهلها على أن يدفعوا ثمن الخيول رقيقا، وكان أكثر مما يحتاجون إليه بسبب كثرة حروبهم مع جيرانهم الضعفاء. فكانوا يدفعون خمسة عشر أو عشرين رقيقا للحصان الواحد. ولكن التجار البربر كانوا يفضلون الذهب أكثر من كل شيء. وفي الأيام الأخيرة قدموا من أجل الرقيق فقط ولم يكونوا يتاجرون في شيء آخر. ولم يكن فياوراء عن بورتو ما يجذبه. فبدأ رحلة العودة نحو الشمال ومن المحتمل أن تكون عن طريق أغادس.

وفي النصف الأول من القرن السادس عشر كانت أفكار الناس مشغولة جداً بالحوادث المثيرة التي كانت أبعد ما تكون عن إفريقيا. فقد ختم القرن باكتشاف كولومبس للعالم الجديد، وكذلك بكشف طريق بحري جديد إلى الهند والشرق الأقصى بواسطة فاسكو دي جاما، وأعطى الكشف الأول إمكانيات واسعة لم تكن في الإمكان حملها، وبدأ الثاني كمصدر ربح واسع أكيد. وفي مدى خمس سنين اتسع أفق الإنسان المتمددين إلى حد وجد معه أنه من المستحيل أن يلم به، ولكن هذا لم يكن كل شيء. فقد افتتح القرن الجديد باكتشاف البرازيل وإلقاء النظرة الأولى على المحيط الهادئ. وتأسيس إمبراطورية برتغالية في الهند وإتمام وأول رحلة حول العالم.



حدث كل هذا فيما بين مولد ليو و كتابته عن رحلاته في إفريقيا ، وهي التي تقارن بالحوادث الجغرافية الكبيرة التي عاش خلالها . وبدأت له ولغيره كأنها من الحوادث الصغيرة . فلا يدهشنا إذن أن ظلت قصته مجهولة تماماً حتى نشرها راموسيو في منتصف القرن . وقبل نهاية القرن طبع كتاب راموسيو (رحلات وأسفار) عدة طبعات وأصبح ليو معروفاً .

وفي نفس الوقت كان راسمو الخرائط يعيدون رسم خريطة إفريقيا على ضوء روايات ليو، وظل هذا الاعتماد قائماً وكاملاً إلى وقت مجيء منجوبارك Mengo Park وغيره من مستكشفي إفريقيا لقرنين، ولسوء الحظ هذه العمل العظيم الذي قام به راسمو الخرائط بأخطاء جسيمة حتى لا تستطيع تقديم عذر لها وكانت أخطاء عظيمة لا تصدق .

ذكر هيرودوت أن نهراً يسير من الغرب إلى الشرق . يقسم إفريقيا كما يقسم الدانوب أوروبا، واعتقد أنه النيل الذي ذكره بليني ويطليموس . وفي القرن العاشر كان ابن حوقل أول من زار السودان من الجغرافيين العرب وأكد عبارة هيرودوت أن النهر يسير إلى الشرق . وبعد قرنين ذكر ذلك الإدريسي العظيم الذي لم ترعيناها النيجر، ويبدو أنه خلط بينه وبين السنغال حين قال أنه يسير إلى الغرب، وفي القرن الرابع عشر استطاع ابن بطوطة أن يصرح أنه رأى النيجر يسير إلى الشرق . ولكن الإدريسي كان محترماً كثيراً إلى حد أن كثيرين فضلوا ما رواه هو عن طريق غير مباشر ، على ما رواه غيره عن تجاربهم الشخصية . ومن هنا اعتري الناس شك كبير فضلوا عن الصواب . وكان لدى ليو الفرصة أن يبدد هذا الشك فينكشف معه أقدم أسرار العالم الجغرافي ، ولكنه بكل أسف فشل أكثر من الفشل حين كتب أن ( النيجر يسير نحو الغرب إلى المحيط . وقد أبحرنا فيه مع التيار من نمبكتو إلى جنى ومالى ) .

ليس هناك من تفسير مرض لهذا الخطأ الذي وقع فيه ليو حين ذكر أنه

ركب مياهه لخمسة ميل أو أكثر . وربما دفع إلى هذا الخطأ عن طريق من وصفوا العالم من الرومان الذين ( كما نخبرنا ) ظنوا أن النيجر فرع من النيل . والذين كما نعتقد لا يرضون أن تهز ثقتهم بالإدريسي عن طريق شاب مغربي أسير، ومهما كان سبب هذا الخطأ الجسم فقد استمر راسمو الخرائط يجعلون النيجر يجري غربا إلى أن ثبت خطأ ليو وذلك يوم سيجو الكبير في سنة ١٧٩٦ حين أكد منجو بارك إنه يسير نحو الشرق .

وليس كتاب ليو ( تاريخ ووصف إفريقيا ) مدونة يومية . ولكن كما يذكر العنوان وصف لممالك إفريقيا اجتاز المؤلف معظمها . وهو يكتب لقراء يبحثون عن معلومات عن إفريقيا لا لرسمى الخرائط، وعلى ذلك حين بدأ الآخرون عملهم في النص لم يجدوا دائما ترجمته عن أغراضهم سهلة . فبعض العبارات كانت تقرأ بطرق مختلفة بواسطة راسمين مختلفين ، وقلة الوضوح في النص شاركت في الأخطاء . ولكن اللوم يقع كله على صانعي الخرائط .

ذكر ليو أن في إمارة جوبير Cobir التي هي من بلاد الهوسا، كثير من الأرز وفي مدة فيضان النيجر تغطي كل حقول المنطقة بالماء وحينئذ يبذر الناس الحب في الماء فقط فأخذ راسمو الخرائط ذلك ليفسروه بأن في جوبير مستنقعات واسعة بينها تراميزينو Tramizino على خريطةه aigritis Palus فبدأوا حينئذ يشتبهون في أن العبارة التي في ( ليو ) تشير إلى بحيرة كبيرة كان قد أشار إليها في قرن سابق ديجو جومز Diego Gon-z أحد قواد هنري البحريين في مكان ما في غرب إفريقيا وربما كانت في ذهن من أخبره عن البحيرات الكبيرة . ديو وفاجبين Debo & Fagbine اللتين في شمال تمبكتو . وإذا بدأنا بخريطة جياكونو دي كاستالدي Giacono di Casteldi في سنة



١٥٦٤ نجد بحيرة كبيرة أطلق عليها اسم بحيرة جوبر Lago de Guber تبدأ في الظهور على الخرائط وظلت كذلك حتى نهاية القرن الثامن عشر<sup>(١)</sup>.

ليس هناك من شيء أقل عدلا لليوم من أن نحكم عليه بما فعله راسمو الخرائط بنصه، فكتابه ( تاريخ ووصف إفريقيا ) كان صورة لمعلومات أخذت لمدة طويلة وليس لها بديل لقرنين ونصف لكل من اهتم بإفريقيا كما هو اليوم في حقل الدراسات التاريخية الضيق . فإذا غضضنا النظر بعطف عن خطئة المدهش عن مجرى النيجر فليس هناك من نقد لكتابه . من إشارته المتواضعة إلى بليني حين قال ( أنه أخطأ قليلا في بعض التعليق على الأمور المتعلقة بإفريقيا وهي عمل أقل من أن يشين جمال عمل عظيم كهذا ) .



---

(١) كانت البحيرة تسمى أحيانا سيجسمس Sigisnes وأحيانا أخرى جواردي Guardé، ولكن لماذا لم تشرح في كل الحالتين. قد أطلق بلاو Blaeu في سنة ١٦٥٩ سنكس Senex حوالى ١٧٠٠ اسم سيجسمس على نصف البحيرة وعلى النصف الآخر جواردي. بينما ملك فير Fer في سنة ١٦٩٨ ومول Moll في سنة ١٧١٠ حاسة ناقدة أكثر من سابقة وربما ظنا أنه من الأفضل أن يقتربا من لبو فأعطى الأول اسم Mansis de garde والآخر Bogs & Monsses de garde وبين دانتي Danville وروبرت Robert في خريطةهما في سنة ١٧٧٠ البحيرة ولكن لم يعطيا لها اسما .





شكل ٤ - خريطة إفريقيا كما ظهرت في كتاب وصف إفريقيا الجديد للإمام ابن بطوطة سنة ١٣٦٥



## مولاي احمد المنصور

١٥٧٨ — ١٦٠٣ ( ٩٨٦ — ١٠١٢ هـ )

ليس ليو مديناً بشهرته إلى أسفاره التي لا تعتبر غير عادية لرجل مغربي، ولكن لما كتبه عن الممالك التي زارها . فعباراته الحية لم تكن مثيرة لمواطنيه ( لأنهم — بخلاف المسيحيين — كانوا يعرفون كل شيء عن هذه الممالك البعيدة التي وصفها ) ولم تأتهم زيارة ليو بجديد كانوا يجهلون في وقت كانت فيه التجارة عبر الصحراء على قدر من النشاط لم تبلغه من قبل .

ففتوحات إسكيا العظيمة أمدت صنغاي بثروة هائلة . فأملأكم الواسعة التي امتدت من الغابات المطيرة في الجنوب إلى الصحراء في الشمال . ومن الهوسا شرقاً إلى المحيط غرباً كانت لها مواردها الطبيعية التي تفيض عن حاجتهم . فالتربة الخصبة التي يقوم بزراعتها فلاحون دائبو العمل تحت ظروف مناخية مختلفة اختلافاً كبيراً . ومناطق السفانا الممتدة التي تكفي قطعانهم الكثيرة العدد من الماشية والماعز والضأن . والعديد من الأنهار والبحيرات المليئة بالأسماك، كل هذا أمدهم بكيات لا تنفذ من مختلف الطعام ، ولأجل إرضاء مطالبهم الضرورية الأخرى كان عندهم أيضاً عدد من الصناعات من أصحاب المهارة يصنعون ما يطلبون من ثروتهم المعدنية الفضة . فهم لم يشعروا بالنقص قط بل كان لديهم أيضاً فائض كبير من الذهب والرقيق . وهم يستطيعون أن يمتلكوا كيات غير محدودة من الذهب ماداموا يسيطرون على موارده الرئيسية ، وكذلك من الرقيق ماداموا يستطيعون أن يغيروا على جيرانهم الضعفاء ليحصلوا على كل ما يريدون .

وكان استثمارهم لهذه الثروة الهائلة يهدف إلى طلب مزيد من الرفاهية

وهي تعني لصنغاي بضائع البحر المتوسط ، وبما انصب بصفة مستمرة من الضرائب إلى جاو وتمبكتو استطاع الصنغاي أن يتاجروا مع المغرب على نطاق لم يكن قبل ذلك مستطاعا للشعب السوداني ، حتى ولا لماندنجو مالى أيام منسا موسى ، إذ لم يحسج الشمال مطلقاً من قبل إلى مثل هذه الكميات من الذهب والرقيق . فبصفة مستمرة كانت قوافل الصحراء تعمل في حركة دائبة لم تشهد لها من قبل . واستقر على طول الساحل الشمالى لإفريقيا كما نخبرنا ليو — تجار يتاجرون مع السودان وفي كل مدينة سودانية طاش مغاربة مغتربون ويهود انهمكوا في نفس هذه التجارة .

وفي نهاية القرن السادس عشر . حين كان الذهب لا يزال ينصب دون قيد إلى المغرب وحين كانت قصة ليو عن الممالك الغنية في قلب إفريقيا لا تزال تقرأ على نطاق واسع في أوروبا تسلم المغرب فجأة مزيداً جديداً غير منتظر بتاتا من هذه الثروة .

ولا يروى لنا التاريخ كثيراً بما يعادل النكبة التي نزلت بالبرتغال في سنة ١٥٧٨ في موقعة القصر الكبير . فقد جرحهم إلى الحرب مع مغاربة مراکش ملكهم الصغير ذو التجربة اليسيرة . دون سباستيان Don Sebastian ولم تكن هناك ظروف محيطة بالملك تدعو إلى الفشل ألا وهي متوفرة ولكن عظم النكبة التي تلت فاقت أقصى الاحتمالات . ففي مدى ست ساعات في يوم من أيام أغسطس الحارة . أيدت قوة برتغالية بلغت ستة وعشرين ألف رجل ، ولم ينج من الموت أو الأسر إلا أقل من مائة ولكن لم يكن هذا كل شيء في نكبة البرتغال .

فالى جانب فقدتها لزهرة شبابها ، انتقلت سيادتها إلى أسبانيا كما انتقلت إمبراطوريتها الضخمة إلى يد فيليب المتعصب القاسى . هذه كانت نتائج المعركة المباشرة التي نظر إليها ادوارد كرىزى E ward Crasy ،



ولم تغير معركة القصر مجرى التاريخ في أوروبا فقط ، بل انتشرت نتائجها إلى إفريقيا وامتدت إلى الصحراء ومدت يدها المملوطة بالدماء من فاس إلى النيجر وما وراءه .

وكان بين قتلى المعركة قائدا الجيشين دون سباستيان وعبد الملك شريف فاس . وليس أول نتائج المعركة المفجعة المرض المميت الذى أصاب الشريف الذى لم يعد يستطيع الجلوس على جواده فأدرك إنه رجل ميت . بل مات فى لحظة النصر بعد أن عين أخاه الأصغر خليفة له وهو مولاي أحمد الذى لم يكن قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره وأضاف الشريف الجديد إلى اسمه لقب المنصور .

وقد كسبت الحرب للمغاربة صيتاً فى العالمين المسيحى والإسلامى . فاق كل ما تمتعوا به من قبل بل لم يبلغوه من بعد . وبالرغم من هذا . بدأ المنصور عهده مثقلاً بالمشاكل . كانت المملكة منقسمة ، كما كانت دائماً إلى جماعات مستعدة لأن تنصر أى واحد من الثلاثة أو الأربعة الذين يدعون العرش ، والذين يستندون على إدعاءات أقوى من إدعاءات المنصور نفسه . ولذا لم يرحب الناس بارتقائه العرش وكل الفخر الذى كسب من هزيمة المسيحيين انصرف عن حق إلى أخيه المتوفى . ولذا أنكروا عليه النصر التى يتمتع بها كل بطل شعبى . وأصبح ظاهراً أن الاضطراب — الذى كبجته يد أخيه الحازمة — قد يذبت إلى نار فى أى لحظة ، فلم يكن هناك إلا قلة يستطيع أن يثق بهم . أقلهم سكان العاصمة . لأن القاسيين كانوا يكرهون بيتهم المالك .

وكان هناك من الأخطار الثقيلة ما يثقل عقل المنصور . إذ لم تكن أوروبا لتسمح أن تمر هذه الهزيمة دون انتقام ، وكانت الأداة المحتملة للانتقام المسيحى جاره القوى فيليب ملك اسبانيا الذى لم يكن يفصله عنه إلا أميال

بحرية يسيرة . وكان الأتراك في الجزائر أقرب من ذلك . وما زالوا يحقدون على المغاربة مقاومتهم القوية للانضمام إلى الإمبراطورية العثمانية . وكان الحقد بملأ نفوسهم من أجل الانتقام للهزيمة الساحقة التي نزلت بهم في ليبانتو منذ سبع سنين ليس غير . ولذا لم يكن هناك من هلع للنصر الكبير ، بل في كل مكان كمن الخطر الذي يهدده .

وبالرغم من هذا بدأت الوفود المختلفة من الرسل المهنتة تصل حاملة معها الهدايا الثمينة . ولكن معها أيضاً معاول الهدم ، وكان أولها من باشا الجزائر. وثانيها من البرتغال تطلب فك الأسرى ، وكذلك سفير وايم أورانبج الذي دخل بعض رعاياه في خدمة سباستيان ثم إليزابيث ملكة إنجلترا التواقة لأن تواصل التبادل غير المشروع للسلاح ، مقابل ملح البارود المراكشي ، فقد أرسلت سفيراً ، ولكن مما يدعو إلى الدهشة أنه لم يكن يحمل من الهدايا ما هو جدير بالتسجيل . ومع ذلك كان هناك في القصر من يحبذ عقد معاهدة بينها وبين المنصور . وحمل سفير فرنسا هدية نفخة وهو يأمل عقد معاهدة صداقة بين المغرب والملك الخائن هنري الثالث الذي كان يعيش دائماً بعيداً عن أي حليف معاد لأوروبا المسيحية<sup>(١)</sup> . ولقى سفير ملك اسبانيا الإكرام أكثر من أي سفير آخر . وكانت هديته حجراً من الزمرد في حجم اليد وزمردة في حجم التفاحة . وكية كبيرة من اللؤلؤ وجدها المنصور مرضية ومؤكدة لهذه الصداقة ، وكان السفير التركي أقل الجميع نصيباً من الترحيب ، إذ ظل ينتظر المقابلة وقتاً طويلاً مما جعل السلطان مراد لا ينسى هذه الإهانة ، وبينما كان المنصور لا يزال يعتبر نفسه حاكماً قوياً مكتته بضعة إجراءات سعيدة من أن يظهر حزماً أدى إلى تقوية مركزه شيئاً

---

(١) كانت أوروبا في ذلك الوقت تعتبر مجرد تحالف ملك مسيحي مع ملك مسلم خيانة للعالم المسيحي ولم يكن حال العالم الإسلامي بأفضل من ذلك .



فشيئاً . وقبل أن تمضى مدة طويلة أصبح مركزه على العرش قوياً إلى حد لم يعد هناك ما يهتم به أو ينحشاه ، ولم تكن الشؤون الخارجية أقل من ذلك أثراً إذ صرت الأيام دون هجوم من أى ناحية سوى حملة تركية فاشلة استدعاه مراد قبل أن تصل هدفها في مراكش ، وأصبح من الواضح أن خطر الاعتداء الأجنبي قد أصبح أقل مما كان يظن .

وأصبح المنصور قادراً على أن يتمتع بشمرات النصر منذ أن تخلص عقله من القلق الذي كان يتمثل في فدية الأسرى المسيحيين ، ولم يكن هناك من يجيد حساب ذلك أفضل من المغاربة أصحاب التجربة الفريدة في غارات القرصان . وليس من الممكن أن نحسب مقدار هذه الفدية ولكن ظلت خزائن الشريفين تفيض بالذهب الأجنبي لعدة سنين . إذ بعد أن بلغوا أقصى التبذير في الداخل كان هناك من الذهب ما يكفي لأن يسد المطالب المالية للملوك المسيحيين المحتاجين . ومن بين هؤلاء كان ملك فرنسا والدون انطونيو المطالب بعرش البرتغال والذي أعطى ما يريد بفضل الحاح الملكة اليزابث .

وتركز أسراف المنصور الشخصي أكثر ما يكون على بناء قصر كبير متسع نخم في مراكش ، استخدم فيه آلاف من المسيحيين . وقدمت السفن الكثيرة تحمل من الهند أثمن مواد الشرق لتزيينه . وأمدته إيطاليا وإيرلندا بالرخام اللازم لآلاف الأعمدة<sup>(١)</sup> وأحيط القصر بحدائق ضخمة تتناسب مع فخامة الداخل حتى أصبح (البديع) كما أطلق عليه بعد ست سنين من المعركة في مظهر صورة من العظمة لا تضارع<sup>(٢)</sup> .

---

(١) استناداً إلى العفرائي كان الإيرلنديون يبادلون الرخام في مراكش بما يوازي ثقله من السكر .

(٢) دمر قصر البديع أو دار البديع مولاي اسماعيل في سنة ١٧٠٧ .

( ١٢ - الممالك الإسلامية )

وبالرغم من أن علاقات الشريف بجيرانه ظلت علاقات صداقة ، فإن الاستعدادات للحرب ظلت تشكل حاجة ملحة ، فالأتراك كانوا في داخل قلوبهم يكونون العداء كما هو دأبهم . والقوى المسيحية . فيما عدا فرنسا - أعداء دائمون للإسلام لا يوثق بهم مطلقاً ، وكان فيليب يلح دائماً من أجل المطالبة بميناء لاراش الصغيرة التي تطل على المحيط وهي الحارسة الطبيعية للطريق الغربي المؤدى إلى المضيق . وادعى هذا الميناء أيضاً الأتراك وكذلك فرنسا والأراضي الواطئة . فكانوا جميعاً يكونون اهتماماً سيئاً بمستقبلها . وأكثر من ذلك كانت هناك إشاعة أن إنجلترا كانت تملك خططا تحوم حول الميناء الجنوبي موجدور ما داموا في احتياج إلى السكر الذي كان مادة تجارتهم مع المغاربة .

تحت كل هذه الظروف استمرت رغبة المنصور الرئيسية في المحافظة على جيشه دائماً على أهبة الحرب ، وحصل عبد الملك على الخشب لسفنه والسلاح اللازم لجيشه من الزبائب العاهلة المسيحية الوحيدة المستعدة لتحدي الحظر البابوي على التجارة مع المسلمين في المواد الحربية . وقد فعلت ذلك فقط من أجل حاجتها الملحة لملح البارود اللازم لصنع الذخيرة ، والذي كانت تحصل عليه فقط من المغاربة — وبالرغم مما فعلته لإخفاء دورها في هذه التجارة غير المشروعة ، فقد عرف بها فيليب . وملأت المرارة قلبه حين تحطم الجيش المسيحي في موقعة القصر بواسطة أسلحة مستوردة من إنجلترا . ولذا اعترض بشدة عندما علم برغبة الزبائب في إعادة العلاقات التجارية مع المنصور ، إلى حد أن اضطّر الشريف إلى رفض طلبها . ولكن عودة التجارة كانت رغبة ملحة لدى المنصور من أجل تزويد جيشه بالسلاح وكانت تعادل رغبة الزبائب في الحصول على ملح البارود ، ولم تمض مدة حتى عرفت اسبانيا وكل العالم المسيحي أن المغاربة يحصلون على حاجتهم من خشب السفن من إنجلترا وكذلك كرات المدافع والمجاذيف بل وأشرعة السفن التي لم تصنعها من قبل .



وفي نفس الوقت . كانت الرغبة في الحصول على هذه المواد الحربية من أجل الدفاع عن مراکش آخذة في النقصان . فإن الحملات على فارس والإضطرابات الداخلية كانت منهكة لقوة الأتراك ، حتى أصبح من الواضح أن لا خطر منهم في القيام بمخاطرة أجنبية جديدة . أما في المواطن القريبة فإن اتحاد عرشى أسبانيا والبرتغال لم تكن له من العواقب ما انتظرها العالم كله ، والثورة في الأراضي الواطئة كانت تبدو أقل انها كالفليب كما أنهكت الحرب الفارسية قوى تركيا ، وعلى رأس ما واجه فيليب بركان الحرب مع اليزابث . ولذا لم يكن هناك ما يخشاه من أسبانيا أكثر من الأتراك . ولذا بدلا من تنقص مطالب المنصور من اليزابث فإنها أخذت في الزيادة .

وكان سبب ذلك سر احتفظ به جيداً . فباستقرار العرش وزوال خطر الإعتداء الأجنبي، كان الشريف يخطط من أجل استعمال جيشه في عملية جديدة مدهشة . فقد صمم على أن يغزو السودان ويسلب الصنغاي الجلاء مصدر الذهب الذي كان ينصب على المغرب في هذا الفيض الكبير . وإمكان القيام بهذا العمل لاشك قد جالت بخواطر المغرب قبل ذلك ، كما جالت بخاطر الأمير هنري في قرون سابقة . فبعد سنين طويلة من محاولات أجيد تخطيطها ، ولكنها غير مثمرة عرف البرتغاليون أنه من العبث الوصول إلى حقول الذهب عن طريق البحر فصمم المنصور على أن يصل إليها براً . وكانت مخاطرة جيش في طرق صحراوية تنتثر عليها عظام الإنسان والحيوان التي تتركها قوافل التجارة الصغيرة تبدو لكل العقول ضربا من الجنون . ولكن المنصور كان قد فكر في المخاطرة أكثر مما وزنها وقدرها .





## تغازة

كان التبادل الصامت مع شعب غير منظور ، ثم جهاد شعب غير منظور في أن يرحل مع ذهبه بأي شيء إلا الملح ، هي المميزات البارزة لتجارة الذهب في غرب إفريقيا ، هذه المبادئ الأساسية التي أملاها شعب مجهول بدائي إلى أقصى الحدود لا بد أن تقبل دون أي سؤال يديه كل من دخل في هذه التجارة . كانت هذه هي القيود التي حددت أعمال الوسطاء السودانيين أصحاب الامتياز الذين كانوا يعرفون أين يذهبون من أجل تجارة الذهب وكيف يتعاملون حين يصلون إلى هناك وإلى التجار البربر الذين ينتجون الملح الضروري الذي كانت تغازه هي المصدر الرئيسي له . بل اقتربت لتصبح الوحيد لأن ملح البحر الذي هو البديل الوحيد، لم يكن يمكن الحصول عليه في الداخل . وبالرغم من مركز تغازه المسيطر في تجارته والتي أترى منها كثيرون، واشترك فيها كثيرون آخرون ، فإنه لم يكن لها تاريخ سياسي . فقد جرت في إنتاج الملح لا تزعجها الصحراء ولا السياسة .

ولا بد أن نجد أن الإضطراب السياسي في مكان هام جداً للتجارة كثيراً ما يشير الرغبة الشديدة لأمم كثيرة في إمتلاكه، ولكن لم تكن دوافع المنصور هي الرغبة في أن يضع حداً للهدوء التقليدي لتغازة ، وقبل أن نبعث عن الأهمية السياسية لما حل بها فجأة وعلى غير إنتظار ، يحسن بنا أولاً أن ننظر ما كانت عليه أحوالها من قبل . ومن حسن الحظ أن ابن بطوطة زارها

كما وصفها كل من ابن بطوطة وليو الإفريقي .  
 ففي القرن الرابع عشر — استناداً إلى كتابات ابن بطوطة — كانت  
 تغازة ( الأخير فيها — بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من  
 جلود الجمال ولاشجر بها . إنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض .  
 فيوجد منه ألواح ضخام متراكبه كأنها قد نحتت . ووضعت تحت الأرض ،  
 يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح  
 ويتعيشون مما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن  
 انلى المجلوب من بلاد السودان ، ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها  
 الملح ويبيع الحمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية ، وبمدينة مالى بثلاثين  
 مثقالا إلى عشرين وربما انتهى إلى أربعين مثقالا ، وبالملاح يتصارف السودان  
 كما يتصارف بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعاً ويتاعون به وفي قرية تغازي  
 على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر . وأقمن بها عشرة أيام  
 في جهد لأن ماءها زطاق وهي أكثر المواضع ذباباً ومنها يرفع الماء لدخول  
 الصحراء التي بعدها ) .

ويصور ليو الإفريقي — وكان قد مر بتغازة في طريقه إلى السودان —  
 صورة أوضح لهذه المنطقة المعزولة ولبؤس سكانها فيقول :

( في هذه المنطقة مخزن كبير للملاح يحفر إليه، وهو هناك أئمن من المرم .  
 وهذا الملاح يؤخذ من كهف معين أو حفر تقع عند مدخلها أكواخ من  
 يعملون في مناجم الملاح . ولما كان هؤلاء العمال جميعاً من الأجانب فإنهم  
 يبيعون الملاح الذي يستخرجونه إلى تجار معينين يحملونه على جمال إلى  
 مملكة تمبكتو حيث الملاح نادر ندرة شديدة . ومستخرجو الملاح ليس عندهم



أى طعام بل يأتى به إليهم التجار ، لأنهم بعيدون عن الأماكن المأهولة مسافة عشرين يوماً ، إلى حد أنهم يهلكون جوعاً فى بعض الأوقات إذا ما تأخر التجار عن الوقت المناسب . وأكثر من ذلك فإن الرياح الجنوبية الشرقية تعمى أبصارهم حتى أنهم يعيشون هناك معرضين دائماً للأخطار ، وقد عشت بينهم ثلاثة أيام اضطرت خلالها إلى شرب الماء المالح الذى يستخرجونه من بئر معينة ليست بعيدة عن مواطن الملح).

وفى القرن السادس عشر كانت المناجم لا تزال يستغلها مسوفة الطوارق بواسطة الزوج من الرقيق

وبالرغم من بعد تغازة عن السودان وقربها من مراكش تبدو المناجم وكأن حكام مراكش او فاس لم يسيطروا عليها أبداً ومن المحتمل أن يكون هذا لايعنيهم كثيراً لأن المسوفة لهم أكثر من سبب يستطيعون به تعطيل تجارة يكتسبون منها كثيراً وإلى جانب أرباحهم من بيع الملح فهناك الضرائب والمكوس الأخرى التى تفرضها قبائل الصحراء على القوافل المارة ببلادهم<sup>(١)</sup> . وفى هذا الوقت كان المسوفة أتباعاً لصنغاي وفى حدود ممتلكاتهم. وعلى ذلك تقع مناجم الملح فيها وقد سخطوا عليهم سيادتهم عليها.

وبالرغم من أن المغاربة لم يكن لهم من سبب للخوف على تجارتهم مع

---

(١) فى أيام أبو فرضت صنهاجة صرية تساوى دوكلات واحد من القماس على كل حمولة جل تمر بأرضهم من تغارة وولانا .

السودان من التوقف فإن امتلاك تغازة كان أمراً تميناً في نظرهم . فهي تعطيهم قدراً من التحكم في أسواق الذهب ، وإذا كانوا لم يسيطروا على مناجم الملح فيحتمل أن يكون ذلك سبباً في تدخلهم في سياسة الصحراء - والتسبب في إحداث غارات عاصفة على مراكش . ففي سنة ١٥٤٦ ( ٩٥٣ هـ ) حاول والد المنصور - الشيخ محمد <sup>(١)</sup> ١٥٤٤ - ١٥٥٧ ( ٩٥١ - ٩٦٥ ) أن يحمل اسكيا اسحق - الذي كان يحكم صنفاي آنثد على أن يتنازل له عن المناجم . فأجاب إسحق أن الإقتراح غريب من حاكم عظيم كالشريف . وأن اسحق الذي يوليه إهتماما ليس هو . بل لم يولد بعد ولكن اسكيا لم يقتنع بهذه الإشارة الخفيفة . بل أرسل ألفين من الطوارق يغيرون على درعه إحدى ولايات مراكش التي تقع عند سفوح جبال أطلس وإلى الغرب من سجلماسة . وأمرهم أن يسلبوها أكبر ما يستطيعون ، وأن يصعدوا حتى أبواب مدينة مراكش إذا أمكنهم ذلك . ولكن المغيرين لم يتجاوزوا درعة ، وبالرغم من أنهم سببوا خسارة جسيمة فإنهم كانوا حريصين على أن لا يقتلوا أحداً ويبدو أن اسحق قد أمر بهذا الأمر غير العادي ، لأنه لم يرغب في أن يثير حرباً مع الشريف . ونجح في ذلك . ولكن بعد عشرين انتقم محمد لها . فقد أرسل جماعة للإغارة على تغازة ، قتلت حاكمها من قبل صنفاي وعدداً من الطوارق امسكوا بهم حاملين الملح على جماهم .

وعندما ارتقى المنصور العرش في ١٥٧٨ ( ٩٨٦ هـ ) كان اسكيا اسحق لا يزال حياً . ولكن اسكيا داود خلفه بعد ذلك بقليل ، وكانت قد مرت فترة طويلة من الهدوء

---

(١) بخطىء السعدى فيقول أن هذا الشريف هو أحمد بن العروجي ولكن هذا الأخير خلفه أخوه محمد في سنة ١٥٤٠ بعد ارتقاء اسكيا اسحق بعام .



على تغازة ارتفع فيها قدر المغاربة إلى القمة من جراء النصر الذي حازوه في موقعة القصر الكبير. فرأى السلطان أن الأمر يستحق محاولة القيام ببعض الخطوات المفيدة مع اسكيا . فاقترح على داود أن يترك له المناجم سنة ولعل الاسكيا تبين أن سلطان المغرب قد أصبح قويا إلى حد أنه يستطيع أن يستولى على تغازة إذا اراد . فاتفق معه على ذلك ووضع أساس علاقات صداقة بين الدولتين .

ولم يكد الحاج محمد خليفة داود يجلس على العرش لبضعة شهور حتى قدم سفير من السلطان إلى جاو يحمل هدية ثمينة لاسكيا الجديد ، فقوبل السفير بحرارة ، ورد بهدية من الرقيق ( منهم ثمانون من الخصبان ) وبعض من الزبد والمنتجات النادرة الأخرى وكانت الزيارة أبعد من أن تكون عملا من أعمال المجاملة، ولذا اعتقد ملك الصنغاي أنها ليست أقل من استطلاع حربي.

ومن المحتمل أن يكون المنصور قد بدأ برسم الخطة لغزو السودان في سرعة بعد حملة تأديبية أرسلها إلى وأحق توات وجورارين ليحرب إمكانية تحرك أعداد كبيرة من القوات عبر الصحراء . فالغزوة على صنغاي تستلزم سيرا أطول في الصحراء ولكن المنصور اعتقد أنه من الممكن القيام بها، وقد صمت العفراني المؤرخ المغربي عن هذا الجزء من حكم المنصور ، ولذا كانت معلوماتنا قليلة عن التجهيزات التي تمت للحملة . ولا يستطيع الانسان أن يشك في أن الثلاثة آلاف ياردة من القماش الإنجليزي التي وصلت إلى مراكش في فبراير سنة ١٥٨٤<sup>(١)</sup> والتي كانت قد طلبت من أجل عمل أغطية الأسلحة النارية للجيش المنتصر قد طلبت من أجل هذه العملية التي يقوم بها المنصور .

واستناداً إلى السعدي ، لم يطل الوقت بعد عودة السفير من صنغاي ، حتى وصلت الأخبار إلى جاو عن جيش شريفى يبلغ عشرين ألفا قد خرج يقصد السودان . وأن قائده أمر أن يتبع طريقا دأريا عبر وادان في جنوب

(١) هناك خطأ في هذا التاريخ فالسلطان المنصور لم يرتق العرش المغربي إلا في سنة ١٥٧٨

شرق موريتانيا ( التي احتلها البرتغاليون مرة ) ومنها إلى السنغال الأعلى ليستولى على كل المدن التي يستطيع الاستيلاء عليها ، ثم يهاجم تمبكتو ، وبالرغم من أن رواية السعدي ينقصها التأكيد وليس من السهل أن تقبل تقديراته عن قوة الجيش المغربي ، فليس هناك من شيء مستبعد في عبارته التي تقول أن الحملة — فيما عدا فئة قليلة — قد هلكت في الصحراء من جراء الجوع والعطش ، وقد يكون هذا سببا في أن العفرائي لم يذكر شيئا عن حادثة كان من الأفضل لها أن تنسى .

وأرسل المنصور واحد من قواده ومعه مائتان من حملة الأسلحة النارية للاستيلاء على تغازة ، ووصلت الحملة لتجد أن معظم السكان الذين كانوا من الزنوج الرقيق قد هربوا ، فكان هذا فشلا كاملا لأن المناجم لا تعمل بغيرهم ولا فائدة من الاستيلاء عليها . وتأكد اسكيا داود من ذلك بأن أمر أن لا يعود احد من شعبه إلى تغازة . فتخلى المنصور عن المناجم التي ظلت مغلقة لأن ملك صنغاي لم يجرؤ على إعادتها لهم .

وكان إغلاق تغازة امراً دقيقا لسكان النيجر الأعلى — لأنها كانت لهم — وهم البعيدون عن الشاطئ — المورد الوحيد للملح . ولكنه قاد إلى اكتشاف المناجم الحالية المشهورة للملح مناجم تاوديني Taodeni بين تغازة وتمبكتو . ولكن مناجم تاوديني لم تكن لتسد المطالب العاجلة للسودانيين ، وقبل أن يمر زمن طويل اضطر ملك صنغاي أن يعيد العمل إلى تغازة ، وعندما سمع المنصور بذلك أمر بفرض ضريبة مقدارها مثقال من الذهب على كل حمل من الملح يستورد من السودان . ولكن هذا الأمر رفضه اسكيا الحاج محمود في الوقت الذي كان فيه الشريف قد شغل بأمور خارجية مدة من الزمن . فضيع وقتا طويلا ، إذ كان كل من الأسبان



والأتراك يداومان على طلب لاراش ولكن لعب السلطان بكل منهما ضد الآخر، بل ذهب بعيداً حين وعد الملك فيليب بلاراش كشرط لهدنة تستمر عشرين سنة، ولكنه فسخ الاتفاق عقب أن وقعت أسبانيا مباشرة وأظهر مثل هذا من عدم الثقة في معاملته لاليزابث ملكة إنجلترا حين تردد في تنفيذ وعده بمساعدته لدون انطونيو، وبالرغم من هذا لم يصعب المنصور من تصميمه على غزو السودان وفتح صنغاي.







## جيش الصحراء

في سنة ١٥٨٩ عندما كان المنصور في فاس يحاول عبثاً أن يختم مؤامره في العاصمة الجنوبية ، وصل إليه البريد من مراکش يحمل خطاباً . كان قد كتبه ولد القرنفل وهو زنجي من السودان . كان اسكيا اسحق الثاني قد نفاه إلى تغازه . ومنها فر إلى مراکش ولكنه منى بالخيلة حين لم يجد السلطان بها . فكتب إليه يقدم نفسه ، بأنه الأخ الأكبر لاسكيا الذي اغتصب منه عرشه ، وطلب من المنصور أن يحتضن قضيته ووعدده بأن يجزل له المكافأة على ذلك .

وبالرغم من أن ولد القرنفل هذا لم يكن أكثر من جاب ، فإن خطابه زود المنصور بحجة وعذر ليبادر بغزو السودان ، ولكن كان عليه أن يتحرك بحذر . إذ هناك حدود لما يجب أن يضعه من قيود على شعبه الذي يستفيد فائدة كبيرة من التجارة مع السودان ، ولا بد أن هذه الحملة سوف تضر بهذه التجارة إن لم تحطمها ، واستناداً إلى رواية السعدى . قد كلفته هذه العملية المكروهة جيشاً ضاع كله في الصحراء ومحاولة إرسال جيش آخر قد تدعو إلى إتفجار الروح الثورية التي ما زالت — كما أظهرت فاس حديثاً — تفور تحت السطح ، ولذا دعا السلطان رجال دولته والوزراء والحكام وزعماء القبائل الكبيرة إلى اجتماع يحصل فيه على موافقتهم على القيام بالحملة التي ينوى القيام بها . فأخبرهم أنه قرر أن يهاجم أمير جاو سيد السودان من أجل أن يوحد قوة الإسلام تحت قائد واحد . وفتح السودان الغنى لا بد سيعطى القوة لجيوش الإسلام . وفي ذلك رفع لروح المسلمين الحقيقية ، وأخيراً ذكر أن

اسكيا اسحق تنقعه مزاي الملك الضرورية ، كما أنه ليس قرشياً . فليس له الحق في أن يحكم .

دهش الحاضرون لذلك . وصرحوا دون موارد بمعارضتهم للحملة وقرنوا معارضتهم بأسباب المعارضة ، فبين بلادهم والسودان صحراء واسعة . لا ماء فيها أو مراعى ، وطرقاتها غير صالحة لسير حملة كبيرة ، وبالإضافة إلى ذلك هناك الأخطار الأخرى التي تكتنف الصحراء وأهمها الطوارق . كما لم يفكر أحد من ملوك الأسرات الثلاث الماضية ( التي حكمت المغرب ) - رغم قوتهم - لحظة واحدة في القيام بمثل هذه الحملة المخاطرة . ورجحوا احتمال الفشل . وختموا كلامهم قائلين ( اننا نؤمل أن تسر جلالتم كما سارت الأسرات الثلاث السابقة لأننا اليوم لسنا أكثر حكمة من آبائنا ) .

فاحتقر المنصور مخاوفهم وقال :

إنكم تتحدثون عن أخطار الصحراء التي يجب أن نجتازها . مثل الوحدة القتالة وقلة الماء والمراعى . ولكنكم نسيتم أن التجار الذين لا يملكون استعداداً كاستعداد الجنود يقطعون هذه الصحراء في انتظام راكبين أو راجلين ، ولم يتوقفوا يوماً عنها وها أنا املاك إستعدادات أكثر مما يملك هؤلاء ، ولا بد أنى سأعمل نفس الشيء مع الجيش الذي سوف يبعث الخوف أينما يذهب ، أما عن الأسرات السابقة التي لم تفكر — كما تقولون — في القيام بمثل هذا المشروع ، فأنتم تعرفون جيداً أن المرابطين شغلوا بغزو الأندلس ، وبالزراع مع المسيحيين والموحدين كذلك شغلوا بالصراع مع طوارق صنهاجة وأخيراً بنى مرين الذين قاتلوا عبد الوديد في تلمسان . ولكن طريق الأندلس اليوم مغلق أمامنا لأن أعداءنا الكفرة قد استولوا على أجزاء البلاد . ونحن لم نعد في حرب مع تلمسان أو بقية الجزائر لأنها في يد الأتراك . وأكثر من ذلك فأسلافنا وجدوا صعوبة كبيرة في أن ينفذوا ما أريد أنا تنفيذه اليوم ، لأن



جيوشهم كانت مكونة فقط من الفرسان المزودين بالحرا ب وجملة الاقواس ولم يكن البارود قد عرف بعد . وكذلك الأسلحة النارية ذات الاتر الخفيف . أما اليوم فالسودانيون لا يملكون إلا الحرا ب والسيوف . وهى أسلحة لا قيمة لها إذا ووجهت بالأسلحة الحديثة ، فسوف تكون أمامنا حرب سهلة ناجحة على هؤلاء القوم ومنتصر عليهم . وأخيراً ، فالسودان أغنى من المغرب . وغزوها سيجلب لنا فوائد أكثر من محاوله إخراج الترك الذين يذل لأجلهم مجهود كبير دون طائد كبير — لا تدعوا جنب أسلافنا يقودكم إلى إبعاد ما هو قريب أو تصعب ما هو سهل .

وكان لكلام السلطان أثر ظاهر على سامعيه . فسرطان ما كسب تأييدهم بل حماسهم للمشروع ، وأجابوا وإن كانت إجابتهم همساً ( رغبة الأمير أميرة الرغبات ) وبذلك أصبح السلطان قادراً على أن يضع التجهيزات الرائعة لحملة الكبيرة على السودان .

والمغاربة — كجميع الشرقيين — يعتمدون دائماً من أجل النصر على التفوق العددي الهائل أكثر من اعتمادهم على كفاءة فرقهم وتجهيزاتها . وكان هذا سبب نجاحهم في موقعة القصر الكبير ، ولكن حملة صنغاي تستدعى شيئاً آخر . فقبل الوصول إلى صنغاي هناك الصحراء التى يجب ان تعبر وكان هذا هو أصعب أجزاء الحملة ، فإن ذلك منع استخدام الأعداد الهائلة ، فالقوات الصغيرة أقدر على الوصول إلى صنغاي ، فالحاجة هنا إلى قوة صغيرة ذات كفاية عالية وتجهيزات كاملة ونقل متوفر . وإذا ما تم الوصول إلى صنغاي فإن الكثرة العددية في جانب الأعداء . وإذا كانت أسلحة المغاربة أفضل وخاصة في الأسلحة النارية فهذا قد يصحح التوازن . ولكن إذا حدث اللقاء الأول في غير صاغ المغاربة فموقفهم سوف يصبح سريعاً ميؤوساً منه . إذ ليس لهم احتياطى يستدعونه ، ولا قاعدة يتراجعون إليها . فكل شيء يتوقف على

النصر الحاسم الأول ، على ما يمكن أن يقابلهم من عقبات عديدة كبيرة . ولا يمكن إدراك ذلك إلا بإرسال أفضل فرقهم تدريباً . وبالرغم من أخطار السير في الصحراء ومخاطرة اللقاء الأول مع الأعداء فإن المنصور كان قد صمم على أن يكون كل ما يرسله إلى السودان سواء كان إنساناً أو حيواناً أو أسلحة من أفضل ما يملكه .

ولابد أن شيئاً كثيراً كان يتوقف على اختيار القائد المناسب . واختار المنصور لهذا المنصب قائداً شاباً خصياً هو جودر Judar ، وكان أسبانيا أزرق العينين يعود أصله إلى لاس كوفيفاس من غرناطة Les Cuevas أخذ أسيراً وهو طفل (لاشك في إحدى غارات القرصان على الساحل الأسباني) وربى في القصر الملكي في مراکش . وكان اختياراً مثيراً للدهشة حقاً لأن جودر لم تكن له خبرة سابقة بمثل هذه الحملات — قد ظهر كجامع للضرائب بفضل أمانته وقدرته التنظيمية . وهي صفات ضرورية في قائد قد يحتاج إليها سوف يكون بعيداً عن سلطة الشريف مادام قد خرج إلى الميدان ولذا لم يكن هناك من أساس لهذا الاختيار سوى شباب القائد .

ورقى جودر في الحال إلى رتبة الباشوية وكان تحت إمرته عشرة قواد ، أربعة منهم أسرى أوروبيون دخلوا في خدمة السلطان سواء برغبتهم أو غصبا عنهم . وبلغ عدد أفراد القوة التي أوكل إلى جودر قيادتها أربعة آلاف من الأقوياء الذين اختيروا من بين أفراد الفرق لشجاعتهم وصلابتهم وحبهم للنظام . ومن هؤلاء الفنان من المشاة مزودين بالأسلحة النارية . نصفهم من الأندلسين ( المغاربة الذين هاجروا إلى مراکش ) أو أسرى حرب فقراء عجزوا عن دفع فديتهم . وكذلك خمسمائة من الخيالة حاملو الأسلحة النارية ( الصافي ) ولكنهم أسرى حرب أيضاً . والباقي يحتمل أنهم كانوا من أتراك الجزائر الذين دخلوا خدمة الجيش الشريفى . ثم



١٥٠٠ من الخيالة الخفيفة مزودين بالحرايب الطويلة وكلهم من المغاربة . وتكونت المدفعية من ستة مدافع كبيرة وعدد من المدافع الصغيرة اثنان منها يحملان على جمال . وحاملو البنادق كانوا غالبا اوربيي المولد ، أما زعيمهم فكان مسيحيا حرا استخدم بعقد طويل الأجل في الجيش الشريفى<sup>(٢)</sup> . وكان هناك أيضا سبعون من الفرسان المسيحيين ، متخبين من بين أسرى الحروب ولا بد أنهم كانوا من بين من نجوا من موقعة القصر الكبير والذين يؤملون أن يفتدوا في يوم من الأيام ، وعلق جودر أهمية كبرى على استخدام بعض الفرق المسيحية ربما كحرس خاص له ولكنه شعر بالتحية حين رفض الشريف المائتين الذين طلبهم .

وتكوين الحملة بهذه الصورة يظهر لنا بوضوح عدم الثقة التي كان الشريف يكتنحها لمواطنيه كجنود ، فمن بين الأربعة آلاف كان هناك فقط ألف وخمسمائة من الخيالة الخفيفة من الراكشين الوطنيين والباقي معظمهم من الأندلسيين والأسرى الأوربيين<sup>(٣)</sup> . الذين كثيراً ما كونوا العمود الفقري للجيش ، وكانت الأسبانية هي اللغة الرسمية التي استعملها جودر .

أما غير المقاتلين الذين صاحبوا الجيش فكانوا ستائة من الفعلة ، وألف

---

( ١ ) في سنة ١٥٣٦ كان الفرنسيون هم الذين يجهزون المدافع للمغاربة ( ليو الإفريقي ٣٠ ص ٩٩١ ) :

( ٢ ) ليس من الضروري أن يكون الأوربيون المنضمون للجيش الشريفى من أسرى الفارات . فاستناداً إلى جون هاريسون فسلما المنصور مولاى عبد الملك لاستقدم بعض الشبان الإنجليز الأشداء ليحلوا محل المغاربة وخصام ، ولكنه بعد ذلك ندم وقال إنه لن يعيد عمل ذلك لأنه وجد الإنجليز أفضل من المغاربة . وكونهم مسيحيون يجعلهم يقفون إلى جانبه وقيمون معه . ولكن المغاربة يتخلون عنه ، إذ لديهم الحرية والفرصة ليعملوا ذلك ( المتحف البريطاني . الكتب المطبوعة ) .

( م ١٣ — الممالك الإسلامية )

من قائدى الجمال . وبلغت دواب الحمل ثمانية آلاف جملا وألف حصان .  
واستناداً إلى العفرانى . بذلت عناية كبيرة فى اختيار الحيوانات إذ امتطى  
الفرسان أفضل الخيول المتقاة وفضلت الجمال لقوتها وسرعتها .

وقد تبدو تسعة آلاف من دواب الحمل عددا كبيرا بالنسبة لأربعة  
آلاف مقاتل . ولكن يجب أن نتذكر أنهم سوف يقطعون قرابة ١٥٠٠  
ميلا، تتكون من عدة مراحل كبيرة فى الوقت الذى يعتمدون فيه على الماء والطعام  
والعلف الذى تحمله الحيوانات هذا إلى قرب الماء ، علاوة على ١٨٠ خيمة  
و ٣١٠٠٠ رطل عن ذخيرة البنادق . وما يوازى هذا الوزن من الرصاص  
وكيات من الخوذات . والطلقات . والأوتاد . والجمال . والمعاول .  
والقؤوس . وأدوات أخرى، وإلى جانب ذلك طعام الجيش من القمح والشعير  
وكيات ضخمة من البلح المضغوط (العجوة).

ومصدرنا الرئيسى لمعلوماتنا عن جيش الصحراء واستعداده رجل أسبانى  
كان يعيش فى مراکش ، وربما كان من رجال فيليب فى القصر الشريقى .  
وما يخبرنا به دليل على أن استعدادات ضخمة قد اتخذت لتكون القوة  
أفضل ما يمكن أن تجهزها الدولة سواء فى الرجال أو المعدات .

وكان المنصور قد فكر أيضا فى الاحتمالات التى قد تحدث فى البلاد بعد أن  
تخرج الحملة إلى هدفها البعيد . فهناك الخطر الناجم من أحد جيرانه الأقوياء  
أسبانيا أو تركيا . إذا استداروا عليه بعد أن يعرفون أنه مشغول فى حملة  
أخرى الانسحاب منها مستحيل ، فإذا كان الأتراك قد طلقوا نهائيا فكرة  
التوسع البرى فى إفريقيا إلا أن جانبهم لم يكن يؤتمن ، فالعلاقات بين مراد  
والمنصور كانت أكثر توترا . وتصميم المغاربة على أن يكون خليفتهم شريفا  
لا عثمانيا ، قد سبب المرارة فى استنبول ، وبالرغم من ذلك كان من عادة



المنصور أن يرسل هدية سنوية إلى مراد . وأصر هذا على أن يعتبرها ضريبة، مما أزعج المنصور ولذا سرعان ما طلق هذه العادة مما سبب مزيداً من الضيق إن لم يكن من الكراهية التي يكنها الأتراك للأشراف .

ومن ناحية أخرى تحسنت علاقة السلطان بأسبانيا . إذ لم يعد هناك ما يخشى من فيليب، بعد أن هزمت انجلترا الأرمادا . ولكن منذ أن عرف أنه يأوي في لشبونة اثنين ممن يدعون أحقيتهم في عرش المنصور، فهو لا يؤمن بجانبه أكثر من مراد . فغزوة السودان قد تعطي فرصة لأحدهما . فمن المحتمل أن يدبر أحدهما حملة بحرية على لاراش الأمر الذي كون خطراً جسيماً . وربما كان سبب هذا طلب سفير السلطان في لندن إذنا باستئجار التجارين وبنائي المراكب الإنجليز لبناء نوع من السفن الحربية في وقت الحرب . وكان ذلك في مارس سنة ١٥٨٩ .

وبعد ذلك بشهر . حدثت غزوة دريك Drake ونوريس Norris على لشبونة، وهي التي سببت عتاب الملكة إليزابيث للمنصور، إذ كان الأخير قد وعد بارسال المؤونة إلى الأسطول البريطاني ولكنه لم يفعل . وبالرغم من هذا فقد أرسلت إليزابيث رسولا خاصا إلى مراکش يطلب مساعدة المنصور في هجوم آخر على البرتغال، كانت تديره في الشتاء التالي . فاستقبل الرسول ببرود ورفض الطلب . وبالرغم من ذلك جددت إليزابيث طلب مساعدة السلطان لدون أنطونيو الذي لجأ إليها، وفي ٢٣ يونيو سنة ١٥٩٠ (شعبان ٩٨٩ هـ) كتب المنصور يعتذر عن إهمال طلب المبعوث البريطاني على أساس انهماكه بالحملة التي سوف ترحل إلى السودان بعد بضعة أيام .

وفي ١٦ أكتوبر (١٥ ذو الحجة) وفي أكثر الفصول ملائمة لعبور الصحراء، خرج جودر باشا من مراکش على رأس جيش الصحراء وكان منظره ملاً الشريف بالفخر، فبدلاً من الفوضى التي تعودها الجيش المغربي عند سيره، شهد المنصور فرقا

منتظمة من الجنود المدربين المنظمين . بل أكثر الجيوش التي دفعتها المغرب إلى الحرب دربة . وتصميمها وثقة في النصر ليتم هذه العملية التي شغلت عقله عدداً من السنين بصفة مستمرة .

وقاد جودر جيشه نحو الجنوب عبر جبال أطلس إلى مقاطعة درعة وعسكر في لكتاوا Lektawa حيث دار السكة التي أعدها المنصور للذهب القادم من الصحراء، ووجدت الفرق هناك أن ما ينتظرها من المطالب وحيوانات النقل وقد جمعت من الريف الذي امتلأ بالقمح والبلح وحاجات المراعى . وهنا — على حافة الصحراء — استكملت كل الاستعدادات لسير الصحراء، وعندما اكتمل كل شيء، ملئت القرب بالماء وحملت أزواجاً على الجمال . وبدأت المسيرة الكبرى، وأوغل الجيش في الصحراء ، ومرت شهور دون أنباء من جودر، وفجأة برز من الصحراء مالك لجمال لاشك أنه طارق ليضع أمام الشريف أنه كان يرعى جماله في سلام بالقرب من أروان Arawan على بضعة أيام شمال تمبوكتو حين ظهر جودر فجأة مع جيشه في الأفق يقود دوابه . فلم تكن هناك أخبار لقيت ترحيباً أكثر من هذه، لقد أظهرت قصة الرجل أن جودر قد عبر الصحراء .

ولسوء الحظ لم تصلنا قصة سير جودر في الصحراء . وليس هناك من شك في طريقه . ولكننا لا نعرف شيئاً عما حدث خلال سيره . ولا عن الضريبة التي دفعتها الحياة البشرية . رغم أنه من المحتمل كما سنرى — أن خسائره كانت كثيرة .

وبقاء الجيش يجعل هذا النجاح متوقفاً فقط على العثور على الماء لتعويض النقص الذي حدث في القرب، فالاعتبارات الحربية الخالصة مثل سرية الحركة وعنصر المفاجأة لا بد أن تكون تالية في الأهمية لهذه الحاجة الملحة ، ولم يكن هناك من أمل في الاقتراب المفاجيء . لأن اعتماد جودر على الآبار أرغمه على أن يتبع طرق التجارة المألوفة في هذا الفصل الذي تكثر فيه قوافل التجار .



وكان الطريق الوحيد هو ذلك الذى كان يسلكه تجار الذهب ويجرى نحو الجنوب من لكواتا إلى تغازة ثم إلى تغازة الغزلان ثم إلى تاودينى فولاتا ولم يكن لدى جودر أى اختيار فى أن يطرق هذا الطريق فى الجزء الأكبر من طريقه إلى النيجر . وفى تاودينى وما حولها ينحرف الطريق الرئيسى نحو الجنوب الغربى إلى ولاتا . واستمر جودر يسير نحو الجنوب متتبعا أقل الطرق أهمية إلى تمبكتو وهو الذى يمر بأروان حيث استولى على جمال بعض الناس .

وعندما وصل أروان — التى لا بد أنه استغرق شهرين على الأقل ليصل إليها — كان قد ترك أسوأ ما فى أخطار الصحراء ، لأن الماء والمراعى أصبح العثور عليها سهلا فى الجنوب كلما اقترب من النيجر .

ولا نعرف الحالة التى وصل عليها الجيش إلى أروان ، قوة بلغت خمسة آلاف أو ستة آلاف من الأشداء ومعها ما يقرب من ضعف هذا العدد من حيوانات الحمل . خرجت كجسم واحد لتسير سبعائة ميل فى إقليم مملوء بالمخاطر . وكانت مصادر الطريق من القلة إلى حد أنها لا تكفى أقل ما يمكن من المطالب لبضع مئات من التجار الذين يسافرون عليها على فترات خلال فصل الشتاء . ومن تغازة واروان لم يكن هناك من مكان واحد فيه ماء يكفى ، أو مرعى يرتاح فيه جيش فى هذا الحجم . والمسافة بين تغازة الغزلان وتاودينى<sup>(١)</sup> لم تكن أفضل من تغازة . فكلما لا يكاد يفى بما يسد حاجة الحياة البشرية . وبين أماكن الوقوف الفقيرة هذه كانت مراحل من السير الطويل والوحشة المفزعة التى تقطعها جماعات صغيرة من التجار فى سرعة

---

(١) حديثاً فى سنة ١٩١٠ مات أكثر من خمسين تاودينى بسبب تأخر وصول القافلة التى كانوا يعتمدون عليها من أجل ضروريات حياتهم .

وخوف دائم من أن يجدوا الآبار التالية جافة، أو أن يجدوا أنفسهم مجهدين إلى حد أن لا يستطيعون معه الاستمرار في السير .

وتعداد ابن بطوطة لأخطار السفر في هذا الطريق معروفة . وقد ذكر ليو نفس متاعب الطريق الذي سافر فيه بعد ذلك بأقل من قرن حين قال :

في الطريق الذي يؤدي من فاس إلى تمبكتو توجد بضع آبار تحيط بها جلود الجمال أو عظامها . والتجار لا يطرقون هذا الطريق في الصيف دون أخطار كثيرة على حياتهم . ففي أغلب الأحيان — لا سيما حين تهب رياح الجنوب — تطمر كل هذه الآبار بالرمال كما لا يجد التجار أثراً لهذه الآبار أو إشارة إليها . فلم يكن أمامهم إلا أن يموتوا عطشاً . وحينئذ تتناثر جيفهم هنا وهناك تحرقها أشعة الشمس . وليس أمامهم إلا علاج واحد في هذه الحالة وهو غريب . إذ كلما اشتد عليهم العطش يلجأون إلى قتل أحد جملهم ويأخذون ما في بطنه من الماء ، ومنه يشربون ويحملون بعضه الآخر معهم . حتى يجدوا بئراً جديداً أو أن يقتربوا من الموت عطشاً مرة أخرى . وفي الصحراء التي يطلقون عليها اسم ازواد Azaoad تمثالان من المرمر عليهما عبارة مكتوبة تدل على أن أحد هذين التمثالين يمثل تاجراً غنياً والآخر يمثل حملاً أو ناقلاً للبضائع ، وقد اشترى التاجر الغني من الجمال فنجانا من الماء بعشرة آلاف دوكات ولم يكن هذا الماء ليكفي أحدهما . لأن كلا منهما كاد يموت عطشاً . إذ ستنقضي فترة من الزمن لا يجد فيها الإنسان نقطة واحدة من الماء ، لأن الدليل قد ضل الطريق أو بسبب أن الأعداء قد قطعوا مجرى ماء البئر أو الينبوع ، وحينئذ تصبح كمية الماء التي نجدها جديرة بالاحتفاظ بها فالتى تكفيها خمسة أيام لا بد أن نحفظها لعشرة<sup>(١)</sup> .

---

(١) من أجل وثائق حديثه نسبياً عن فقد القوافل في هذا الطريق اقرأ من ٢٣٦



ولدينا مصدر واحد غير واضح على أن خسارة جودر يحتمل أن تكون كبيرة . وهو عبارة محمود كعت التي كتبها في كتابه ( تاريخ الفناش ) وحين يقول أن من بين القوة الأصلية التي قدرت بثلاثة إلى أربعة آلاف من المقاتلة اشترك ألف فقط في أول لقاء مع قوة الصنغاي . وبالرغم من احتمال استعمال جودر لكل رجل عنده فإن عبارة كعت لا تثير ما ذكره بعض النقاد من أن باقى قوته قد هلك في الصحراء . على أنه في بعض السنين التالية — حين كسب المغاربة خبرة مناسبة في نقل الجيوش عبر الصحراء — فقد طابور مكون من ١٧٠٠ رجل ثلث قوته في الطريق إلى السودان <sup>(١)</sup> .

فاذا عرفنا ما نعمله من أجل أخطار الطريق وأى ضريبة تدفعها الحياة البشرية من جماعات التجار الصغيرة أو الفرق المقاتلة في المناسبات الأخرى فمن الصعب أن نصدق أن جودر لم يقاس خسارة جسيمة في الصحراء .

---

(١) هذا ما رواه لورنس مادوك Lawrence Madoc وهو تاجر بريطاني كان يعيش في مراكش ( انظر ص ١٨٠ في الهامش ) فمن الممكن أنه كان يشير إلى حملة جودر الأصلية وليس إلى طابور من الإمدادات خرج أخيراً .





## غزو السودان

في آخر فبراير ( ربيع ثان ١٩٩٩ هـ ) بعد مسيرة عشرين أسبوعاً من تركه مراکش وصل جودر النيجر عند كارابارا Karabara بالقرب من مدينة بامبا Bamba الحالية وقد أجاد اختيار المكان ، فلم يكن هناك مكان أفضل منه من الوجهة الحربية . إذ هناك يمكن اجتياز النيجر بسهولة أفضل من أى مكان آخر في المنحنى . مما جعلها نقطة هامة من نقط التقاء طرق القوافل التي سيطر جودر عليها . وأهم من ذلك أن موقع كارابارا كان في منتصف الطريق بين جاو وتمبكتو وأبعد من أن يصل إليها المقاتلون من كلتا المدينتين . وبذلك تمكن من أن يرضى جيشه الذي كان في أشد الحاجة إلى الراحة . بل إلى إعادة تنظيمه قبل أن يدخل في معركة كبيرة .

وكان الصنغاي في أشد حالات الحيلة من نيات السلطان العدائية . ولكنهم كانوا واثقين من الصحراء . كحاجز طبيعي للدفاع عنهم . ولم يخطر بعقلهم قط إمكان عبور جيش مغربي لهذه الصحراء . ولذا كانوا بعيدين عن أى استعداد .

ولابد أن اسكيا اسحق مع عن اقتراب المغاربة قبل أن يصلوا النيجر بفترة ، ولكن الطريق الذي اختاروه كان يملئ بأنهم مقدمون على الغزو من جهة الغرب . ولذا جهز جيشه لصد هجوم قد يأتي من هذه الناحية . وبعد قليل عرف أن المغاربة قد تركوا طريق ولا تا عند اروان وأنهم يتقدمون نحو الجنوب . فأصبح من الواضح أنهم لن يهاجوا من ناحية الغرب ولذا

سحب قواته إلى جاو ودعا مجلس الحرب ، وكان كل شيء مضطرباً ، وظن البعض أن هدف العدو المباشر هو تمبكتو بينما أصر الباكون على أنه لا بد أن يكون جاو . ولذا دعى مجلس المحاربين من كل أنحاء الدولة ولكنه انقض دون اتخاذ قرار حاسم .

واتخذ اسحق نفسه قراراً حاسماً ، ولكنه كان أكثر تأخراً من أن يكون ذا أثر . فأرسل الأوامر إلى الزعماء في الصحراء أن يطعموا الآبار التي يمكن أن يستفيد بها المغاربة ليجهلواهم يبحثون عن الماء عبثاً . ولم تصل الأوامر إلى الزعماء لأن الرسل وقعوا في قبضة قطاع الطريق . كما أن الشعب لم يستجب الدعوة إلى حمل السلاح كما أمل اسحق ، لأن الناس كحكامهم رفضوا أن يصدقوا إمكان مجيء حملة من الشمال ، كما لم يتصوروا أن الموقف كان خطراً كما صوروه له . ولكن حين انتشرت الأخبار في أنحاء الدولة إن المغاربة قد وصلوا فعلاً ، وأن هناك من رآهم عند كارابارا بدأ رجال الحرب يتجمعون .

هذا بينما كان جودر بعد أن أراح جيشه بضعة أيام عاد إلى الطريق وانحدر مع النهر إلى جاو، وقبل أن يذهبوا بعيداً هاجمه الطوارق ولكنه شتتهم في سهولة ، وبعد قليل وجد بعض ضحايا قطاع الطريق من الطوارق وكانوا أربعة من الزنوج جرحى . وكانوا رسل اسكيا، ووجد المغاربة معهم الأوامر التي كانوا مكلفين بحملها بطمر الآبار . وإذا قدر لهؤلاء الرسل أن يصلوا أهدافهم لهلك الغزاة في الصحراء إذ لم يكن أمامهم إلا فرصة ضيقة للهرب .

وشغل المغاربة بعد بضع هجمات محلية من بعض الذين قدموا في قواربهم وهاجمهم ليلاً ، وخوفاً من هجمات الطوارق أعدائهم التقليديين كان الصنغاي قد بنوا معظم قراهم في جزر في عرض النهر. ولما لم يكن لدى المغاربة قوارب لعدم وجود الأخشاب اللازمة في هذه المنطقة، فانهم لم يملكوا وسيلة يصدون بها هذه



المهجرات . ولا ما كان أشد منها ، ولا كانوا مهددين بنفاذ ما كانوا يحملونه من طعام ، فلم يجدوا من وسيلة يخضعون بها الموقف سوى أن يستعينوا بقوارب من الجلد ليهاجموا بعض مخازن الحبوب في هذه الجزر .

وعرف جودر — بعد أن سار أربعة أيام في طريقه إلى جاو — أن اسكيا اسحق بدأ يقيم المتاريس في الطريق ويستعد للحرب ، فأرسل إليه يدعوهُ إلى التسليم ليتجنب سفك الدماء ، ولكنه رفض العرض الذي اتخذ دليلاً على الضعف ، مما أعطى الصنغاي بعض الثقة في أنفسهم . وفي اليوم الثاني رأى جودر جيش الزنوج عند تنديبي Tondibi وهي تبعد عن جاو مسافة خمسة وثلاثين ميلاً . فصمم على أن يشاغلهم في اليوم الثاني .

وقدر محمود كعت — وهو أشد تحفظاً من غيره من مسجلى هذه الحوادث — جيش الصنغاي بثمانية عشر ألفاً من الفرسان و ٩٧٠٠ من المشاة . ويذكر السعدي أن أغلبية الجيش كانت مكونة من حاملي الأقواس بينما بلغ الفرسان — وهم حملة الحراب — عدة آلاف . ورغم أن الصنغاي مسلمون فقد كانوا يعتقدون اعتقاداً كبيراً في السحر ، ولذا ذهبوا إلى المعركة يصحبهم جماعة من السحرة . واستناداً إلى كعت ، كانت قوة المغاربة ألفاً من الصافي أو الفرسان . نصفهم أندلسيون ونصفهم من أسرى الغارات ، وقبل أن تبدأ المعركة أراد الصنغاي أن يبنوا الفوضى بين صفوف مهاجميهم بأن جعلوا أمامهم قطعاً كبيراً من الماشية ، ولكن المغاربة فتحوا صفوفهم ومرت القطعان دون أن تحدث ضرراً .

وبدأ المغاربة المعركة كعادتهم بالإحاطة بالأعداء من الجهتين ، وبدأ منذ اللحظة الأولى أن هدفهم لم يكن موضع شك ، وبالرغم من التفوق العددي فإن الزنوج ضعيفي التسليح لم يكن أمامهم فرصة أمام الأسلحة النارية والنظام المتفوق الذي كان للمغاربة ، وكانت المقاومة الجدية الوحيدة من فئة من

المتحمسين الذين كونوا الحرس الأمامي. فقد ركبوا خيولهم وقدر بطوا أنفسهم إليها بأربطة من جلد كى لا يتحركوا واطلقوا سهامهم على المغاربة المتقدمين ، وظلوا كذلك حتى فنوا عن آخرهم. فلم تجد بقية الجيش بدا من الفرار تاركة وراءها كثيراً من القتلى ، فسلمهم المغاربة ما كانوا يلبسونه من الذهب<sup>(١)</sup>.

وعبرت بقية الجيش المنهزم نهر النيجر إلى جرما Gurma فكان ذلك خيراً لهم . إذ لم يستطع المغاربة مطاردتهم لعدم وجود القوارب معهم . وتنفيذاً لأوامر أسكيا تبع أهالى المدينة الجيش فى هربه ولكن بطريقة عفوية مما دما إلى غرق كثيرين .

واستقبل المغاربة بحماس فى جاو من التجار الأجانب والعلماء . وكثير منهم كانوا مواطنين لهم ، ولكن أقصى ما وقع عليهم من فشل لمرارة خيبتهم كان عندما وجدوا جاو مختلفة تماماً عما كانوا يتصورون .

كانت تجارة الذهب والرقيق عبر الصحراء بمثابة دم الحياة لعدد من موانئ البربر ومصدر ثروة لآلاف من التجار . فظن المغاربة أن السودان الغربى هو الدرادو Eldrado . وعاصمة صنغاي الشهيرة بمثابة مخزن رئيسى لثروتها . فكان جودر وجيشه واثقين من أنهم سيجدون جاو مدينة ذات مباني فخمة تأخذ العين بمفاتنها . فسوف يكون استيلاؤهم عليها خير مكافأة لهم بعد سيرهم الشاق المجهد فى الصحراء، ولكنهم وجدوا بدلا من ذلك مجموعة من الأكواخ المبنية بالطين على مثال المباني السودانية، وليس هناك من أثر لثروة كانوا ينتظرونها .

---

(١) سببت الترجمات المختلفة لرواية هوداس Houdas بعض الاختلاف فى تاريخ معركة تنديبي ، فالسعدى يذكر أنها ١٧ حمادى وترجمها هوداس فى القرن التاسع عشر بأنها ١٢ أبريل والعفرانى يذكر أنها كانت فى السادس عشر من نفس الشهر وترجمها هوداس فى سنة ١٨٨٩ - ١٦ فبراير وتاريخ الفتاس يذكر أنها فى الثانى من جمادى فترجمها هوداس فى سنة ١٩١٣ بأنها أول مارس .



بل أن مسكن الملك لم يكن ل يتميز كثيراً عما يحيط بالقصر من أكواخ ، هذا إلى أن السكان كانوا قد حملوا معهم كل ما ظنوه ذا قيمة للمغاربة . ولم يكن هناك من أثر للذهب . وأشد ما أثار حيرتهم رؤيتهم مدفعاً واحداً يحمل علامة البرتغال ، لم يكن الصنغاي يعرفون كيف يستعملونه . وتمثالا للعدراء وصليباً<sup>(١)</sup> فكانت هذه هي المكافأة الوحيدة التي منحتها جاو لهؤلاء الناس نظير كل ما تحملوه في طريق الجيش إلى صنغاي ، وللاخطار الكثيرة التي فصلتهم عن أوطانهم ولذا كانت خيبتهم شديدة .

ولم يكن ما بلغ جودر وجيشه من أخبار كاذبة عن ثروة المدينة التي كانت معروفة لعدد كبير من مواطنيهم إلا نتيجة السرية التي غلفت دائماً تجارة السودان ، نخوفاً من أن يقطع الدخلاء على التجار أعمالهم ، لم يذكر هؤلاء التجار شيئاً عن بلاد الداخل التي كانوا يأتون منها بثروتهم . وأكثر من ذلك كانت جماعة التجار في مراکش معارضة لمشروع حملة المنصور على السودان ، فكل نصيحة كانت تأتي من ناحيتهم كانت موضع الشك ولم يلتفت إليها . وكان في إمكان السلطان أن يعرف من الرسول الذي كان قد أرسله ليستكشف له أمر السودان حالة مدينة جاو ولكن الأخير خاف أن يخدع سيده . إذ قدر أن سيده لن يصدق .

وفتح اسكيا باب المفاوضات مع جودر ، إذ كان قد فقد طاصمته كما فقد الرغبة في المقاومة ، وعرض أن يقدم طاعته إلى السلطان وأن يترك للمغاربة

---

(١) ربما تكون هذه الأشياء قد وصلت جاو عن طريق التجارة العادية من ساحل غانة نتيجة الاتصال بالبرتغاليين أو الهولنديين أو الإنجليز الذين كانوا يتاجرون معهم منذ قاييل وقد اكتشف مثل هذا في سنة ١٩٠٠ حين عُثر على تمثال للحرب ذكر الارشابي أنه كان من بقايا القرن الرابع عشر وهو صناعة إنجليزية من البرونز .

حق استيراد الملح والأصداق إلى السودان . وكان المغاربة يتمنون منذ مدة أن يسيطروا على تجارة الملح مع السودان لأنها كانت وثيقة الصلة بتجارة الذهب ، وليس هناك من وثيقة تثبت أنهم رغبوا في تجارة الأصداق ، ولكن لما كانت هذه الأصداق هي العملة الرئيسية للسودان فرمما كانوا يريدونها أيضاً . وكان عرض اسحق هاما جداً ، وقبول المغاربة له يعطيهم سيطرة تامة على الحياة الاقتصادية للسودان الغربي كله .

وكان هم اسحق أن يجنب بلاده احتلالاً حريباً غالباً ما يكون عبثاً لا يمكن لشعبه احتماله ، وقد يصبح التخلص من السيادة المغربية في المستقبل أمراً مستحيلاً . فعرض على جودر مائة ألف مثقال من الذهب ( ١٢٥٠٠ أوقية ) والف رقيق على أن يعود الأخير أدراجه إلى مراکش .

وقبل الباشا العرض لساعته إذ كان يملك السلطة الضرورية لذلك . لأنه كان — كرجال جيشه — يشعر بخيبة الأمل . إذ لم يتبدد حلمه في ثروة السودان فحسب ، بل بدأ المرض يتفشى بين أفراد جيشه ومات عدد منهم . فكانت رغبته الوحيدة أن يعود أدراجه بأسرع ما يستطيع ، ولكنه لم يكن يملك سلطة وضع الشروط مع العدو ، ولذا رفع عروض اسحق إلى السلطان في رسالة عبر فيها عما قاساه رجاله في الصحراء . كما وصف حالتهم المؤسفة وفقر البلاد التي فتحوها بهذا الثمن الغالي . ولم يكن هناك من حجة أمام السلطان تجعله يقبل العرض ولذا كان جودر قلقاً في انتظار الرد .

وظلت حالة الجيش المغربي في تدهور ، ففي مدى أربعة عشر يوماً مات أربعمائة ومرض الباشا نفسه . وضرب المرض بسهمه في دواب الحمل وهي ما لا يستطيع الجيش أن يتحرك بدونها، ولما كان اسحق متشوقاً إلى خروج الغزاة وإلى تخليص ماصمته منهم، فإنه نصح جودر بالانسحاب إلى مكان أكثر ملائمة من تمبكتو وعرض أن يسهل لهم رحيلهم بتزويدهم بعدد كبير من الخيول . وقبل جودر العرض وبعد أن سار تسعة وعشرين يوماً بسلام دخل



إلى تمبكتو . وكان معظم أهلها قد هرب إلى الصحراء ولكن بقي آخرون وكان بينهم القاضي أبو حفص عمر .

وكانت تمبكتو أقل بعثاً على الخيبة من جاو ، إذ كانت المباني أفضل ولكنها كانت أيضاً من الطين وكان مبعث بعض الراحة في نفوس القادمين مسجد سانكوري Sunkore الذي كان لا يزال يسمو على كل شيء آخر . ولكن لجودر ورجاله الذين يعرفون المباني الفخمة للكتيبة في مراكش لم تكن مباني مسجد سانكوري الطينية الكثيرة لتقارن إلا بمباني جاو . وكان جو تمبكتو يدعو إلى البراءة إذ كانت العاصمة الثقافية للسودان وملجأ الطلاب من بلاد بعيدة ، وطلابها كتجارها أفضل ما فيها ولما لم يكن لديهم ما يخشونه من المغاربة ، بقي التجار والعلماء في المدينة بدلاً من أن يلحقوا بالهاريين إلى الصحراء . فوجد المغاربة الحياة التجارية والثقافية هائلة لم يسدها الاضطراب ، ومظاهر الثروة لا تنقصها . وربما كان من المحتمل فقط أنه بسبب عدم رغبة الجيش في بعث العداوة ، أن جودر لم ينهب المدينة . ومن المؤكد أنه لم يكن هناك اعتبار مطلقاً لهؤلاء الذين لم يهربوا فوجوهم المتفخخة ورفض قاضيهم البات في أن يحسن إستقبالهم وغضب قواده الواضحة من الصورة التي تمت بها الغزوة بل هؤلاء الذين بدوا أقل تأزراً بها ، فالوحيدون الذين أرغموا على أن يقاسوا نتيجة إستقبال تمبكتو البارد للجيش هم تجار غدامس الأثرياء إذ خرب كثير من المصانع والمخازن لإقامة حصن أمر جودر بإقامته<sup>(١)</sup> .

---

(١) شغل التجار العرب في غدامس في طهير ضرابلس تقرون عديدة مركزاً قويا في تجارة غرب السودان حيث لا تزال لهم مخازن . ومدى انتشار أعمالهم بصورها جيداً تجارة توركودي Torkodi القديمة . بالقماش الذي كان يسحق في كايو (إحدى مدن الهوسا) كان شائعا كعملة في تمبكتو ، وقد استورده تجار غدامس من كايو إلى عات ومي سوق صحراوية في الصحراء الشمالية الوسطى . ومن هناك كان يتجه إلى عين صلاح ومنها جنوباً مرة أخرى إلى تمبكتو وهذا القماش كان يعبر الصحراء مرين كاملتين بدلاً من اتباع الطريق الأقصر والأكثر أماناً إلى النيجر .

وقد أحدث رسول جودر في مراکش بما يحمله من أنباء عن تنديبي دهشة كبيرة بين المراكشيين، فبخلاف تقرير الجيش نجاحه في اجتياز الصحراء لم تسمع البلاد شيئاً منذ خروجه إلى السودان منذ ثمانية أشهر، ولم تحدث رسالة القائد سروراً للسلطان. بل احتقر الشروط التي عرضها اسكيا إسحق وانتقد بشدة عدم ترك جودر حامية في جاو وعدم أخذه رهائن من إسحق، ولم يصدق قصة القائد عن فقر صنغاي، فمذقرون والذهب ينصب إلى الشمال عبر الصحراء في كميات لا تدع مجالاً للشك في وجود مخازن ضخمة في مكان ما في السودان الغربي، فصمم المنصور على أن يستبدل بجودر قائداً آخر أقل منه تساهلاً وأكثر حزمًا. يستطيع أن يخرج من الزوج ثروتهم وسر الذهب الذي يخرج من بلادهم.

وكان من الواضح أن فقد الرجال والأدوات في السودان قد يستنفذ موارد الدولة قبل أن يضمن الذهب، إذا استجاب الشعب لمطالب السلطان الثقيلة التي يريد أن يفرضها عليهم، فلن تكون هناك أية سحابة ولو خفيفة من الشك تعكر التهليل الذي قابلوا به نصر تنديبي، فأصدر السلطان قراراً يفرض مطالب الجيش الجديدة، ويعلن خبر الثروة غير المحدودة التي عثر عليها. ومن الطبيعي أن لا يشير القرار إلى مدى الضحايا البشرية التي تكلفها وكان الحماس الجديد الذي بعثه القرار وقتياً لأن مبررات تعيين قائد جديد بدت غير مقنعة، وقد سبب قلقهم عدم وجود ما يبرر عزل قائد ناجح كجودر، وكذلك قرار تجهيز جيش جديد لآسيا وقد صدر ذلك في سرعة.

وفي دوامة القلق من أجل إخفاء مرارة خيبة الأمل، اضطرب السلطان إلى اللجوء إلى الخداع على نطاق غير عادي، فاستناداً إلى التقرير الذي وجد انتشاراً حتى في إنجلترا، أظهر السلطان للسفير التركي جفاء قاسياً لم يكن يقل



عن جفائه لإسكيا اسحق ، فلانه يعرف أن هذه الحادثة سوف تزيد من حسد السلطان العثماني فأضاف السلطان كثيراً إلى مظاهر السرور المفتعلة التي حاول أن يلقبها على الأتراك .

وقد انقسم الرأي في مرا كش حول ما حققته غزوة السودان ، إذ رأى الشعب في نصر تنديبي أملاً بثروة هائلة ومستقبل مجيد للدولة ، ولم يشار بهم المثقفون هذه الثقة . وربما يكونون قد تأثروا بالتجار الذين يعملون في تجارة السودان والذين كانت لهم مصادر للمعرفة أكثر دقة عن مصير الحملة لا تروق للمنصور ، إذ شعروا أنه دخل في مخاطرة لا تتحملها الدولة . كما علموا أنه إذا كان قد استولى على أملاك ، فليست إلا أكثر قليلاً من خط من النيجر بين جاو وتمبكتو . يحتاج إلى حامية كبيرة وتحصينات مستمرة لمقاومة الخسائر التي لا يمكن تجنبها سواء من المرض أو مخاطر الحرب الأخرى ، فقد دلت التجربة على عظم الخسائر في مثل هذه الأحوال ، فالطوارق سيداومون على أخذ ضريبتهم ثقيلة من الجنود أثناء اجتيازها الصحراء لا سيما وهي تصل مرهقة إلى الآبار . فسوف يشتون قوتهم وأكثر من ذلك ، فالحاجة الرئيسية ستكون إلى حملة الأسلحة ومعظمهم أندلسيون وهم الذين اعتمد عليهم السلطان لضمان عرشه ، وكان أغلب هذه الفرق الهامة قد أرسل فعلاً إلى السودان .

وكان أكبر ما أثار التجار ، تصميم المنصور على الحصول على ذهب السودان دون نظر إلى التكاليف ، فما داموا قد ألقوا تجارة الذهب فإنهم عرفوا أن حقول الذهب لا بد أن تكون بعيدة ، وشكوا في إمكان وصوله إليها . فلقرون سابقة كانت المناجم المهدف الثمر ، ولكن غير المثمر للتجار المغاربة الذين ما زالوا يجهلون مصدره ، وخافوا أن يكون تصميم السلطان على الوصول إليها سوف يؤدي إلى خراب الدولة أو على الأقل القضاء على تجارة صنغاي .

ومن الطبيعي أن تكون التجارة هي موضع الاهتمام الأكبر للتجار ، ففي الماضي كان الزنوج مستعدين دائماً أن يبادلوا بذهبهم الملح ومواد التجارة التي ترد من ناحية البحر المتوسط. ولكن إذا كانت المكافأة التي يتلقونها عن عملهم هي مصادرة الغزاة له ، فإنهم سوف يتوقفون عن إنتاج الذهب ، وعلى ذلك سيفقد المغاربة أهم أسواقهم مما يسبب الخسارة للسلطان ، بسبب أنه يعمل منفرداً كما هي العادة من أجل مصالح شعبه أينما يشعر بالحاجة .

وكان القائد الذي خلف جودر محمود بن زرجون Mahmud bn Zergaun قائد جميع أسرى الغارات في الدولة . وهو نفسه ابن أسير ربما كان أسبانيا أو برتغاليا وهو — كجودر — خصي جلب إلى القصر الملكي . وبالرغم من أن هذا الوقت من السنة كان أسوأ الأوقات لعبور الصحراء . فقد أمر محمود بالرحيل في الحال . واهتم السلطان كثيراً بسلامته ، إذ أمر بأن يجعل سيره ليلاً فقط . فالحرارة شديدة والرياح تهب بشدة والماء مادة نادرة في الصحراء . وبالرغم من ذلك فقد وصل هو ومن معه وكانوا أربعين من الفرسان — إلى تمبكتو في أمان في أقصر وقت ممكن وهو سبعة أسابيع .

واثبت محمود باشا — وقد منح هذه الرتبة — نشاطه وحزمه ، فما أن تسلم القيادة من جودر ، حتى أخذ يعد جيشه للحرب في حملة بائسة بدون قوارب . فأمر أن يقطع عدد من الأشجار القليلة التي حول تمبكتو وتسوى الواحا كما أخذ جميع الأبواب وحلوقها من كل الأبنية المخربة ، فمكته ذلك من أن يبني قاربين بعد يومين من وصوله . وترك حامية صغيرة في تمبكتو وخرج ببقية الجيش متتبعا الضفة اليسرى للنهر بحثا عن أسكيا اسحق ، ولم يلبث أن لقي المقاومة من جيش أسكيا عند بمبا وهرب العدو أمامه وعبر النهر إلى جورما ، ولكن القوارب مكته من تتبعهم في النهر . واستطاع



مطاردتهم . فكان القضاء التام على جيش صنگاي ، وانفصل اسكيا عن قواته وقتلته قبائل الطوارق من قطاع الطريق . وتبع ذلك لجوء كثير للمغاربة إلى حد أن الملك الجديد الذي خلف اسحق فقد قلبه وقبل أن يخضع للسلطان .

وكانت مجاعة استمرت عاما ، ووجد محمود من الصعب إطعام جيشه لا سيما بعد أكل حيوانات الحمل التي كانت معه . وأرسل اسكيا الجديد الطعام استجابة لأمر الباشا كي يثبت حسن نيته . ثم استدعى إلى المعسكر المغربي كي يقسم يمين الولاء للمنصور . ولكن ما إن وصل هو ومن معه إلى هناك حتى قتلوا غدرًا . وقد اعتذر محمود فيما بعد عن ذلك بأنه كان ردًا على مذبحه قتل فيها أربعائة من جنوده في الصحراء حيث كانوا في طريقهم إلى السودان .

وسرعان ما نظم محمود كيفية محاولة حكم صنگاي عن طريق حكم عسكري مباشر . فعين ملكا جديداً عميلاً ليحكم تمبكتو باسم السلطان ولكنه شعر بالخيبة في تصوره قبول صنگاي هذا المظهر من السلطة التقليدية ، إذ رفضوا أن يطيعوا الملك الألعية وكانت نتيجة ذلك أن أتت الفوضى الإدارية فصارت أسوأ من ذلك في سرعة غير عادية ، هذا في الوقت الذي عينت فيه صنگاي الجنوبية — وهي بعيدة في أسفل النهر ولم يدركها الغزو بعد — ملكاً جديداً لنفسها . ومن ثم أصبح هناك ملك الألعية في الشمال وملك آخر في الجنوب .

وحينئذ أخرجت صنگاي — على حساب ثروة دولتهم — قائداً على جانب كبير من الشهرة هو اسكيانوح ، الذي نجح في تبين مدى الإنهيار الذي أصاب قوى الدولة ، وسرعان صارع محمود بجيش قوى ، فكان

هذا انتعاشا بارزا لصنفاى التى أصيبت بالتعفن فى كل وجه من أوجه لقائهما بالغزاة ، عرفوا خلاله أن لديهم فرصة ضئيلة ضد الأسلحة النارية التى يملكها العدو . فإلى جانب كون نوح قائدا ملهماً فإنه ولد ليكون قائدا من قواد حرب العصابات . فعرف تماما كيف يستفيد من المزايا الطبيعية لبلده وكيف لا يترك فرصة واحدة لإيقاع الخسائر بالعدو إلا انتهزها فمكنه هذا من أن يحتفظ بالمعركة ضد عدو تفوق قواته بكثير فى مدى الأربع سنوات التالية .

ولم يضع محمود أى فرصة فى محاولة ضرب القائد الجديد وكان نوح ينتظره فى دندى Dendi وهى منطقة مليئة بالأشجار تقع جنوب جرما وفى المعركة التى دارت سجل نوح إنتصارا ادبيا أذ شغل العدو يوما كاملا ثم انسحب انسحابا منظما . وعلمته الموقعة أن الإقليم المفتوح أكثر فائدة من المغارية الذين أعطوا حقلًا من النار يستطيعون منع عدوهم الدى الإستعداد من الإطباق عليهم وحين تعلم هذا الدرس الهام انسحب نوح نحو الجنوب إلى غابات بورجو Burgu .

وطارده محمود فى عزم وصعد نوح مع نهر مكون Mekon فى منطقة غزيرة المطر تكسوها المستنقعات المليئة بالملاريا تختلف من الغابات الكثيفة إلى الغابات المدارية .

وإلى جانب هذه المزايا التى كانت فى صف نوح كانت المساعدة التى تلقاها من السكان المحليين . باليرجاوا Burgara (أهل بورجو) وثنئون محبون للحرب ذوو خبرة طويلة بالإمكانيات الدفاعية الكبيرة لبلادهم . ولم يسبق لهم أن فقدوا إستقلالهم بالرغم مالا قوه من وقفات طويلة أمام ملك محارب قوى مثل سنى



على اسكيا الكبير<sup>(١)</sup> وقد كرهوا الصنغاي كما فعل بقية جيرانهم الشماليين  
جلابي العبيد، ولكن في وجه العدو المشترك الذي قدم إليهم من وراء الصحراء  
لم يترددوا في الوقوف إلى جانبهم .

في هذه الظروف لا يدهشنا أن نجد محمود قبل إنقضاء مدة طويلة  
بأسف أن سمح لنفسه بأن يتورط في بورجو، إذ لم يكن للمغاربة تجربة  
ما في القتال خلال الأشجار فكانوا أن وقعوا فريسة سهلة للحركات غير  
النظامية التي أتقنها أعداؤهم . فسواء كانوا في المعسكر أو خلال السير لم  
يتمكنوا من الراحة، إذ توالى عليهم الهجمات المفاجئة من جميع النواحي .  
سواء في النهار أو الليل حتى ذهبت قوتهم وتحطمت روحهم، واضيفت إلى  
حالتهم البائسة عوامل الجو الرطب والأكل الغريب والماء الفاسد، التي  
تكاثفت لتقتضيهم ضريبة باهظة من الرجال، كما قضى ذباب التسي تسي<sup>(٢)</sup> على  
خيولهم وكانت منعصاتهم هي نفس تلك التي وقعت في وجه الاحتلال  
العملي لمنطقة الغابات بواسطة القبائل السودانية التي تعمل في غارات الرقيق،  
والتي أغلقت داخل غرب إفريقيا لقرون امام مراكز تجارة الأوروبيين  
على ساحل غانة فالغابات لا تخترق من الشمال كما هي من الجنوب .

ومضت سنتان قبل ان يرغم الاجهاد التام للجيش وانعدام قدوم المدد  
من مراكش، القائد محمود على ان يتبين عدم جدوى الإستمرار في القتال .

---

( ١ ) شهد لوجارد الذي كانت له اتصالات شخصية مع البورجاوا بنجاحهم الحربي  
الذي يعزى أولاً إلى معرفتهم بالسحر، وسمهم المميت الذي يغمسون فيه سهامهم ثم إلى حركاتهم  
الحربية وخاصة سيادتهم لفن حرب العصابات وحبهم لغزوات الليل ( المجلة الجغرافية مجلد ٦  
١٨٩٥ ص ٢١٩ ) :

( ٢ ) في الأيام الحديثة أصبحت منطقة نهر ميكون خالية من السكان تماماً بسبب مرض  
النوم الذي تحمله ذبابة التسي تسي .

فأرسل رسالة إلى الشريف لا تختلف كثيراً عن تلك التي أرسلها جودر ولم تصدق. ولحسن حظه بدأ المنصور يتبين أن القتال في قلب إفريقيا ليس أقل سهولة مما ظن أولاً، هذا بالإضافة إلى أن تحمل محمود وصبره قد أكسباه الإحترام، فقرا حساب الباشا عن شروط جنوده والتقدير الياثس للموقف بمزيد من العطف والتفهم أكثر مما أظهره لجودر في مثل هذه الظروف، فأرسل في الحال إلى محمود قوة قوامها ١٥٠٠ من الفرسان ومثلها من المشاة وخمسمائة من الإحتياطى، وقفناها بفرقتين اثنتين صغيرتين قوامهما اربعمئة رجل .

وإذا ما وصلت هذه الفرق الجديدة إلى محمود، كان هذا قد فكر في أن لا يضع أى وقت آخر في الإقامة في بوجو، وفي نهاية سنة ١٥٩٣ ( ١٠٠١ هـ ) انسحب على طول الضفة اليمنى لنهر النيجر إلى تمبكتو وبعد أن ترك حامية في جاو .





## سقوط صنغاي

يبدو ان الحملة الناجحة التي قادها المغاربة عبر الصحراء قد انهكت قوتهم وقدرتهم على التنظيم ، فحاجة السودان الملحة إلى القوة افقدتهم سريعا ميزة الاسلحة النارية التي اعطيت لهم . فبدلا من ان يستغلوا الخلافات القبلية التي فرقت اعداءهم ، انصرفوا إلى معارضة ومقاومة كل من قابلهم . ونتيجة للضعف وسوء القيادة انقسم الجيش إلى حاميات صغيرة معزولة، فأخذت قوة الحملة في التحلل وتحولت الحرب إلى مذابح وحشية تبعثها إنتقامات دنيئة .

وقد تكونت شعوب غرب السودان من خليط من العناصر ، فكثرة تعدد القبائل المتعادية والنابعة من اصول عديدة ، كذلك إختلاف العقائد الدينية واختفاء الحدود الجغرافية الطبيعية، كانت كلها تكون بعض العوامل التي تعاونت لترمى بالبلاد إلى الفوضى عقب إرتقاء اليد التي كانت تمسك بالسلطة المركزية القوية .

وكانت النتيجة الطبيعية لهزيمة جيش صنغاي في تنديبي هي إنطلاق الفوضى واعمال السلب على نطاق واسع ، فهروب الملك اسكيا اسحق وقواته الممزقة كانت بمثابة علامة للعناصر المتصارعة لتفقد رباطها وتنقلب إلى فوضى تشمل اجزاء الدولة الممزقة التي لم تشعر بعد بأثر مباشر للجيوش الغازية .

فالقبائل التي كانت خاضعة لوصاية صنغاي بهرها ما تمتعت به من حرية غير منتظرة ، فتركت نفسها على سجيته إلى اقصى ما تملك فانقض الفولاني

والزجرانا على فلاحى الصنغاي فى منطقة البحيرات شمال تمبكتو ، فنهبت منطقة جنى الوافرة الزوة من طرفها إلى طرفها الآخر بواسطة ( قطعان ) قبائل بمبارا الوثنية وغدا الطوارق أكثر قوة ووحشية فى غاراتهم على المناطق المزروعة الغنية ، وكتب السعدى أن القوضى أخذت محل الأمان ، والفقر مكان الزوة . والبؤس والنكبات والعنف عقببت الهدوء . وفى كل مكان افنى الناس بعضهم البعض . وانتشر النهب فى كل ركن ولم تترك الحرب الحياة أو الأملاك أو الأشخاص ، وسادت القوضى وانتشرت فى كل مكان بل انبعثت قوة إلى أقصى الدرجات .

وفى خلال العصور المدونة كان الطوارق دائماً خطراً مهدداً للشعوب المستقرة فى منطقة وسط النيجر ، ولكنهم أكثر تهديداً لسكان تمبكتو . الذين كانت ثروتهم اشد ما يجذب محاربى الصحراء . وبسبب موقعها على حافة الصحراء كانت تمبكتو دائماً فريسة سهلة لغاراتهم المفاجئة غير المنتظرة ، حتى لقد أصبحت طادية لجميع أعمال المدينة التى أصبحت تدار داخل البيوت أفضل من خارجها .

لم يكن الطوارق بطيئين فى الاستفادة من حالة القوضى التى تبعت الغزو المغربى . فبينما كان محمود مشغولاً بحروبه غير المثمرة على بوجو ، وصلوا إلى تمبكتو ونهبوها وبدأوا بأن أغاروا على الحامية المغربية، ثم تحولوا فجأة إلى جانب المغاربة ضد الأهالى . وكان الآخرون قد تعودوا على استعمال السلاح دفاعاً عن أنفسهم ، فقاموا فى قوة طارئة ضد الحامية المغربية التى لم يخلصها من الفناء الكامل إلا وصول قوة النجدة التى بلغت ثلاثمائة من حملة الأسلحة النارية بقيادة القائد مامى بن بارون Mami ben Baron الذى أرسله محمود إلى النيجر لإنقاذ تمبكتو . وكان مامى — ونحن لا نعرف أصله وإن كان يظن أنه أوروبى — أحد الرجال القلائل الذين



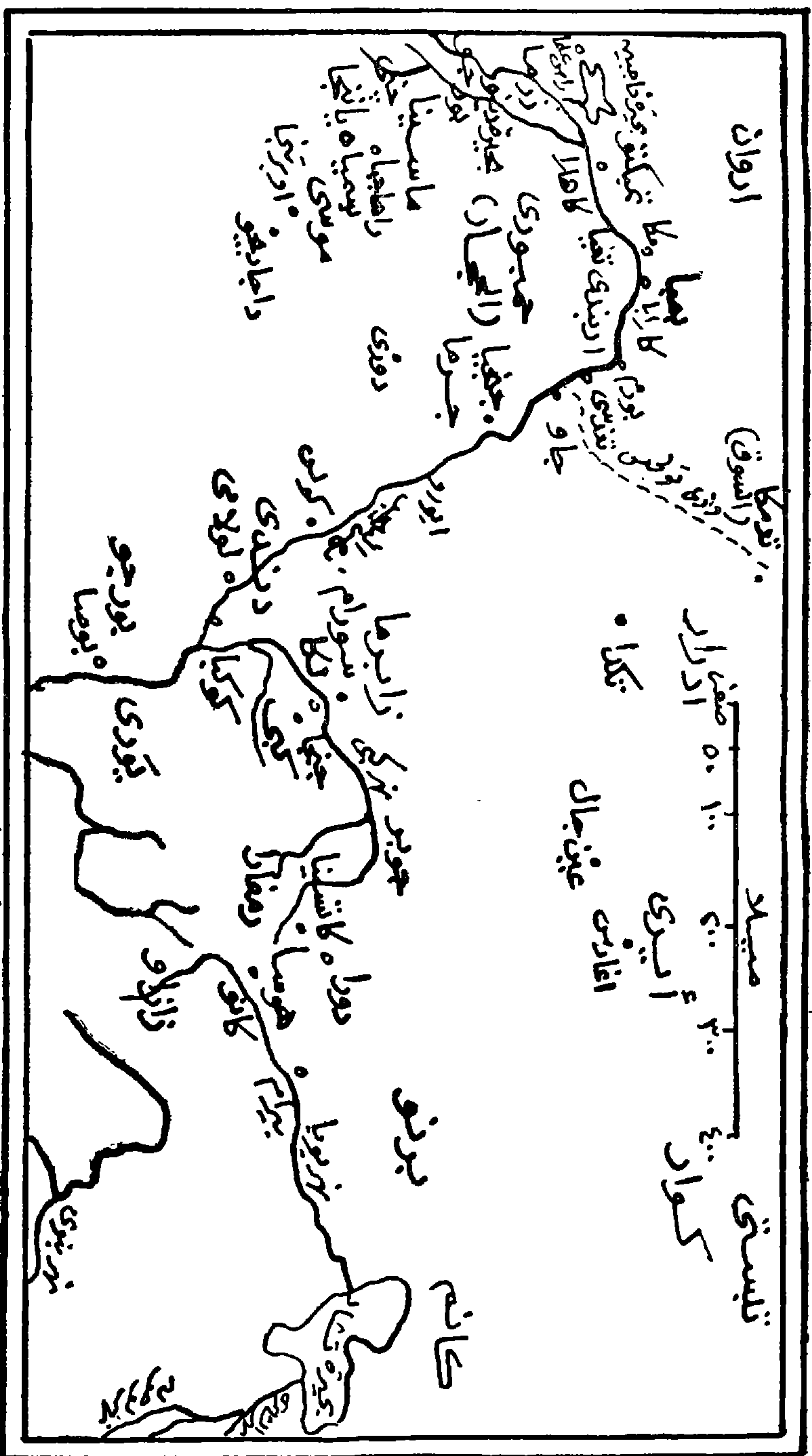
أرسلهم المنصور إلى السودان وأظهروا العطف على السودانيين أو الذين تبينوا الحاجة إلى كسب ثقتهم . فبالرغم من أنه ذكر أنه يستطيع أن يقتل كل نفس حية في المدينة ، فإنه أظهر الاعتدال إلى حد أن عطفه بدا على سكان المدينة أكثر مما بدا على مواطنيه . وأصر على أن يدفع نقداً ثمن كل ما يلزم جيشه من مؤونة ، بل اعتذر إلى أبي حفص عمر عما ارتكبه الجيش المغربي ، وكان هذا كله مختلفاً تماماً عما لقيه الأهالي سيئو الحظ على يد الغزاة . إلى حد أن المرارة التي فرقتهم اختفت تماماً . وعادت ثقة الجماهير وأقسم الناس يمين الطاعة للسلطان . وعاد الهاربون من الصحراء . وفتحت طرق التجارة وأصبحت الحياة في المدينة عادية .

وكان العلماء والتجار في جنى يرقبون الحوادث في تمبكتو بقلق ، لأنهم عرفوا أن الحماية التي منحها الأنهار والمستنقعات لهم لن تستمر طويلاً . ورأوا معاملة مامي الكريمة غير المنتظرة لثوار تمبكتو ، وأسرعوا يقدمون خضوعهم وقبل منهم هذا الخضوع وحددت ضريبة المدينة بستين ألف مثقال من الذهب (٢) .

وأدرك مامي أن لا أمل مطلقاً في اقرار السلام في تمبكتو أو أي مكان آخر في النيجر الاوسط ما دام الطوارق لم يخضعوا فأرسل ، حملة تأديبية تؤدب قبائلهم التي سببت هذه الاضطرابات ، وبمساعدة البدو الأصدقاء — الذين كانوا هدفاً للثوار على ما يظن — قبض عليهم وقتل كل رجالهم وباع نسائهم وأولادهم رقيقاً . وسبب ذلك هبوطاً ملحوظاً في أسعار الرقيق حتى لم يعد العبد يساوي أكثر من بنسات قليلة . هذا بينما قامت فرقة

---

( ١ ) وفيما بعد اتخذ ولد المنصور مولاي زيدان لقب ملك جاو وتمكنو وجي . ويظهر ذلك أن جي كانت أكثر أهمية مما يوحيه دورها المعتدل في تاريخ السودان المغربي .



نقشه هرات و امارت ننگرهار



أخرى من طوارق صنهاجة القوية نائرة على مامي وهجمت على إحدى الحاميات المغربية وأبادتها . ولم ينقذ الموقف إلا وصول نجدة مكونة من عشرين ألفاً من مراكش . وحتى عردة محمود من الجنوب في نهاية سنة ١٥٩٣ ( ١٠٠١ هـ ) لم يكن المغاربة بقادرين على الانتقام لأنفسهم حين أبادوا كل صنهاجة المجرمة .

وأعطيت الأوامر إلى محمود أن ينطلق بمحض حريته ليصنع خطة دقيقة لنهب تمبكتو ، وبذلك لم يكسب شيئاً من الحملات وما سلمته جاو من فدية قليلة ذهب كله إلى جودر ولم يوجد في قرى بورجو الفقيرة شيء مطلقاً . وأخيراً جاءت الفرصة لمحمود ليعتصر من تمبكتو كل ما يستطيعه ، فأرسل من يخبر السكان أنه سوف يفتش المدينة بيتاً بيتاً عن السلاح . فيما عدا بيت واحد هو الذي يملكه أبناء سيدي محمود الصالح أحد قضاة تمبكتو السابقين . فاندفع كل من يدعى القرابة إلى أحد أبناء هذا الرجل الصالح إلى البيت يضع فيه كل ما يملك من ثمين . لئلا يسرقه القادمون إذا ما ترك بيته لهم ، وبعد إجراء التفتيش دعى أبناء المدينة للاجتماع بمسجد سونكور ليقسموا يمين الولاء للسلطان وإذا ما انتهوا من ذلك طردوا . ثم دعى أبناء سيدي محمود ، وأغلقت أبواب المسجد عليهم في الوقت الذي فتشت منازلهم ونهبت كل ثروة تمبكتو ، واغتصبت نساؤهم وقتل كثير ممن سجنوا في المسجد . ومن بين المنهوبات احتجز مائة ألف مثقال من الذهب للسلطان .

وقبل أن يسلب محمود تمبكتو كان الناس وقد يئسوا من العودة إلى المعاملة الحرة التي تلقوها أيام مامي ، كما تركوا أيضاً كل أمل في الخلاص من الاضطهاد العنيف الذي تحملوه وفي نهاية سنة ١٥٩٢ ( ١٠٠٠ هـ ) أرسل أبو جعفر عمر بشجاعة رسلاً إلى مراكش ليضع أمام المنصور صرخات شعبه المنهار طالبا الرحمة . ولدهشة الرسل استقبلوا في القصر السلطاني استقبالا وديا ، وأعيدوا معهم وعد بأن

يصفح عن أخطائهم ، وصحبهم في عودتهم قاض يسمى بوختيار<sup>(١)</sup> وصف بأنه ولد أمير مسيحي من بين أسرى الغارات، يحمل أمراً بحسن المعاملة لعمر وشعبه. ولكن عندما وصلوا إلى تغازة عرفوا أنهم خدعوا خدعة كبرى. إذ كان المنصور قد أرسل من وراءهم رسولا بأوامر تختلف عما حملوه . تقضى بالقبض على عمر وعلماء تمبكتو . وعرف الرسل أنهم وضعوا في القيد . وبعض أشهر قليلة تقرر إرسال السجناء ومعهم أسراتهم وكتبهم وما يملكون إلى مراکش عبر الصحراء . ولما كانوا ينتمون إلى الطبقة المثقفة الثرية، فإنهم لم يتحملوا وعورة الطريق والرحلة التي أرغموا على القيام بها . لا سيما وأنهم كانوا قد أصيبوا بالضعف من جراء الأشهر التي قضوها في السجن مثقلين بالسلاسل . كما أن عمر المسن قد أصبح مريضاً .

وليس لدينا أية وثائق عما قاساه المتعبون أثناء سوقهم في الصحراء . أو عدد من بقي منهم ، ولا يستطيع الإنسان أن يشك في أن من ماتوا منهم كانوا كثيرين، لا سيما من بين النساء والأطفال، وبالرغم من صحته المعتلة وسنه الكبير فقد أكمل عمر الرحلة وكذلك أحمد بابا المؤرخ المشهور الذي جاء ذكره كثيراً والذي لم يبق من أعماله شيء .

وقد أثارت معاملة محمود باشا لصنغاي سخط بعض ضباطه . من بينهم أحمد بن الحداد أحد القواد الذين صحبوا جودر إلى السودان . وبعد القبض على عمر وصحبه أسرع هذا الضابط الشجاع وانسل سراً إلى مراکش من أجل أن يرفع إلى السلطان سلوك الباشا المشين . وتأثر المنصور كثيراً عند مماعه المدى الذي أساء فيه محمود استعمال قوته . ومن إندفاعه وقسوته ومن

---

(١) كان بوختيار يقود مددا عدده ألمان ومثتان . وقد أظهرت التجارب غبارة محاولة إرسال فرق كبيرة العدد معا عبر الصحراء . وسارت الحملة في فرقتين منفصلتين ليستفيدوا قدر الطاقة من الماء اليسير والمراعى الفقيرة في الصحراء .



عادته في التصريح بأن السيف هو سلطانه، ولكنه في نفس الوقت لم يبد أنه قد قد نوى أن يستبدل بمحمود أحداً حتى يصل عمر وصحبه ، لما علم من القائد أن حصته من الغنيمة كانت مائة ألف مثقال من الذهب . وعندما سمع ذلك أرسل في الحال إلى السودان القائد منصور بن عبد الرحمن يحمل الأوامر أن يتسلم هذا النصيب من محمود ويقتله .

هذا بينما كان محمود الذي كان على أية حالة قائداً مهذباً في الواقع ينفذ اتفاهه مع نوح بنشاط ملحوظ ، وكان كل مجرى النهر من جنى إلى جاو في يد المغاربة . وكانت جاو في يد جودر القوية وكان منذ أن عزل من القيادة العليا مداوماً على أن يظهر نفسه قائداً كفئاً . ولم يستطع نوح أن يوجه تهمة إليه ، فترك وادى النيجر وتقهقر إلى منطقة جبال حمبوري Hombori موطن التومبو Tombo وهي قبيلة محاربة عرفت ولا شك كيف تدافع عن استقلالها حتى القرن العشرين . ولم ترق هذه الحركة لمحمود لأن الدفاع عن جبال حمبوري كان سهلاً كما انها بعيدة عن تمبكتو . فبينما كان الباشا يحاول إخراج نوح من موطنه الجبلى ، تلقى تحذيراً رقيقاً من مولاي أبو فارس أحد أبناء السلطان عن المصير الذي سوف ينزل به ، إذا ما وصل منصور ورأى محمود أن الهرب مستحيل فشن هجمة صاعقة على العدو لى فيها مصرعه النبيل . وهو ما كان يبحث عنه . وتبعه عدوه محمود إلى القبر بعد ذلك بقليل ، إذ قتل هو الآخر في هجمة قادها منصور على معقل حمبوري .

وفي تاريخ الحملات المغربية ان تجد قائداً خدم دولة بمثل ما خدمها باخلاص كل من محمود ونوح ، ففي خلال السنوات الأربعة التي كانا فيها على رأس الجنود كانت الحملة تسير إلى أهدافها بعزم من الجانبين ، وهو أمر لم يكن معروفاً خلال الفترات الأولى من الحرب . وبالرغم من ان العار والموت منعا محمود من النصر النهائي . فإنه كان أنجح قائد مغربي وإن كان قد فشل

كإدارى بسبب إندفاعه وقسوته . ولكنه — مثل من سبقوه وأغلب من تبعوه — كان الاستبداد مظهر حكمه الوحيد ولم يعرف غيره . وعلى المستويات المغربية كان قائداً عظيماً وواحداً من قليل من الجنود المخلصين الذين كانوا في خدمة المنصور، وكان موته أقل خطراً على المغاربة من موت نوح على صنهاى .

إذ على أثر موت نوح إنهارت المقاومة المنظمة ، وأصبح إنهاء دولة الزوج الكبيرة حقيقة كاملة ، ولكن شعب صنهاى كان آخر من يسمح بذلك ، إذ أن روحهم لم تحطم وكرهيتهم للغزاة لم تذهب ، ولم يكن لدى المغاربة ما يجعلهم راضين ، إذ لم يعوض حملة أسلحتهم النارية رغم قلة عددهم ، كما إنهارت مقاومتهم للأمراض الإدارية وعدم كفاءتهم كإداريين ، وأكثر من هذا كله لانتساع الدولة التي حاولوا إخضاعها، ورغم أن أهل صنهاى قد أصبحوا صرعى فإن المغاربة لم يصبحوا سادة الإقليم إذ أن سلطتهم لم تتجاوز ضفتى النيجر الأوسط، وعلى طول مجراه لم يأت احتلالهم العسكرى بنتيجة فى السيادة الإدارية، الأمر الذى بدونه يصبح الفتح والغزو لا يزيد عن أن يكون ادعاء .

والمطالب الثقيلة التى اقتضتها الحملة من مراکش لم تنته بموت أسكيا نوح . فبسبب بعض الإهمال غير المفهوم من السلطان تصارع كل من جودر ومنصور عن أى منهما يخلف محمود باشا . وعندما رفع الخلاف إلى المنصور أصبح الأمر أكثر سوءاً حين عين منصوراً قائداً عاماً للحملة وجودر حاكماً مدنياً . مما زاد من منافستهما وعداوتهما . ولم تنته الفوضى التى نتجت إلا بعد موت منصور ، وأغلب الظن أنه مات مسموماً بواسطة جودر ، ووقع نفس المصير للقائد الذى أرسله السلطان ليحل محل منصوراً ، فى الوقت الذى كان فيه جودر يمارس السلطة العليا فى السودان، وبالقرب منه يوجد منافس آخر



لا يستطيع أن يصل معه بسهولة إلى استقرار كما وصل مع الآخرين ، وهو القائد المصطفى الذي حكم تمبكتو لعدة سنين والذي كان مسئولاً إلى حد كبير عن الارتباك الذي حدث في المدينة والذي لم يكن له نهاية. وآخر أعماله كانت محاولته أن يزيج جودر ليأخذ مكانه . ولما كان الأخير غير قادر على عزل منافسه اتفق معه أن يترك الأمر للجيش لتضع حداً له . وانحاز أفراد الجيش لجودر ولكن ما كان أكثر أهمية من قرارهم هو تحقيقهم الفجائي أنهم أصبحوا الآن أسيادها وهذا هو ما كلف مراكش السودان .

استخف جودر بالمصطفى ، وبدا له أن افضل ما يستطيعه هو ان يطرح عنه سلطة السلطان وينادي بنفسه حاكماً مستقلاً. والواقع أنه لم تكن له مثل هذه الأطماع، بل كانت رغبته الوحيدة أن يترك وحده ليحكم البلاد بالطريقة التي يعتقد أنها تفيد اهتمام السلطان بينما كان الآخر يعتقد عدم جدوى إرسال قواد آخرين ليصفهم جودر ولذا رضى بعودة جودر إلى المكانة العليا التي كانت له من قبل عندما عينه قائداً طاماً لجيش الصحراء . وهكذا كانت قصة علاقته بالخصي الأسباني الذي استدعاه إلى مراكش ليحطم ثورة كانت تسبب له قلقاً كبيراً ، ولكن جودر - الذي أصبحت ثقته في نفسه لا تقف عند حد - رفض أن يترك السودان حتى يصل حاكم مختص يأخذ مكانه . فأرسل المنصور قائدين مدنيين أحدهما برتغالي ، ولكن لما كان جودر لا يعتقد في إمكانهما إثبات قدرتهما لمواجهة أى هجوم كان يعتقد أن مندنجو مالى يجهزان للبدء به ضد الدولة، فإنه رفض ان يسلمهما السلطة . فأرسل المنصور بعد ذلك عمار باشا وهو خصي برتغالي صغير السن كان قد ذهب قبل ذلك إلى السودان قائداً لفيلق من الف من المدد، فقسمه إلى قسمين كل منهما خمسمائة، وجعل كلا منهما يتبع طريقاً مختلفاً عن طريق الآخر كعادة الجيوش الكبيرة حين اجتيازها الصحراء ، ووصل الأولون إلى تمبكتو بسلام ولكن الأندلسيين هلكوا حتى آخر رجل.

وبالرغم من هذه الحادثة، كان جودر غير مقتنع بما فيه الكفاية بأن يسلم السلطة لعمار واعادته إلى الوطن . وقد أرسل جاسپر تومسون Jasper Thomson —وهو تاجر بريطاني كان يعيش في مراكش في هذا الوقت — رسالة خاصة إلى أحد أقربائه في لندن ينبئه بعودة جودر باشا إلى الوطن و كان تاريخ هذه الرسالة الرابع من يوليو سنة ١٥٩٩ يقول فيها .

( منذ ستة ايام وصل رجل نبيل من جاو يدعى جودر باشا، وكان قد أرسله الملك منذ عشر سنين ليغزو هذه الدولة . التي فقد فيها كثير من أبناء هذه الدولة (مراكش) حياتهم . وأحضر معه ثلاثين جملاً محملة بالتبر . وهو ذهب غير نقي (و فرق السعر هو ستة شلنات في الأوقية الواحدة بينه وبين الدوكات) وكية عظيمة من الفلفل وقرون الوعول ونوعاً من الخشب للصناعة . تبلغ ١٢٠ جملاً . وقدمها جميعاً إلى الملك . ومعها خمسون حصاناً وعدد كبير من الخصيان والأقزام والرقيق رجالاً ونساء . إلى جانب خمس عشرة من بنات ملك جاو، أرسلهن ليكونوا محظيات للملك ، ويجب أن نلاحظ ان كل هؤلاء من ذوى الشعر الأسود الفحمرى لأن هذا الإقليم ليس فيه غير هؤلاء<sup>(١)</sup> .

وقد قدر طومسون حمولة الثلاثين جملاً ذهباً ب ٦٠٤,٨٠٠ جنيها ولم يكد جودر يترك السودان حتى انفجرت غزوة المندنجو، واخذ الثأرون ولكن بكل صعوبة وبذلك تجنببت ثورة طامة للقبائل . وبالرغم من هذا فإن

---

( ١ ) كان الفلفل من فلفل مالا جويينا أو الشيلي وأطلق عليه البعض اسم حبوب الجنة، ومن هذه الحبوب اشتق ساحل غانة اسمه ، وقرون الوعول ربما كانت قرون فرس النهر واحتمال أن تكون قرون غزلان غير مقبول لأن الغزلان كانت كتيرة فى الصحراء وقرونها ثمينة جداً فى مراكش .



الموقف لم يعالج تماماً بواسطة عمار، إلى حد أنه استدعى وحل محله سليمان باشا : وكان آخر وأفضل من عينه المنصور في هذا المنصب ، ويختلف عن سبقوه في أنه كان إدارياً مثقفاً ، وتبين حاجته إلى كسب ثقة السودانين فنقل حامية تمبكتو إلى خارج المدينة ، وبذا جنب سكانها النهب والسلب اللذين كان الناس ضحية لهما لمدة طويلة ، ولنفس الهدف أخضع الجيش كله لنظام قاس لم يعرفه منذ أيام محمود ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح السودان أقل سخطاً وأكثر سلاماً مما عرفه المغاربة ، ولسوء الحظ كانت مدة هذا السلام الذي ساد بين الصنغاي والمغاربة قصيرة وانتهت ب وفاة المنصور في أغسطس سنة ١٦٠٣ م ( ١٠١١ هـ ) .

وحاول كل من أبناء المنصور الثلاثة الاستيلاء على العرش . ف وقعت مراكش من نصيب أصغرهم زيدان الذي تغلب على أخويه ولكن بعد سنين من الحرب الأهلية، وقبله جيش السودان في الحال خليفة شرعياً لوالده، ولم يفده هذا أو يفد الجيش في شيء.. إذ كان مشغولاً إلى أقصى الحدود بالفوضى وعدم استقرار مركزه ، ولذا لم يفكر كثيراً فيما كان يجري وراء حدود الصحراء . كما أن فرقه المخلصة هناك لم تكن لتفيده في شيء من أجل التغلب على مصاعبه الداخلية .

و كنتيجة لاستدعاء سليمان باشا ، بعد موت المنصور مباشرة ، تدهور الموقف في السودان إلى حد أن أصبح موضع شك أن تظل السلطة الشريفة مستقرة . إذ تارت الطوارق والصنغاي والفولاني . ولم تسحق أية واحدة منها تماماً بسبب الحالة المؤسفة التي وقع فيها الجيش .

إذ اهتم الجيش — الذي كان منقسماً على نفسه — بالقتال بين فرقه المختلفة . أكثر من مقاومة أعداء دولتهم . وفي سنة ١٦١٠ ( ١٠١٨ هـ ) أخرج محمود

( م ١٥ — المالك الإسلامية )

لونكو Mahmud Lunko خليفة سليمان بواسطة أحد قواده على التلمساني الذي أعلن نفسه باشا من بالرغم من إرادة السلطان . واخيرا عندما شعر مولاي زيدان بنفسه آمناً ما في الكفاية في الداخل ، حاول أن يقيم الأمر في السودان . فأرسل عمار باشا من جديد ليرى ما يستطيع ان يفعله <sup>(١)</sup> . فرأى عمار أن السودان يعج بالثورة والجيش عاجز عن السيادة على الموقف إلى حد أن قتل على التلمساني لم يكن ذا اثر في إعادة أى بادرة للنظام . وفي سنة ١٦١٨ ( ١٠٢٦ هـ ) حين وصل عمار إلى مراکش ليخبر مولاي زيدان صمم نهائياً على أن يخلى نفسه من هذه المهمة الغالية التي أغرق فيها المنصور بلده منذ ثمان وعشرين سنة <sup>(٢)</sup> .

وأصبح مغاربة السودان أسياد الموقف حين أصبحوا يختارون بأنفسهم حكامهم من الباشوات والقواد وأطاعوهم كما اشارت إليهم ميولهم . وعزلوهم عند أول بادرة . واختاروا أيضاً ضباطهم من بين الجنود الذين ارسلتهم مراکش ، وإذا لم تجد من يملأ هذه المناصب اختارت من يشغلها من بين الخلاسين الذي اطلقوا عليهم اسم ارما Arma وكان هدف كل قسم من اقسام الجيش الثلاثة ان يحتفظ لنفسه بمنصب الباشوية ليشغله أحد ضباطه ، وكان المم الأول للباشا أن يرضى جشع القسم الذي يدين له بمنصبه ، والفرص التي اعطيت إليه ليربح ربحاً شخصياً مهما كان الثمن . وأصبح السودانيون المساكين الضحايا الدائمة لكل أنواع التشكيل التي لم يستطيعوا

---

( ١ ) كان يصحب عمار باشا إلى السودان رفيق فرنسي هو البحار بول امبرت Pual Imbert وسوف نشير إليه فيما بعد .

( ٢ ) بالرغم من هذا ادعى الملك محمد الخامس في سنة ١٩٥٨ أن حدود دولة تمتد حتى السنغال وتشمل تمبوكتو .



المهرب منها . فإذا بدأ الباشا يشعر بنفسه غير آمن ، لا يتردد في أن يدعو الطوارق لنصرته . وكانت مكافأتهم التقليدية لإطلاق الحرية لهم في نهب الزراع من الصنغاي ، وأدت القوضى وعدم الأمان تلقائيا إلى تدهور المدنية والمجاعات المخربة .

وظلت تمبكتو عاصمة المغاربة ومركز الملك الدمية الذي أصبح تحت رحمة الباشا . وبقيت الحاميات التي يقودها القواد في جاو في حالة مستمرة من الثورة وكذلك في بمبا وفي جنى . ولأسباب دينية بحثة يحسن أن نظن أن سيادة السلطان كانت اسمية بحثة ولكن يعترف بها في صلاة الجمعة حين يذكر اسمه في الخطبة . ويبدو أنهم كانوا يرسلون له بالضريبة . ويخبرنا فرنسي عاش عدة سنين في مراكش في منتصف القرن أن ملك جاو — وهو يعني ولا شك الملك الالعوبة — كان يكن احتراماً كبيراً للسلطان إلى حد أنه أكد لنا (المتحدث) أنه يرسل بجزية إلى ملك مراكش ، ولكني لم اصدقه إذ أظن أن الأمر لا يتعدى الهدايا . وفي سنة ١٦٦٠ م ( ١٠٧٠ هـ ) حذف الباشا الحاكم محمد الشتوكي Muhamed ech chetuki اسم السلطان من الخطبة ووضع اسمه مكانه . وبعد بضع سنين أصبح الأرمبا كما أصبح المغاربة في حالة من الضعف سمحت لتبكتو أن تقع في أيدي الجبارا الوثنيين من سيجو . وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو انهاء السيادة السياسية للمغاربة .

وفي هذا الوقت ترك السعديون الحكم للحسنين . واضطر مولاي الرشيد ثالث خلفاء هذه الدولة الجديدة إلى أن يصرف جل مدته في مصارعة المنافسين الأقوياء الذي أرادوا إعادة السعديين ، وكان أكثرهم خطراً هو علي بن حيدر الذي اضطره السلطان الجديد إلى الهرب من البلاد تصحبه قلة من انصاره يبحثون عن ملجأ لهم في السودان ، حيث دخل في حاية ملك الجبارا

في سيجو — بعد أن أهدى له عذرائين اندلسيتين — وأخذ سيد تمبكتو الجديد لساعته يجمع جيشاً خاصاً خرج به في سنة ١٦٧٢ (١٠٨٢ هـ) يقصد مراکش لينتقم لنفسه من الرشيد . فوصل ليجد أن السلطان قد مات — ولم يكن هناك من سوء تفاهم بين علي بن حيدر ومولاي اسماعيل الحاكم الجديد . والذي سبق أن اعتزل السياسة واستولى الأخير على جيشه الذي كونه على هيئة الحرس البراتوري وبذلك أصبح العبيد الزوج المشهورون أو البخاري Bokhari الذين قدر لهم في الأيام الأخيرة — على مثال الممالك في مصر — أن يكونوا اصحاب الأثر الكبير في الحياة السياسية في مراکش .

ووجد اسماعيل بسرعة أن هذه الثروة الزنجية — بسبب بعدها على السياسة المحلية — كالفرنجة البيض الذين كانوا في الأيام الأولى ، عماد جيشه الرئيسي، فسر من ذلك إلى حد أن زاد من قوتهم بأن ضم إلى صفوفهم جميع الحارثيين Haratin الذين يمكن أن يخدمهم ، ونسل الزوج الذين أرسلهم جودر وغيره من الباشوات أسرى للمنصور . وشجع أيضاً جيشه الأسود على إنجاب الأولاد الذين مرنوا منذ طفولتهم على الحياة الحربية . مؤملاً أن تكون هذه الوسائل كافية لتحفظ قوتهم فأرسل ابن عمه أبو العباس أحمد إلى السودان ليرسل له المجندين وينظم إمداده بجماعات منهم بصفة منتظمة .

ووصل أحمد إلى تمبكتو في وقت كانت فيه الحياة غير محتملة لسكان المدن بسبب غزوات لصوص البرابي Berabish من الصحراء الغربية ضد من أهمل سادتهم من اليمبارا حمايتهم ، ورحبوا بأحمد — الذي كانت تصحبه فرقة مناسبة — كمنقذ لهم ، وبعد أن طردوا موظفي اليمبارا وباشر أحمد سيادته على المدينة باسم الشريف . وقضى بضع سنين هناك غزا في خلالها استناداً إلى العفراني — بعض الأقاليم المفقودة وبالرغم من ذلك يظن



أنه شغل نفسه بتجنيد الفرق السوداء للسلطان ، وفي عودته إلى مراکش ترك وراءه حامية لحفاظ على السلطة لسيده . ولكنها فشلت في صد الهبارا فدخلوا تمبكتو واختلطوا سريها بفرق الأرماء .

وفي هذا الوقت ارتفع الأرماء إلى مرتبة الضباط الأرستقراطية وتركوا لأمرهم إذا ما قاموا بدفع جزية معينة إلى سيجو ، فعاشوا بعد ذلك من بيع خدماتهم إلى الجماعات التجارية ، إذ كانت التجارة لا تزال متعشة ، وبالرغم من حالة الفوضى الضارية كانت جالية كبيرة من التجار الأجانب تعيش في تمبكتو يمثلون سوقاً تجارية في المغرب . وإذا فشل التجار في دفع الرسوم التي فرضت عليهم من الأرماء أصبحوا بدورهم هدفاً ، ولكنهم إذا دفعوا ما يطلب منهم حصلوا على ما يقابلها وبدأوا ينظمون انفسهم فرقا لحماية مصالحهم وقوافلهم . وحاجتهم — تحت حكم الإثنين من الرؤساء — كانت بالطبع مستديمة وكل قسم من اقسام الجيش الثلاثة له زبائنه المنتظمون الذين يستأجرونه كحرس لهم .

وبينا كان الأرماء في تمبكتو يعتمدون على التجار الأجانب الأثرياء كان جيش جاو يثبت وجوده في وجه اخطار جديدة ، فمنذ السنين الأخيرة للقرن السادس عشر تعرضت الحياة القبلية المثالية في وسط الصحراء للخطر — فطوارق كل أووى Kel Owi ، يساعدهم ماى إدريس علوما ملك بورنو، كانوا قد طردوا طوارق كل جرس Kel Gres من ايرى . وتسودوا طريق القوافل الهام الذي يربط الهوسا بغات . وتحرك الآخرون نحو الغرب إلى ادرار ايفوفاس Adrar of the Ifoshas يسوقون أمامهم العلوميديين Audimmiden وال كل تدمكت Kel Tedmkeket أقرباؤهم ولكنهم يعادونهم . واستقر الآخرون سلمياً بالقرب من تمبكتو ولكن قوى العلوميديون احتلوا المراعى التي حول جاو واستولوا عليها

بالرغم من الحامية الأرمية التي تغلبوا عليها ، وبالرغم من أن الأرماء استعادوا  
عاصمة صنهاى القديمة فإن قوة مقاومتهم أخذت فى الإضمحلال فالطريق  
من جاو إلى جنى كان يتسرب من أيديهم ، وفى نهاية القرن السابع عشر  
انتقلت جاو إلى يد العلوميين ولم تسترد بعد ذلك قط . ووقع قواد جنى تحت  
وصايتهم المستمرة من الببارا فى بعض الأوقات ومن القولانى فى البعض الآخر ،  
وفى بعض الوقت نجح أرماء تمبكتو فى الإحتفاظ بقدر من الإستقلال فى وجه  
الإعتداءات المتكررة التى شنها الطوارق لا الببارا الذين يبدو أنهم فقدوا  
الإهتمام بالمدن ، وهاجمهم فى المرة الأولى العلوميون ثم كل تدمكت ، وفى  
منتصف القرن التالى قاسوا على أيدهم الهزيمة التى لم يفيقوا منها أبداً .

وفى وقت سابق كان الأرماء يتصاهرون تدريجياً إلى السكان الوطنيين ،  
وظلوا كعشيرة أرستقراطية يدل مظهرهم على ما بقى من المهاجرين المغاربة  
للسودان وهم الذين كانوا دائماً من الأوربيين وما زالوا موجودين فى تمبكتو  
وجنى ولكنهم لا يميزون إلا بصعوبة من بقية السكان .

وفى النيجر الأوسط . لا يزال الأثر المغربى يبدو ظاهراً فى الفخار  
والملابس وطعام الناس . ولكن أنزهم الباقى كان فى فن البناء الوطنى وخاصة  
فى جنى حيث تقدم فن البناء كما هو الآن فى السودان الغربى ، وكان الثمن  
الذى دنع لهذه الأرباح هو فقد جملة سلالات من الشعوب المحبة للحرية ولكل  
شئ من أجل السعادة البشرية . وحين ينسى كل شئ عن حديث الغزاة  
الأسبان نخبرنا السعدى ، أن السودانيين يظنون يتذكرون الأمر المخيف ( قطع  
الرءوس ) وتظل قصة الغزو المغربى تمثل أحلك حلقة فى تاريخ القارة .



## السلطان الذهبي

شعر مولاي زيدان بن المنصور ١٦٠٣ - ١٦٠٧ ( ١٠١١ - ١٠١٦ هـ ) وخليفته بالخبية حين رأى قلة متركه له أبوه في خزائنه وشكى بمرارة ما استنفذته غزوة السودان من مصاريف باهظة . وذكر أنها قضت على ثلاثة وعشرين ألفاً من الجند ، ومات كل من ماد من السودان من جراء الأمراض التي حملوها معهم من هناك . إذ أظهرت خزائن أبيه الفارغة ماضيته تلك الحملة .

وذكر السعدي مؤلف تاريخ السودان ، وهو الذي جاز إلى الرجولة في وطنه تمبكتو خلال حملة الغزو ، أن ما استنفذ من الرجال والمعدات ذهب كله عبثاً .

وسخط كل من السلطان والسودانيين رغم اختلاف سبب السخط . وقد اخطأ كلاهما . لقد فشلت حملة السودان في تحقيق أهدافها من حيث السيادة على مصادر الذهب ، ولكنها زادت من ثروة المنصور الوافر الثروة ، حيث لم يعد آسفاً رغم أن قليلين شاركوه تفضيحاً به . وبالرغم من ذلك فإنهم أطلقوا عليه اسم الذهبي .

وفي أيام العفراني ، وهو الذي عاش بعد خمسين سنة من عودة الحملة ، نجد أن المغاربة مازالوا يتذكرون بالفخر الثروة التي انصبت إلى بلادهم كنتيجة للحملة .

( على أثر فتح ولاية السودان — تسلم سلطان مراکش من تبر الذهب

ما أوقع الإضطراب في الأنباع وأدهش المراقبين . ولم يعد المنصور يدفع مرتبات موظفيه إلا بالذهب الخالص ، ديتاراً ذا وزن طيب ووقف على باب قصره ألف وأربعمائة عامل يضربون كل يوم قطع الذهب . وفي ناحية أخرى كانت له كميات من المعدن الثمين التي كانت تصاغ حلقات وحليا . وكانت هذه الكثرة من الذهب هي التي أعطت السلطان اسم الذهبي .

وما ذكره العفرائي مؤيد بشهادة الأجانب الذي كانوا يعيشون في مراکش بينما كانت الحملة تسير إلى أهدافها التراجيدية ، ومن بينهم لورنس مادوك Laurence Madoc وهو تاجر بريطاني احتفظ بمكتبه الرئيسي في لندن . وأنطوني داسل Antony Dassel أحد أفراد الشركة البربرية ، الذي أخبر بوضوح عن الحوادث في مراکش . وهذا التقرير أرسل إلى لندن في أغسطس سنة ١٥٩٤ بعد عشرة أيام من وصول القاضي أبو جعفر عمر إلى تمبكتو ومعه الأسرى الآخرون الذين أرسلهم المنصور مقيدون بالسلاسل عبر الصحراء :

[ تسلمت خطابكم الأخير ووجدت فيه أنك تريد مني أن اكشف لك عن حالة تمبوتو Tombuta وجاجو Gago ربما لا تظن إنني انهمكت في هذا العمل في الوقت الذي تجد نفسك فيه قد توصلت إلى الحل الصحيح . وسوف تفهم أنه منذ عشرة أيام وصل إلى هنا كاهايا Cahaia أحد الأندلسيين عائداً من جاجو ومعه واحد من أعيان المغاربة . كان الملك قد أرسله من قبل مع القائد حمودة ( القائد محمود بن زرجون ) وأحضروا معهم ثلاثين بغلاً محملة بالذهب ، ورأيتهم بعيني قادمين إلى القصر . وهؤلاء أنفسهم ليسوا بفقراء بهذه الثروة إلى حد أنهم قدموا بغير أمر الملك . ولهذا السبب لن يدفع الملك لهم أجراً عن المدة التي قضوها هناك، ومن ناحية أخرى لم يجروا على أن يسألوا الملك أجراً ، وعندما رأى القائد حمودة أن الكاهابا



الاندلسى لن يقيم فى جاجو معه ، فكر جيداً فى أن يرسل معه هذه البغال الثلاثين المحملة بالذهب ومعه خطابات توصية عرف منها الملك مقدار ثرواتهم التى حملوها معهم . وكان هذا سبب سخط الملك عليهم ] .

ويبقى الآن فى جاجو القائد حموده والقائد جودر Jawdara والقائد اختيار ( بو اختيار ) ويوجد خمسة آلاف رجل معظمهم من ( الفتيلة ) أى حملة الأسلحة النارية والأقنعة على استعداد للرحيل من هنا فى آخر سبتمبر .

وكتب مادوك بعد ذلك فى نفس الشهر ثانية إلى راسل رداً على خطابه طالباً منه مزيداً من المعلومات عن نشاط المنصور فى غينيا .

[ تبلغ ضريبة تمبوتو ( اقرأ هذا الخطاب الثانى ) ستين كنتالا من الذهب سنوياً . وهو مبلغ طيب كما تعرف . وضريبة جاجو سوف يظهر وسوف تعرفه فى الربيع حين يعود القائد حموده إلى وطنه وتأتى ضريبة تمبوتو بواسطة القوافل وهو — كما ذكرت لكم أعلاه — ستون كنتالا .

ويقول التقرير أن محمد ( محمود بن زرجون ) أحضر معه مثل هذا الكثر غير المحدود الذى لم اسمع بمثله من قبل . ويبدو أن عندهم ذهب أكثر من أى جزء آخر من العالم ، وقد استولى القائد على كل الإقليم أينما ذهب بدون قتال وهو يتجه جنوباً ناحية شاطئ البحر . وملك مراکش هذا يبدو أنه أكبر أمير فى العالم من جراء هذا المال إذا حفظه لدولته ] .

وإذا كانت هذه البغال الثلاثون التى ذكرت فى رسالة مادوك الأولى حملت حمولتها العادية ، وهى سبعون كيلو التى يحملها حمار الصحراء العادى ، فالذهب الذى حملته على ظهورها يصل إلى سبعين ألف أوقية وسعر الذهب غير النقى مقدراً بالجنيه الإنجليزى هو خمسون شلناً للأوقية . وعلى ذلك يحتمل أن تكون

قيمة هذا الكنز ١٧٥ ألفا من الجنيهات . وهي كمية كبيرة من المال في هذه الأيام . وتقدير قيمة ضريبة تمبكتو السنوية بستين كنتالا من الذهب يصل إلى ١٥٠ ألفا من الجنيهات، وتقدر ضريبة جاو بحمولة ثلاثين بغلا أى حوالى ١٧٥ ألفا . ولكن دخل المنصور من البلاد المفتوحة كان غير محدود بالضريبة المدفوعة إليه سنويا . فمثلا يجب أن نذكر أن جاسير طومسون البريطانى الذى كان فى مراکش حين وصل جودر عائداً من السودان، قدر الذهب الذى حمله الباشا معه ٦٠٤ر٨٠٠٠ جنيها وفى سنة ١٦٠٧ حين سادت الفوضى فى كل من مراکش والسودان عقب موت المنصور، لابد أنها هزت كميات الذهب الذى كان ينصب إلى الشمال إلى مراکش . فقد ذكر رجل فرنسى، أن هذا الكنز الذى يعادل ٤ر٦٠٠ر٠٠٠ جنيها كان ينتظر من جاو وتمبكتو وكله من تير الذهب .

وتقدير كل واحد من هذه الأرقام لا بد أن يكون أكبر من أن يشك فيه ، ولكن فالمصادر التى استقيت منها لا بد أن تبرر التقدير فى أن السودان كان يدفع — لمدة سنتين على الأقل — كميات طيبة . من هذا الذهب الكثير الذى كان ينصب على الخزائن ، فاستطاع المنصور أن يزيد مصاريفه المبذرة التى أتاحها له من قبل انتصار المغاربة فى القصر الكبير فى بدايه حكمه . ولكن التجربة علمته أن يتصرف بحكمة ، فخصص الثروة الجديدة من أجل الحاجات الملحة للدولة أكثر من العظمة الشخصية . ولما كان لا يزال خائفا من جيرانه، فإن المنصور صرف مبلغا مناسباً فى تحصين وسائل الدفاع ضد الغزو والثورة، وعلى تحصينات لاراش — وهى التى بدت قد قويت بما فيه الكفاية . وفى فاس بنى حصنين هى البساتين والبستيون عمل فيهما الرقيق الأوروبى . ولكن ربما كان صرفه الحكيم هو ما بذل لتحسين صناعة السكر فى سوس ومدها بالآلات . وهو — كخليفة لشعبه — ملزم بالصرف فى إسراف على المساجد والمدارس . ولكن زيادة تزيين قصوره الملكية لم تفته . فاستدار إلى أوروبا يسأ لها مزيداً من الصناعات المهرة .



ومدى العمل الذى استخدم فيه البريطانيون فى مرا كش أنه أثار اعجاب الكابتن جون سميت قائد فرجينيا المشهور، وكان قد صادف أن زار المملكة بعد موت المنصور ببضعة أشهر، فكتب قوله : ( أنه لا يوجد فى مملكة المنصور سوى عدد قليل من الصناع المهرة، حتى لقد استدعى من إنجلترا صياغا وسباكين ونحاتين وصاقلى أحجار وساعاتية وبقدر ما يسر من عمل الصناع فإنه يعطيه عشرة شلنات أجراً يومياً علاوة على التيل والصوف والحرير وكل ما يكفيه من الطعام والأجهزة، والإعفاء من الرسوم الجمركية على ما يستوردونه . وذلك لندرة المال المهرة فى دولته .

لا شك أن الساعاتية الإنجليز — يستخدمون فى ضبط الآلات البحرية التى يغرم السلطان بشرائها . واهتمامه بهم يبدو أنه نابع من قدرتهم التى أثبتوها فى الصحراء . فالغزوة المغربية والبؤس الذى تبعها أثار سخط سكان الصحراء إلى حد أن أصبح من الصعب العثور على الأدلاء . وعلى ذلك أرغم التجار والجنود المسافرون إلى السودان على استعمال الآلات الملاحية وقد صحب عمار باشا معة إلى السودان نجاراً فرنسياً — هو بول امبرت — وهو أحد الذين وصفوا مصاعب الرحلة الصحراوية فى هذا الوقت فقال

( حتى تعرف طريقك جيداً يجب أن تدون ملاحظاتك منذ شروق الشمس حتى غروبها، ويجب أن تقودك النجوم والبوصلة (إذا كانت هناك فرصة لذلك) وهم دائماً يحرصون على أن يحملوا بعضاً منها فى القافلة ) وقد فعل ذلك من يفهم هذه الأمور مثل بول امبرت الذى كان نجاراً محبوباً وقد فتش عنه سيده حتى وجده .

وشبه به رجل بريطانى كان يعيش فى نفس الوقت قال إن رحلة التجار إلى

السودان استغرقت ستة أشهر ، منها شهران يقضونهما في اجتياز الصحراء الرملية حيث لا يقطن أحد كما لا يوجد بها طرق . ولكن يقودهم أدلاء كسائي السفن في البحار . يلاحظون سير الشمس والقمر والنجوم خوفاً من أن يضلوا الطريق، أما إذا ضلوا فالجماعة تنتظرهم والموت من قلة الماء . وأجساد الموتى لا تفنى بل تصبح ( مومياء ) أو لحماً مقدداً طبيعياً أو صناعياً مثل تلك التي تأتي من الاسكندرية .

وفي سنة ١٦٠٠ كتب مراسل في مراکش إلى إدوار رايت Edward wraight الرياضى البريطانى المشهور أن الزيارة المرتقبة لسفير مراکش للندن سوف تكون فرصة للرجح من جراء شرائه للآلات .

ويستمر الكتاب فيقول ( إن الملك مولاي همت (أحمد) شغوف بدراسة الفلك وعلم النجوم . ويقدر الآلات التي تستخدم لرصد مجرى الشمس والقمر وهي ها نادرة إلى درجة كبيرة . فهناك مجال لك فساعتك أو مزولتك الخاصة أو جهازك الخاص بقياس خطوط الطول أو بالآلة المغناطيسية الجديدة أو استرلاب التي لها أهمية غير عادية وسوف يدفع لك فيها ثمن مجز ) .

( ويمكن أن تصنع إطارا لبعض الآلات من النحاس أو الفضة تاركا مكاناً للكتابة العربية والأرقام، يكفي أن ترسم صورتها على ورقة وتدون عليها الأرقام اللاتينية والكلمات اللاتينية والأسبانية ، وهنا من يستطيع أن يحفر هذا كله بالعربية على الآلة إذا أعطيتهم بعض الإرشادات عن هذا الأمر ، والتجارب الحسائية سترضي السفير كثيراً . لا تتضايق من عرض ما تستطيعه فربما كان هذا لصالحك ) .



( و آلتك المغناطيسية الخاصة برصد الدرجات ستصلح لرحلة سنوية يقوم بها البعض من أجل الملك في بحر الرمال ، حيث يجب أن يستعملوا الإبرة (البوصلة) إلى جاو وإذا سألت عن هذا الأمر واريتم الآلات التي لهذا الغرض فإن ذلك سيكون موضع الرضا ) .

ولم يكن الذهب هو الوحيد الذي يؤخذ من السودان ويقدر تقديراً عالياً ، بل كانت هناك رغبة قوية في طلب الرقيق والعاج والأبنوس والزبد وسوق جاهزة لأشياء أخرى كثيرة. وكان المنصور يحرص على أن يزوره الباشا دائماً بكل هذه الأشياء ، إلى جانب الهدايا الفخمة التي أحضرها جودر ، وقد أرسل محمود قبل ذلك ألفاً ومائتي عبد ، نصفهم من الرجال والآخر من النساء إلى جانب أربعين جملاً محملة بالذهب وكمية من الأبنوس والزبد وقطط الزبد . وعددًا من الأشياء الأخرى النادرة والمنتجات الثمينة وكان من بينها فيل كان يثير دهشة أهل مراكش<sup>(١)</sup> وبيعت سرورهم .

وإذا ما وجدت الدولة الثروة الجديدة مركزة في يد السلطان وأتباعه ، أنكر على الشعب كل تعويض عن المطالب الثقيلة التي فرضتها الحملة عليهم ، ومخاوف التجار أن تحطم هذه الغزوة تجارتهم قد ثبت صحتها . بالرغم من أن الأعمال قد استؤنفت بمجرد وقف القتال ، ولكن شعر الجميع بخيبة الأمل من جراء فشلهم في اكتشاف مصادر الذهب ، وظلت ثروة وانجارا كما كانت بعيدة عن أن تنال . وبالرغم من هذا ومع فيض الثروة الذي ملأ الخزائن تدهورت التجارة المحلية ، ولم يستفد أحد غير التجار الأجانب لأن كل أدوات الترف التي احتاج إليها القصر كانت كلها أجنبية .

فتجار البضائع الأجنبية كانوا غالباً من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين ولكن

---

(١) يدين ادخال الطباقي إلى مراكش إلى حراس العيل من الترنوج .

الإنجليز تسووا غيرهم ، وتمتعوا باحتكار التجارة المارة عبر سانتا كروز ورأس جير ( اجادير ) وصافي ، بينما أخرج المغاربة البرتغاليين في سنة ١٥٤١ ، وأصبح البرتغاليون يتحكمون فقط في أبواب مبيته وطنجة ومازاغان ، وقد شعروا بمرارة لفقد تجارة جنوب مراكش الغنية ، وادعوا أنه في ظل المرسوم الشهير للبابا اسكندر الرابع كان لهم وحدهم حق الاتجار مع إفريقيا ، فيما هو خارج البحر المتوسط .

وادی هذا إلى معارضة الإنجليز التي انتهت باتفاقية تالية تنازلت فيها إنجلترا عن ادعاءاتها في غينيا ، حيث كانوا يتجرون منذ منتصف القرن السابق . ولكنهم رفضوا في إصرار أن يتخلوا عن تجارتهم مع مراكش ، وكانت مواد التجارة البريطانية هي ملح البارود والسكر من سوس ، ومن أجل تجهيزها وجد المنصور أنه من الأفييد أن يستخدم عمالا مهرة من الإنجليز . وفي خلال الحرب الأهلية التي تلت موت السلطان تدهورت زراعة البنجر كثيراً فكان ذلك على حساب إنجلترا . ودخلت إنجلترا في تجارة الذهب . وريش النعام . والنيلة . وشمع العسل . والبلح . والخيول . والصقور . ومع الذهب -- الذي كان طبعاً تبراً من السودان -- ذهبت كميات من الفضة المراكشية التي كان اليهود المراكشيون يشحنونها إلى لندن لسك نقود الدولة <sup>(١)</sup> . وكانت البضائع البريطانية الرئيسية التي تشحن إلى مراكش هي الأسلحة وأدوات بناء السفن والملابس البحرية ( وكلاهما كان يستورد من أجل القرصان ولذا أدين هذا العمل من أوروبا الكاثوليكية

---

( ١ ) في عهد الملكة فيكتوريا في أوائل أيام جيمس كان الممول الرئيسي للسكة البريطانية هو الذهب الأجنبي الذي استولوا عليه من الأسبان أو استورده التجار . وبعد سنة ١٦١٢ ثبت الملك جيمس من أجل ضمان ربح له من هذه السكة -- سعرا أدنى للعملة الأجنبية والسبائك ، والأخيرة وصفت بأنها ذهب بربري .



و كانت تجارة السلاح التى أراد لها كل من اليزابث والسلطان أن تظل سرية ، عبارة عن علاقة شخصية بين الملكين . كما كانت بين اليزابث وعبد الملك — فكانت بمقتضى عقد أقام به المنصور مخزناً كبيراً لإنجلترا، وإلى جانب أنها كانت الدولة الأجنبية الوحيدة التى كان السلطان يدعى صداقتها فهى التى أدت إلى تحطيم الأرمادا الذى صنعه فيليب ملك أسبانيا ، وفى نظره كانت صداقة يجب تحطيمها واستغلالها .

فى سنة ١٦٠٠ وصل سراً إلى لندن موظف كبير فى قصر السلطان وهو السفير الذى أبلغ عنه ادوار رايت ليبيعه آلاته . وأسكته الملكة هو وحاشيته المكونة من تاجرين ومترجم واثنى عشر خادماً فى بيت رجل عجوز فى المدينة ، وحين تشرفوا بالمقابلة الملكية أدهش السفير الملكة حين ذكر أنه قدم ليقتراح أن تقوم هى والمنصور بهجوم مشترك على أسبانيا ، ويستوليا على أملاك فيليب فى الدنيا الجديدة والقديمة ويقتسماها . ولما كانت الملكة تشك فى قدرة الجيش السلطانى على أن يقوم بدوره فى مثل هذه الغزوة ، فقد ذكرها بغزوة المنصور الجديدة لغينيا ذات الستة وثمانين ألف مدينة .

ولما كانت الملكة لا تريد ان تفقد الكميات التى تحصل عليها من ملح البارود، فإنها أجابت إجابة دبلوماسية أدت بالمغاربة إلى أن يؤملوا أن الوسائل سوف تتخذ لإجابة طلب سيده . ووجدت الملكة أنه من الأسهل عليها أن تبدى الميل إلى السفير ورفاقه من هذا الهدف المضحك . فبالرغم من الموافقة المرحونة والعداوة غير المستترة التى أثارها سلوك المغاربة غير المؤدب، فإن التخلص من ضيوف الدولة الثقلاء قد استغرق عدة أشهر، وبمرور الزمن ثارت الشبهات حول قدومهم الذى لم يكن إلا ستاراً لتجسس تجارى .

وكان البربري يستعمل كلمة ( الهبة ) في كل أنواع المساعدة التي يقدمها للملكة ولكن رغبته التي كمنت تحت ستار رحلتهم العادية ، كانت أن يتعرف كيف كانت تسير التجارة ، وأى ربح كنا نحصل عليه من السكر كي يرفع سعره بما يناسب ذلك الربح .

وبعد أقل من ثلاث سنوات مات المنصور في سنة ١٦٠٢ (١٠١٠) ودفن في مقبرة نخمة ربما لا تزال تشاهد في مراکش، وهو يدين بالظروف الحسنة لإرتقائه العرش، وترك دولته غارقة في الديون . وفي خلال حكمه الذي استمر خمساً وعشرين سنة هدد في خلالها جيرانه المعادون له حدوده اكثر من مرة، ولكنه نجح في المحافظة على استقلال دولته بل حافظ على الكرامة التي أسبغتها عليها موقعة القصر . بل أدهش أوروبا بالثروة التي كسبتها عملياته من السودان . وإذا كانت جميع مساوي الحكم الشرقي قد لازمته ، فقد رعى الفنون رعاية غير عادية ، إلى جانب ميله للصناعات الدقيقة فقد كان كبير الاهتمام بالاختراعات العلمية التي ميزته — أكثر من أى شيء آخر عن معاصريه .

وقد رسم أحد الإنجليز وهو رو — بورشاس RO C- Purchas<sup>(١)</sup> صورة غير سارة لأخلاق المنصور يقول فيها :

( لم يكن المنصور شديد الاستبداد بالنسبة لشعبه ، ولكنه أخفى قوته الاستبدادية بكثير من الرقة ، — وقد استطاع أن يوفر لنفسه مخازن مملوءة بالذهب بطرق مختلفة ، أولها استمرار حصوله على العشور من

---

( ١ ) يعتقد أن رو بورشاس هذا هو الكاتب روبرت كوفرت Cadtain Robert



القرصان . وثانيها التجارة مع الزنوج ، إذ كان يشتري الملح من تغازه ليبيعه إلى جاو ليحصل على نمته ذهباً من هناك . وثالثها الإهتمام بزراعاته الخاصة وخاصة زراعة البنجر ، وقد تجاهلت رعايته للفنانين الأجانب . فمن أجل إعادة بناء قصره في مراکش استورد الرخام الإيطالي وهو أغلى أنواع الرخام ، ودفع للعمال أجوراً عالية . أما عن توفير المؤونة لسرايه والاحتفاظ بعدد من النساء كما فعل أسلافه من قبل من أجل إظهار عظمته فشيء فاق كل حديث . فإن وسيلة إظهار الثروة والعظمة هنا هي الإكثار من النساء . وكان أكبر سروره هو أن يرى شعبه وقد رقت حاشيته وقللوا من عاداتهم البربرية . وأن تطير الصقور في أجنحة خفيفة لمطاردة فرائسها .

وعند وفاة المنصور سدد الأوربيون عيونهم النهمة نحو إفريقيا، كما حدث في أيام الأمير هنري منذ قرابة قرنين . كان منظر الذهب الذي ينصب إلى مراکش قد أدار عقولهم نحو إمكان الاستيلاء على مصادر هذه الثروة عن طريق البحر . ولكن أصبح الأمل الآن أقل بعداً ، والذهب كان يصل في كميات لم يحلم بها من قبل ، ولذا كان المشروع أكثر احتمالاً ، فساحل فانة أصبح معروفاً . كما أصبح الداخل معروفاً بفضل المراكز التي أنشأها البرتغاليون فيما بين رأس فردي وخليج بنين ، وأكثر من ذلك كان هناك بعض الذهب يتجه شمالاً إلى أوروبا من ناحية الساحل ولا سيما حصن سان جورج دي مينا البرتغالي وأستجلب الذهب إلى الساحل ، ولكن لم يكن أحد يعرف مصدره في الداخل . وكل من كان يظن أن ذهب فانة وذهب مراکش يأتيان من مصدر مشترك وجدوا ما يشجعهم على هذا الظن في كتابات ليو التي نشرها مارمول كارافاجال<sup>(١)</sup> في ( وصف إفريقيا ) وانتشرت في أوروبا، ولم يكن لدى العالم من جائزة يقدمها، أكثر من اكتشاف المصدر المخبوء للذهب . وكان ساحل فانة أفضل طريق له . وقد

( ١ ) كان مارمول هذا إسبانيا ولد في غرناطة وقضى سبع سنين في إفريقيا رقيقاً عند المغاربة .

رفع اقتراح بهذا إلى القصر الملكي في أسبانيا في سنة ١٥٩١ . فقد كتب  
ملشور بلتوني Melchor Peltony من أرجوين على ساحل الصمغ ( كما كان  
يدعى آن ذاك يقول ) ( إذا أرسل الملك فيليب كل سنة سفينتين أو ثلاثا بقدر  
مناسب من التجارة ، فإن جلالته يمكن أن يوقف المرور هناك ويحرم ملك فاس من  
هذه الكميه الضخمة من الذهب ) وكان بلتوني يتاجر هناك وجد أنه يستطيع أن  
يحصل على ذهب كثير نظير أشياء تافهة ، ولكن لم يكن هذا النوع من  
المشاريع ليحذب انتباه فيليب إذا قورن بثورة اراجون والثورة الأخرى  
الكبيرة التي قامت في الأراضي الواطئة . )

وقد عرف البريطانيون أكثر من غيرهم — بسبب مركزهم الممتاز  
في تجارة مراكش الخارجية — كمية الذهب الهائلة التي تأتي إلى الدولة .  
وأكثر من ذلك عرفوا أيضا معلومات كثيرة عن تجارة فانه حيث هددوا  
— ومعهم الفرنسيون — تجارة البرتغال في الذهب ولذا كان وضعهم  
أفضل من أي دولة أخرى — ليجمعوا ثم يعودون فيقدرون كل شيء  
عن تجارة الذهب . ولكن هذا كله لم يكن بكثير ، فمن مراكش أنت نفس  
القصة التي رواها هيودوت وبعد موت المنصور وصف رو بورشاس  
Ro- Purchas كيف تعود المغاربة أن يحملوا ملح تغازة بعيداً إلى الداخل .  
( إلى نوع من الزنوج المشوهين الذين لم يكونوا يشاهدون مطلقاً في تجارة  
الذهب مع البرابرة أو أي غرباء آخرين . حيث كانوا يضعون ملحمهم في الحقل  
ويتركونه ، ثم يأتي هؤلاء الزنوج المشوهون ويضعون أمام كل كوم من الملح  
قدراً من الذهب يعتقدون أنه يساويه . ثم يعود المغاربة ، فإذا أرضاهم الذهب  
أخذوه أما إذا لم يرضهم تركوه فهو يزيد من الكومة بمقدار ما يعادل الذهب ،  
وإذا ما عاد الزنوج وأعجبهم مقدار ما تركوا يضعون مزيداً من الذهب ،



وغالبا لا يرضيهم لأن المغاربة يودون أن يعودوا إلى سيدم بذهب كثير وهؤلاء الزنوج المشوهون أحسن الناس في معاملتهم ) .

وهؤلاء الزنوج المشوهون شيء جديد في القصة ولكنهم — كما سئري — ليس إلا خيالا من العقل المراكشي . ففي سنة ١٦٠٣ اقترح هنري روبرت، الذي كان ممثلا لشركة مغربية ثم أخيراً ممثلا للملكة اليزابث في مراكش ، على الملك جيمس الأول أن يقبض على تجارة الذهب بغزو مراكش فكتب ( إذا ملكتم جلالتم هذه الدولة فانكم تستطيعون أن تذهبوا إلى أقصى ما تريدون، فغينيا غنية في الذهب والسلع الثمينة الأخرى ) .

ولكن الإنجليز لم يفعلوا شيئا في تجارة الذهب حتى سنة ١٦١٨ حين كون بعض التجار البريطانيين ( شركة لأجل بلاد غينيا وبنى ( بنين ) لغرض كشف تجارة المغاربة الراجعة ) .

وظن المخاطرون أن نهر غمبيا أفضل الطرق إلى مناجم الذهب التي كان يظن أنها بالقرب من جاو على نهر النيجر، ولما كان يظن أن السنغال وغمبيا مخرجان للنيجر فقد فكر الرجال في أن تتبع أحد هذين النهرين من الساحل إلى الداخل يقودهم إلى مناجم الذهب .

وأول سفينة خرجت لهؤلاء المخاطرين هي كاترين التي قادها جورج طومسون الذي كان مهتما جداً بحكم خبرته الطويلة كتاجر سابق في مراكش ، وربما كان أحد أفراد عائلة طومسون التي عاشت في المدينة . حمل أوامر بكشف منابع العليا لنهر غمبيا على أمل كشف المناجم ، ولكن البعثة فشلت إذ بعد أن وصل إلى إفريقيا قبض البرتغاليون على السفينة

وقطعوا رقاب البحارة، وكان طومسون غائباً فنجوا ليعود بعد ذلك بقليل بفضل أحد رجاله .

وأرسل المخاطرون مرة أخرى ريتشارد جونسون Riceard Jousou على (صهيون)، ودخل النهر متوقفاً أن يقابل المغاربة القادمين من المغرب في كل لحظة، ولكن لم يقابل أحداً كما لم يجد مناجم الذهب، واعتبرت الرحلة فاشلة، وبالرغم من تأكيد عظم هذا الكشف المربح الكبير فإنه صمم على أن يقلع عن هذا العمل .

ولكن الناس ظلوا يعتقدون في حزم أن غمبيا هي مفتاح سر تجارة الذهب، فبعد أربعين سنة أقلع بيتر موندى Peter Mundy بخمس سفن إلى نهر غمبيا وكان هدفه أن يتكشف من أين يأتي الذهب .

وبدت المسألة حتى هذا الوقت أبعد من أن تحل، وكان هناك كثير من الحقيقة فيما قاله جونسون عن السرية التي كانت تحجب التجارة، إذ كتب أن المغاربة يزاولون التجارة بحكمة كبيرة إذ لم يكن يسمح لأحد منهم بذكره إلا الرجال ذوي الأهمية، وكان طبعياً أن تعاني التجارة عبر الصحراء من فوضى الحكم في السودان، ولكن يبدو أنها لم تتوقف تماماً فالرقيق والذهب أصبحا مادتي تجارة الشمال ولم يلبث أن دخل فيها العاج أيضاً<sup>(١)</sup> وظل الملح أهم ما يستورد إلى السودان . ولكن كان معه كثير من الأقمشة الإنجليزية وقد كتب أحد التجار الإنجليز في سنة ١٦٣٥/٣٦ أن أهل سوس لهم تجارة كبيرة في البضائع البريطانية المرسلة إلى تمبكتو وجاو والأجزاء الأخرى من غينيا، ومن هناك يحضرون قدراً كبيراً من الذهب بينما

---

(١) كانت تجارة العاج سابقاً تغزى إلى الصحراء الوسطى لأن القاهرة كانت أهم أسواقها .



نتسلم نحن جزءاً كبيراً من بيع بضائنا وفي سنة ١٦٣٨ كان الذهب لا يزال يشحن إلى إنجلترا ولكن— كما ذكر جورج كارتريت George Cartreete قد يعتبر هذا الذهب كنزاً أكثر منه سلعة لأن الكميات القديمة التي كانت تحملها القوافل من جاو أيام مولاي احمد جد هذا الملك قد ضاعت من جراء الاضطرابات التي سادت الدولة وقبل نهاية العام كان احتياطي الذهب في مراکش يتسرب لأن تجارة جاو في الذهب قد توقفت .







## وانجارا

كان مصدر ذهب غرب إفريقيا سرّاً مكتوماً تماماً . وطالما بهر المتعمدين زهاء ألف عام . وفي خلال نصف هذه المدة لم تنجح الجهود التي بذلت في أن تكشف من أين يأتي هذا الذهب ، وأول من أعطى هذا المصدر اسماً كان الإدريسي في القرن الثاني عشر، وكانت وانجارا التي قال عنها (مشهورة بسبب كمية ما تنتجه من الذهب ونوعه) وكان في معلوماته صحيحاً دون ريب، لأنه سرعان ما وجد أن هذا كان من المعلومات الشائعة في الداخل ولكن المعلومات لم تكن بذات قيمة بسبب أنه لم يكن هناك من يعرف كما لم يكتشف أحد أين كانت وانجارا هذه . وكان هذا معلوماً لفئة قليلة من الوسطاء الذي عملوا على كتمانهم عن الدخلاء . وكما رأينا شغلت بالبحث عن وانجارا السفن المسيحية والجيوش المسلحة ، وكما كلف الملوك عروشهم والشعوب حريتها وآلاف من الناس حياتهم . وأخيراً لم يكن أحد منهم أكثر عقلاً من الآخرين .

وبالرغم من أن أول إشارة إلى هذه التجارة تلك هي إشارة هيرودوت إلى فتيات سيرونيس وتجارة القرطاجنيين الصامته، فإنه لم يشر مباشرة إلى مشكلة وانجارا . وكانت واضحة لأنها أظهرت أنه منذ أقدم العصور كان للتجارة ميزتان واضحتان، صمتها والدور الهام الذي كانت تلعبه النساء . وهما تظهران أيضاً كيف أنه ليس من الذكاء في شيء أن نتخلى نهائياً عن القصص الكاملة الخيال، حتى وإن كانت أقل القصص احتمالاً عن هذه التجارة وأي شيء يظهر واضحاً أكثر من القصة المسلية عن الفتيات اللاتي يخرجن الذهب من بين ريش الطيور ممزوجاً بالبينومين ، ولا شك أن انهماك النساء حتى في هذه الأيام

السحيفة القدم في حزم تبر الذهب في الريش — كما يفعلن الآن — يشير الخيال بشكل لا يقاوم .

وبعد ألف وخمسة مائة بدأ مصدر ذهب غرب إفريقيا يشغل أذهان العرب ولكن في ناحية واحدة هامة لم تكن التجارة هي التجارة ، إذ أنها لغيرودوت كانت تجارة بحرية تماماً ، أما للعرب فإنها كابت تجارة برية جرت بين السودان والمغرب الأقصى . ومع ذلك كانت المساومة الصامتة لا تزال أهم ما يميزها ، وظل اعتمادها على النساء كما هو ، فالتجارة البرية أو البحرية رغم مرور ألف وخمسة مائة عام كان لها هذا الشيطان المشترك ، مما يدل على أنهما كانا من أصل واحد ، هو أن كلا منهما كان يجلب تجارته من نفس حقول الذهب ، ونحن مازلنا غير راغبين في أن نعرف أيهما كانت كذلك ، لأننا لانملك المفتاح الذي يدلنا على مكان تجارة القرطاجنيين من الساحل ، كما لا يعنى قضيتنا الحالية أن تكشف أين كان مصدر هذه التجارة البرية ، وكما قال كل إنسان إنها وانجارا وكانت حاجتنا الأولى أن نتحقق من مكان هذه الأرض الغامضة .

كان الذهب ويزال يوجد في أجزاء كبيرة من غرب إفريقيا ، ولكن بحثنا عن وانجارا التي تمون عدة بلاد بكيات كبيرة من الذهب قد يشير إلى الأربع مناطق التي تحمل الذهب ، وهي التي تعرف أنها كانت منتجة للذهب لمدة طويلة ، وهي بامبوك Bambuk التي تقع بين السنغال الأعلى وأنهار فاليمي Faleme وبوري Bure عند ملتقى النيجر الأعلى بفرعه تنكيسو Tinkiso ، ولوبي على القولنا الأعلى ، وإشانتى في داخل ساحل الذهب ، ولما كانت بامبوك وبوري قريبتين من بعضهما وتفصلها عن بعضهما منطقة يوجد فيها الذهب أيضاً فإنهما يعتبران مكاناً واحداً ولذا كان اختيارنا يتأرجح من بامبوك وبوري ولوبي وإشانتى .



ودراسة الوثائق المبكرة للتجارة تمكنتنا أن نصيق اختيارنا أكثر، فاستناداً إلى كتابات المؤلف الوحيد في القرن الثاني عشر ( تحفة الألباب ) نقول :

في رمال تلك الدولة ( غانا ) يوجد الذهب . كنوز لا يمكن التعبير عنها فيها ذهب كثير، والتجار يستبدلونه بالملح فيأخذون الملح على الجمال من مناجمه ويدأون من بلدة تسمى ساجلماسة ويسافرون في الصحراء — لكونها بعيدة عن البحر — ومعهم الأدلاء يرشدونهم بالنجوم والصخور، ويأخذون معهم مؤونة تكفيهم ستة أشهر وإذا ما وصلوا غانا يزنون ملحمهم ويبيعونه مقابل وحدة معينة من وزن الذهب، وفي بعض الأحيان مقابل ضعفه أو أكثر من وحدة الذهب تبعاً للسوق والكمية )

ويؤكد كاتب أثر آخر ضرورة الملح للتجارة ويكتب ابن بطوطة في القرن الرابع عشر ( وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر ) .

وانجاراً بلد قليل الملح دائماً وظلت كذلك عدة قرون ولكنها لم تكن أيضاً بلداً بعيداً جداً كما يشير غموض كل ما جاورها، كونها جزءاً من غانا لم يكن مؤكداً وإن كان محتملاً . وكانت يوماً من الأيام تابعة لمالي لأن سنداياتا Sandiata فتحها، ولما حاول أن يحول سكانها حافري الذهب من الوثنية إلى الإسلام، نكسوا آلاتهم ولم يعد الماندنجو ينتجون ذهباً وهذا دليل على أن وانجاراً لا تقع جنوب السفانا السودانية إذ بينا غانا ومالي امتدتا شمالاً إلى الصحراء وغرباً نحو الأطلنطي، لم تحاول أحدهما اختراق حزام الغابات الكثيفة الذي يفصل السافانا عن غابات المطر الساحلي في الجنوب وأكثر من ذلك قال ياقوت أن حقول الذهب كانت على مسيرة عشرين يوماً فقط من كومبي عاصمة غانا .

وقلة الملح في وانجاراً والدول القريبة نسبياً من أسواق السودان

الكثيرة يظهر بوضوح أنها لم تكن أشاتى، فمناجم الذهب هناك قريبة جداً من الساحل إلى حد لا يجعل الحصول على الملح مشكلة صعبة<sup>(١)</sup>. وكونها في قلب غابة صعبة الاختراق يجعلها بعيدة جداً عن السودان وقريبة من الشمال، وبالرغم من ذلك فكر المستكشف الفرنسي جوزيف دبوى في سنة ١٨٢٤ شيئاً آخر. إذ ظن أن إشاتى ومعها شريط ساحلى ضيق يجرى إلى شرقها أنها واتجارا الوحيدة المعروفة لأهالى شمال إفريقيا، ويبدو أنه من المدهش أننا قد استعمرنا فعلا هذه الدول عدة عصور في الماضى دون أن نعرفها بالإسم، ولا شك أنه كان مخطئاً. ولم يعد أمامنا الآن سوى أن نميل إلى الناحية الأخرى وهى بامبوك — بورى ولوبى، ففي بداية القرن العشرين قبل أن يمس هذين المكانين أحد من الأوربيين كان لتجار الشاطىء أن يحصلوا على ملحهم من بعيد فى الصحراء من تاودينى وسكه عجيل. Sabka d,Igil وكلاهما كان على مقربة من أسواق الذهب الرئيسية للزنج، حيث تعود تجار المغرب أن يجتمعوا فى الأيام الماضية، ولكن الفائدة تكمن فى بامبوك — بورى التى هى أقرب إلى كومبى القديمة وأسهل وصولاً من لوبى إلى جنى وتمبكتو، والفضل فى ذلك للنيجر. ففي وقت من الأوقات يحتمل إن كانت كلا من بامبوك وبورى خاضعتين لغانا، ومن المؤكد إنهما خضعتا لمالى، أما لوبى فإنها لم تخضع لأيهما. وإن بامبوك وبورى على خلاف لوبى كانا

---

(١) وأنه لم يكن قريباً إلى حد أن الوسطاء الحاسدون يستطيعون أن ينكروا الوصول إلى المناجم على التجار الأوربيين الذين يعيشون على الساحل، فقد كتب وليم بوسمان فى نهاية القرن السابع عشر أن الأوربيين الذين يعتقدون أن مناجم الذهب فى قدرتهم لبسو القليلين ونحن كالأسبان فى الهند الغربية ليس لنا أكثر من أن نعمل برقيقتنا. وبالرغم من أننا نعلم جيداً أن ليس لدينا الوسائل للوصول إلى هذه الكنوز كما لا اعتقد أن أحداً من شعبنا قد رآها من قبل فإننا نستطيع أن نصدق بسهولة حين نخبرنا أحد أن الزنج ينظرون إليه كسر مقدس ويأخذون أكبر الحيلة ليعيدونا عنها.



قالبا جزءاً من دولة ماندنجو وهذا ظاهر . ووانجارا إلى جانب كونها اسماً لدولة — كانت اسماً عرف به شعب الماندنجو، وخاصة فرعاً السوننكى والجاولا Jaula اللذان كان معروفين فى السودان الغربى . فى المغرب وأوروبا كانت تجارة الذهب مقرونة بالماندنجو، خاصة اللذين كانت ثروتهم مضرب المثل، فقد كتب بورشاس أنه لم يكن هناك دولة فى العالم أغنى فى الذهب والفضة من مملكة الماندنجو، وقبل ذلك فى القرن الرابع عشر أشار إبراهيم كرسك فى خريطة، إلى رحلة قام بها جيمى فرير Jaimé Farrer طلباً لساحل الذهب ومملكة ماندنجو وذهبها .

وأقدم ما لدينا عن وانجارا ما ذكره الإدريسى بإيجاز عن وصفها، التى قال فيها أنها جزيرة تبلغ ثلاثمائة ميلاً طولاً فى مائة وخمسين عرضاً، يحيطها ماء النيل ( النيل كما ذكره الإدريسى يسير من الشرق إلى الغرب مما يقطع أنه السنغال ) ويغمرها الماء أغلب أيام السنة . ولكن عندما ينحسر الماء عن الزنوج ينتقلون إلى جمع الذهب فيتركونه وراءهم ويبقون هناك حتى يعود الماء إلى الارتفاع . )

ولم يكتب الإدريسى بنفس الثقة التى كتب بها ابن بطوطة وليو الأفريقى، لأنه لم ير الممالك التى وصفها وبالرغم من هذا كان قد أنبىء جيداً ولكنه حين وصف وانجارا كانت معلوماته عنها ناقصة، وإذا صح أن وانجارا هى مناجم ذهب بامبوك وبورى، فهذه المناجم ليست فى جزيرة ولكن البلد الذى تقع فيه تحوطها الأنهار فى الشمال يوجد السنغال، وفى الغرب يوجد فالجى وفى الشرق يوجد النيجر وفى الجنوب يوجد تنكيسو الذى يقرب إلى حدان يصبح واحداً، وما زال العمل يجرى فى مناجم الذهب بنظام بين انحسار الفيضان وارتفاعه . أى من يناير إلى مايو تماماً كما وصف الإدريسى وأخيراً ما زال جزء من هذه الدولة يسمى جانجارا Gangara أو Gbangara أو

Cangaram أو Cwangara . وتؤكد بامبوك يورى أيضا ما ذكره لنا الكتاب الآخرون عن التجارة، إذ ما زال السنغال يوفى كل مطالب النهر الذى كان مسرح التجارة الصامتة، وما زال النساء يحصلن على الذهب من الحفر التى يمكن أن تكون نفس الحفر التى ذكر ياقوت عمالها يعيشون فيها<sup>(١)</sup> ولكن لم تعد تجرى تلك التجارة الصامتة التى وصفها المسعودى قبل الإدريسى بوقت طويل، ولكن يبدو أنها استمرت حتى القرن الثامن عشر .

وفى كل هذه المناسبات لا يوجد مكان للشك فى أن بامبوك وبورى معا كونا وانجارا التى عرفها الجغرافيون العرب — وكذلك لوبى أيضا لها ما تستند عليه من ادعاءات لتعتبر كذلك، هى ادعاءات لا يمكن استبعادها بسهولة، ويجب أن نذكر أن كاداموستو Cadamosto كان أكثر نجاحاً من أى قائد من قواد الأمير هنرى فى الحصول على معلومات من الأهالى ، وليس هناك من مثال أفضل من ذلك عن قصته عن تجارة الذهب فهو يخبرنا عن قوافل الملح التى تخرج من تغازه وتسافر جنوباً إلى تمبكتو فمالى حيث ينقل الذهب من ظهور الجمال إلى رءوس الرجال لأن المرعى لم يسكن ملاً للحيوان . وليس هناك هذا الحيوان لأنها تموت كلها . وفى مالى تكسر ألواح الملح إلى قطع صغيرة . ويحمل كل رجل قطعة وحينئذ يكون الرجال جيشاً كثيفاً يسير على أقدامه وينقلونه إلى مسافات بعيدة . حتى يصلوا ماء وإذا

---

(١) أدى العمل الموسمى فى هذا المذهب القيصى — الذى كان ولا شك كثيراً فى بداية الفصل عنه فى نهاية الفصل السابق — إلى ظهور اعتقادات خاطئة منها أن الذهب — كما يقول ياقوت — ينمو فى رمل وانجارا مثل الجزر، واعتقاد آخر أنه ينمو كالمرجان، وثالث أنه ينتقل بطريقة غامضة تحت الأرض . ورابع هو القصة المشهورة عن ذهب وجد فى أعشاش النمل الذى ( كما يذكر المؤلف الوحيد لكتاب Libro del Conoscimiento ) كان فى حجم القط وهذا النمل يظهر فى القرن الثالث عشر على خريطة هرפורد Herford الشهيرة .



ما وصلوا ومعهم الملح إلى الماء يتقدمون بهذه الطريقة ويكون كل رجل ملحاً على مجدف بعد أن يضع علامة عليه، ثم يتراجع جميع الرجال قرابة نصف ميل، ويأتي آخرون من الزنوج الذين لا يرغبون في أن يراهم أحد أو يكلمهم أحد، وهم يصلون في قوارب كبيرة يبدو منها أنهم قادمون من جزيرة، وإذا ما رأوا الملح يضعون قدراً من الذهب أمام كل كوم ويعودون أدراجهم تاركين الذهب والملح. وهكذا تجرى القصة كما وصفها هيرودوت ثم من بعده.

وبهذه الطريقة — يذكر — وفقاً للعاده القديمة الطويلة - يزاولون تجارتهم دون أن يتكلموا أو يروا بعضهم أو يكلمون بعضهم، وبالرغم من أنه من الصعب تصديق ذلك، فأنا أستطيع أن أشهد إنى حصلت على هذه المعلومات من تجار كثيرين من العرب أو الازنغاي (صنهاجة) وكذلك من أشخاص يمكن أن يوثق بهم.

وتختلف قصة كاداموستو عن الأخرى في شيء واحد، فالتجارة الصامته لم تحدث في مناجم الذهب بل في مكان كان الذهب يحمل إليه في قوارب، ويقع في منطقة التسي تسي، ولكن هذه ليست بذات بال، لأن كلا من بامبوك وبورى تقع في منطقة الذبابة ويحمل الذهب من أيهما في قوارب.

ويستمر كاداموستو فيصف ظهور المنقبين اللامعين عن الذهب استناداً إلى قصة ذكرها بعض الماندنجو الذين اصطاد أربعة منهم غدراً.

(وهم فاحمو السواد، ذوو اجسام حسنة البنيان، وإليه كبيرة، والشفه العليا حمراء تتدلى إلى أكثر من بضعة بوصات، وهم يعلقونها على صدورهم فيبدو باطنها لامعا كالدم، وقد ظننا ان شفاهم قد فسدت بسبب ان بلامهم احمر من بلادنا).

وبعد ذلك بما يقرب من قرنين، عاد آوروبي آخر هو ريتشار جونسون من غرب إفريقيا بقصة مشابهة، فقد سار مع نهر غمبيا دون ان يكشف عن شيء هام، لكنه عاد بنظرية جديدة عن التجارة الصامتة مع شعب غير منظور إذ كتب يقول :

( وسبب ان هؤلاء الناس لا يرون لأنهم ولدوا وشفتهم السفلى كبيرة جداً إلى حد ان تنقلب فتغطي الجزء الأكبر من صدرهم ، وتظل كذلك حتى إذا أتى الحر اللامح تعرضت للالتهاب والفساد ، حتى لم تعد لهم وسيلة للمحافظة عليها إلا بترطيبها بصفة دائمة بالملح ولهذا السبب يعتبر الملح ثمينا عندهم وبلدهم بعيد جداً في الارض التي لا يعيش فيها أحد . )

وتشابه القصتين قريب جداً إلى حد ان احتمال تصديق الرجل الانجائزي لقصة البندقى لا يستبعد، وكلاهما يشير إلى استعمال الشفة، وهو احد الأشكال المختلفة لما يلبسه النساء كثيراً في داخل إفريقيا ، واتساع الشفة في بعض الأحيان كبير حتى انه في بعض الاحتفالات ترفع وتعلق تحت الذقن كما وصف كاداموستو وجونسون<sup>(١)</sup> والآن لا توجد هذه الشفة في بامبوك او بوري، ولكنها مازالت تستعمل في لوبي ، وتلبسها النساء في قبائل بيريتور Biritor ولوبي . وقد أدى هذا ببعض لأن يذكروا أن مناجم الذهب التي وصفها كل من كاداموستو وجونسون كانت في لوبي وأن لوبي تحب ان تكون هي وانجارا ، وهذه الحجة ليس من السهل دحضها . فقبل ان تستقر القبائل الإفريقية أيام الإدارة الأوروبية فكثرت هجراتها بسبب الولاء السياسى أو الاقتصادى فمن الخطر أن نحاول ترجمة الماضى في عبارات

---

(١) فى المتحف البريطانى شفتان مأخوذتان من شفتى امرأة من قبيلة سارا فى تشاد وحجمها ١٠ ر ٦٩١١ بوصة تقريباً ( من خطاب من مستر فاج Fagg فى المتحف البريطانى إلى المؤلف .



الحاضر، وليس من الحكمة ان نظن ان ما يمارس الآن كان يمارس في الماضي .  
ففي لوبي مثلاً بينما يبدو ان اللوبي مازالوا في مواطنهم الحالية منذ القرن الرابع عشر،  
نجد جيرانهم اليريقور لم يصلوا إلى اماكنهم حتى القرن التاسع عشر، فليس من  
الحكمة إذن ان نظن ان الشفة كانت تستعمل في لوبي وانها لم تستعمل قط  
في بامبوك وبوري، وخاصة انها وجدت كثيراً في منطقة تمتد عبر إفريقيا من المحيط  
الأطلسي إلى المحيط الهادي، كما مورست بواسطة قبائل انتقلت بعيداً كما في  
لوبي غينيا الغربية ومادى موزمبيق .

ولما كان كاداموستولم يبحر إلى أبعد من ريو جراندى Rio Grandi  
وجونسون إلى نهر جمبيا فقط، فمن المستبعد أن يكون أحدهما قد سمع عن لوبي  
كما أن من المحتمل أن يكون كلاهما قد سمع عن مناجم الذهب في بامبوك  
وبوري ويظن أن استعمال الشفة الإسطوانية في الأقاليم الأخيرة في أيامهم  
يبدو تدخلاً مادلاً أن نرسم صورة لما كتبوا .

وبالرغم من هذا فهناك من الأسباب الوجيهة ما يجعلها نظن أن التجارة  
الصحراوية أخذت من لوبي بعض ذهبها الذي كان أبعد مما تشهد  
في وانجارا .

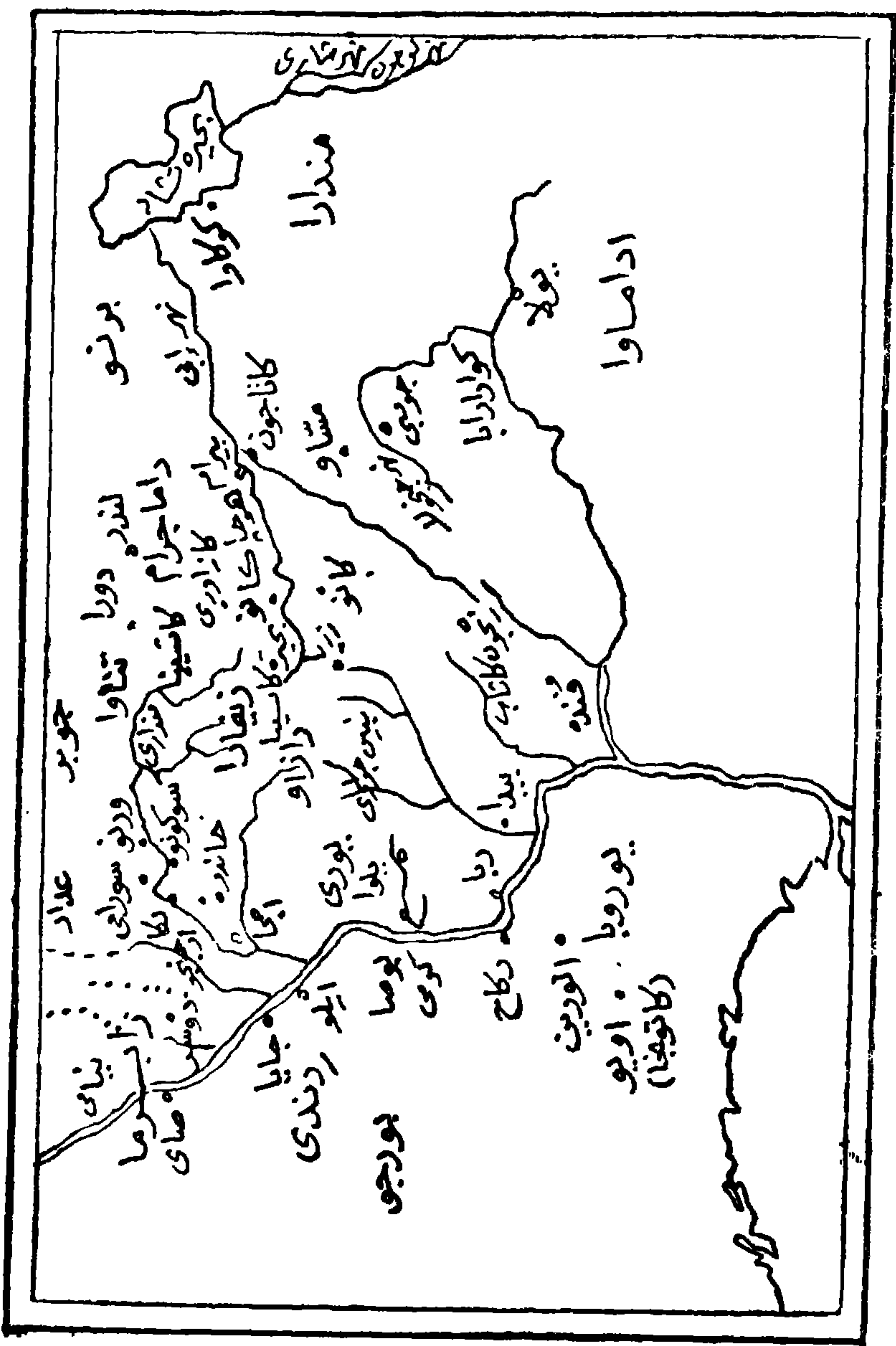
ويرتبط كثيراً بأعمال الذهب في لوبي كثير من الأبنية الحجرية المخالفة  
لأى شيء وجد في أى مكان في غرب إفريقيا، وكذلك أعمال الناس أقل بدائية  
من أعمال السكان الحاليين، ومعرفة بناء هذه الأبنية مشكلة لا يلقى حلها  
ضوءاً جديداً على الأيام الأولى لتجارة الذهب . ومهما كان هؤلاء فهم  
ولاشك كانوا متعجين مهمين للذهب الذي لا بد أنهم باعوه إلى أسواق السودان  
أكثر ما باعوه على الشاطئ . إذ يقع بينهم وبين الشاطئ حزام غابي  
لا يخرق، وفي قلب الغابة توجد حقول ذهب الأشانى التى تكفى مطالب  
سكان الشاطئ .

وهنا يجب أن نتذكر أن ليو قال : أن الذهب كان في بعض الأحيان كثيراً في جاو ، إلى حد أن التجار كانوا يعودون إلى أوطانهم بثلاث أو نصف ما حملوه إلى السوق. فهل كان هذا الذهب يأتي من بامبوك أو لوري ، لا بد أنه حمل بواسطة النيجر عن طريق تجار من تمبكتو أو جنى وهي أسواق هامة يجب أن لا تهمل . وهؤلاء التجار عرفوا أعمالهم وعرفوا أن لا يغفروا أسواق جاو إلى حد الاضرار بمصالحهم ، فلا بد أن التجار الجاهلين إلى حد أن يعملوا ذلك ، لا بد أن يكونوا قد قدموا من مكان آخر . ويمكن أن يكون من لوبي البعيدة وكما نعلم هي مصدر هذا الذهب المحمول إلى جاو .

ومن الواضح إذن أن تجارة عبر الصحراء قد سحبت ذهبها من حقول كل من بامبوك — جوري — ولوبي . ونحن لا نعرف أيهما كان أكثر أهمية ولكن هذا لا يعني كثيراً . وإن كان هناك مكان لبعض الشك في أن الأولى هي وانجارا التي ذكرها جغرافيو العرب ويمكن أن تكون لوبي هي وانجارا في الأيام المتأخرة .

ولكن الجغرافيين في بحثهم عن وانجارا الحقيقية ، يذهبون إلى ما هو أبعد من مياه السنغال الأعلى والنيجر والبولتا ، وكان ذكر ليو لوانجارا في الهوسا هو الذي أدى إلى اضطرابات جملة أجيال من راسمي الخرائط ، إذ كتب الأخير (جوانجارا التي تتصل من الجنوب الشرقي بزانتارا مزدحمة بالسكان، ولها ملك يحكمها وله حامية تبلغ سبعة آلاف من حملة الأقواس وخمسمائة فارس، ويحصل سنوياً على ضرائب كثيرة) . وقد يعني هذا أن وانجارا تقع إلى الجنوب الشرقي من زامفارا أو أن زانتارا تقع إلى الجنوب الشرقي من وانجارا ، وقد أدى هذا إلى اضطراب راسمي الخرائط فنطقها بعضهم بطريقة ونطقها الآخرون بأخرى ولكنهم جميعاً — حتى نهاية القرن الثامن عشر — وضعوا وانجارا في الهوسا إلى الشرق من مكانها ببضعة مئات من





شكل ٦ - إمارات الحمصا

الأميال . وعلى ذلك يزيدون من العصباب الذى يغلف السر الذى غلف الحقيقة<sup>(١)</sup> .

ولكن ليو كان عنده أكثر من ذلك ليقوله عن وانجارا إذ قال :  
(والسكان أثرياء جداً وهم على اتصال مستمر مع من يجاورهم . فإلى الجنوب تقع منطقة تذخر بالذهب ولذا كثيراً ما يسافر تجار وانجارا إلى المنطقة المذكورة الذائخرة بالذهب لأن الطرق وعرة وصعبة إلى حد أن جمالهم لا تستطيع أن تصل إليها فكانوا يحملون تجارتهم على ظهور البعير ) .

وتأكيد ليو لثروة وانجارا يظهر أنه ظن أنه يصف وانجارا التى ذكرها الإدريسي . ولكن هناك فرق ، فبينما كانت الأخيرة منتجة للذهب فإن وانجارا ليو كانت تحصل عليه من أرض أخرى إلى الجنوب فى بلد ( الذباب ) كما ذكر آخرون .

ولما كان ليو قد قدم من الغرب حيث رأى قدراً كبيراً من تجارة الذهب ، فوضعه لوانجارا حيث وضعها يثير الدهشة إلى حد كبير . فمن الخطأ أن يظن أنه نشأ من المعنى المزدوج لاسم وانجارا إذ كانت تطلق على الأرض والشعب . وفى الهوسا كانت هناك أماكن استقر فيها الماندنجو الذين كانوا يعرفون محلياً اسم وانجارا أو وانجاراوا . وفى القرن التاسع عشر — استناداً إلى بارت — كانوا التجار الرئيسيين لكاتسينا ، وهى ليست بعيدة عن زامفارا وربما كانوا أيام ليو شعباً هاماً . وبينما كان ليو فى زامفارا ربما كان قد سمع عن الأماكن التى استقر فيها الوانجارا أو الماندنجو فى

---

(١) حين خطط منجوبارك رحلته الأخيرة إلى النيجر انتظر أن يمر خلال نوب وكاتسينا قبل أن يصل إلى ونجارا . وقد وضع ستر ريتتر Retter واوزيل Gelzel على خريطتهم فى سنة ١٨٢٢ وانجارا مكان دلتا النيجر الحالية .



مكان ما إلى الجنوب الشرقى<sup>(١)</sup> وكانوا يتجرون في الذهب الذي كان يوجد في أماكن قريبة منهم وخاصة بالقرب من جوارى<sup>(٢)</sup> . وربما أدى به هذا إلى أن يظن أنه كان إلى جوار وانجارا التي ذكرها الإدريسي<sup>(٣)</sup> .

وفي منتصف القرن السادس عشر كانت مشكلة حقيقة وانجارا على وشك أن تحل . ففي سنة ١٥٥٠ نجح بعض البرتغاليين في الوصول إلى بامبوك ومناجم الذهب التي كانت تنتجه ولكن لم يعد أحد منهم ليرى لنا عما وجدته .

وعندما اكتشف منجو بارك — في بداية القرن التاسع عشر — حقول الذهب في النيجر الأعلى وبعد بضعة سنين اكتشفت المنطقة بواسطة رينيه كاييه René Caillié لم يشر أحد منهما إلى أن وانجارا التاريخية كانت تقع هنا وهي التي بحث عنها الرجال في اصرار لعدة قرون ماضية . وربما كان هذا بسبب أنه في هذا الوقت كانت حقول الذهب اقرب إلى

---

(١) من الناحية أخرى كانت جوانجارا التي تقع في الهوسا اسماً شائعاً لمكان في شمال غرب الهوسا ، وقد ذكر كل من سير ريتشموند بالمر Sir Richmond Palmer ودانييل Danuel للمؤلف أن جوانجارا التي ذكرها ايورينا كانت في منطقة بحيرة كاتسينا شمال غرب زاربا .

(٢) اعتاد الزعماء المحليون حتى القرن العشرين أن يجعلوا نساءهم يغسلون الذهب في ماء النهر حول جوارى .

(٣) في مذكرات عن النتائج العلمية لاكتشافات منجوبارك للنيجر صرح جيمس رنل James Rennell أن النيجر ينتهي إلى بحيرة في الربع الشرقى من أفريقيا . وهذه البحيرات يبدو أنها تقع في وانجارا وغانا . وهي ممالك يظن أنها تصرف في شمال أفريقيا وهذه الخاتمة المدهشة التي وجدت قبولاً واسماً نشأت من اعتقاد رانل في أن وانجارا التي ذكرها الإدريسي وليو كانتا شيئاً واحداً وأن مدينة كاتو التي في الهوسا هي غانا القديمة .

ان تستنفذ، فقل إنتاجها<sup>(١)</sup> وبذلك انتهت أيضا التجارة الصامتة التي لا بد أنها افقت نظرهم .

وفي نفس الوقت ظل المستكشفون والجغرافيون يتناقشون حول حقيقة وانجارا أو مكانها . فليون الذي لم يبتعد عن فزان في محاولته الوصول إلى السودان عن طريق طرابلس سأل عنها . وما عرفه من المعلومات يظهر كيف كان سهلا عليه لأن يضل بسبب انتشار الاسم، وكيف ان الناس في قلب الصحراء حتى القرن التاسع عشر ظلوا يقرنون وانجارا بتجارة الذهب الصامتة فهو يذكر لنا ان ( وانجارا مكان لم نستطع بعد ان نحصل على معلومات اكيدة عنه . وعلى العموم يظن انه مكان منخفض يغمر بالماء في بعض الأوقات . ويقول شخص انها على مسيرة عشرين يوما جنوب تمبكتو وهناك من يصفها جنوب كاشنا Kachna ( كاتسينا )، وكثيرون آخرون يؤكدون انها خلف واداي ، ولكن القصص المختلفة التي رويت عنها تجعل من المستحيل أن نكون أي فكرة عن موقعها الحقيقي ، أو عن وجودها

---

( ١ ) في بداية القرن التاسع عشر وجد جاكسون مازال يهنب إلى مراكش في حرية . وما زال يعرف باسم ذهب وانجارا ويذكر ( خوام وانجارا الذهبية التوأمية ) ( وقصة امبراطورية مراكش لندن ١٨١٤ م ٢٩٠ ) . وأخيراً أشار إلى فاتورة مؤرخة بسنة ١٧٩٠ مرسلة من تمبكتو إلى تاجر في فاس تضمنت ٥٠٠ جلد مملوءة من تبر وانجارا و ١٠٠ سيكة ذهب وانجارى . قضبان من ذهب وانجارا ( قصص تمبكتو الهوسا لندن سنة ١٨٢٠ م ٣٤٧ ) واستناداً إلى رولفس كانت التجارة ذات أهمية يسيرة حتى منتصف القرن ومازال الذهب يغسل من المرتفعات بواسطة نهر فاليمى وافرعا وقد انهكت حفائره وبعد أربع سنين من التوقف عادت إلى الانتاج من جديد وبالرغم من هذا فشلت الجهود القليلة التي بذلت لاستغلالها وهناك عقبة ليست سهلة هي الحاجة إلى تحديد العمل بأربع شهور في العام بسبب الفيضان الموسمي



والحق ان هناك ثلاثة اما كن تحمل هذا الاسم . اليس من المحتمل ان يكون هذا اسما عاما لمستنقعات تقع وراء تمبكتو ؟ ويقال ان عاصمتها باتاجو Battageo وهي بلدة كبيرة ، كما يقال ايضا ان الذهب يوجد بالقرب منها استناداً إلى تحرياتنا ويسكن إلى القرب منها شعب غير منظور يقال أنهم يتاجرون ليلاً . وهؤلاء الذين يقدمون للقيام بتجارة ذهبهم يضعون بضاعتهم في اكوام ثم يتراجعون ، وفي الصباح يجدون كمية كبيرة من تبر الذهب قد وضعت امام كل كوم وإذا رأوه كافيا يتركون البضاعة ويأخذون الذهب . أما إذا لم يكن كذلك فيتركونها معا حتى يضاف إليه مزيد من التبر الخام ويظن ان تجار الذهب هؤلاء شياطين مغرمون بالأكمشة الحمراء لأنها كانت أهم مواد المبادلة .

وبعد عدة سنين أدت تحريات مشابهة قام بها المستكشف الميجورد يكسون دنهام إلى هذه النتيجة النهائية . وكل ممالك الذهب ككل الناس القادمين من بلاد الذهب يحملون اسم الوانجارا .







## النيجر

منذ بداية القرن السادس عشر حتى نهاية الثامن عشر لم يقدم راسمو الخرائط مادة جديدة يزودون بها خرائطهم ، ونادراً ما تمر سنة دون أن يحدث تقدم ما في المعلومات الجغرافية ، ولذا لم يكن هناك من عصر شهد علم رسم الخرائط تقدماً أكبر من هذا العصر . وفي خلال الثلاثة قرون التي تلت رحلات ليو الإفريقي ، لم تحدث منافسات ذات بال إلى خريطة داخل شمال إفريقيا . فدانفي D'Anville في القرن الثامن عشر اعتمد على ليو كما اعتمد أوريليوس Ortelius في القرن السادس عشر . وفي خلال هذه المدة لم يحدث أن وجد أحد يوافق أو يعارض عبارة ليو في أن النيجر يتجه إلى الغرب ، وقد أظهر أوريليوس النهر ينبع بالقرب من خط الإستواء من بحيرة النيجر ويتجه شمالاً لقراية ستين ميلاً تحت الأرض حتى بحيرة برنو ( بحيرة تشاد ) ثم ينحرف إلى الغرب خلال بحيرة خيالية سماها بحيرة جوبر Guber ثم ينطلق إلى المحيط الأطلنطي حيث يصب بدلتا كبيرة ، يكون نهرا السنغال والجمبيا فرعين رئيسيين منها . هذا بينما أظهر دانفي أنه ينبع من بحيرة تشاد ( بحيرة برنو ) ويسير غرباً حتى وراء تمبكتو تماماً وينتهي فجأة بالقرب من بحيرة غامضة سماها بحيرة مابريا Maberri التي ظن أنها منبع السنغال . وبين أوريليوس ودانفي كان التغير الوحيد المادي هو ظهور شخصية نهر السنغال بينما كان النيجر أبعد الانهار عن الحقيقة .

ويعزى سبب بقاء راسمي الخرائط طول هذه المدة في جهل جزئي بداخل إفريقيا إلى ابتعاد أوربا ، فمنذ عصر الكشف الجغرافية في القرن

الخامس عشر . نشأ حاجز هو ثروة الأمريكتين والشرق التي بهرت أفكار الأوربيين فأفقد إفريقيا قوة جذبها . فالنهم الإنساني الذي هو أعدى أعداء الكشوف الجغرافية لم يعد يتطلع نحو إفريقيا، ووجد الرجل العادي القارات الأخرى أشد جذبا لخياله . فرغم أن تجارة الذهب أخذت في التضائل، ظل الأوربيون يتاجرون مع الساحل البربري، وعلى نطاق أوسع مع ساحل فانة . ومع ذلك لم يَخْتَفِ الاهتمام بالداخل المظلم . ويعزى جهل الجغرافيا أساسا إلى فشل التجار الأوربيين في أن يخترقوا الأرض سواء من موانئ الشمال أو من الساحل الجنوبي .

ففي الشمال ، بالرغم من تضائل تجارة الذهب استمر خوف الأوربيين من تحول الوسطاء المحليين ، كما أنكر عليه أن يتخذ له مواضع أقدام في الظهير، ولكن اختراق الداخل كان أشد صعوبة له ، عن طريق تغيير مادي في العلاقة السياسية بين أوروبا والولايات البربرية .

ففي خلال العصور الوسطى كانت القرصنة الإسلامية والمسيحية هي الحالة السائدة في الحياة الملاحية في البحر المتوسط، ولكنها — كما رأينا — لم تكن لتعوق التجارة . ففي بداية القرن السادس عشر أنهى عصر التسليح المشترك بسبب طرد العرب من أسبانيا وظهور الأتراك العثمانيين كقوة بحرية في المياه الأوربية، واتخذ العرب المطرودون مواطن استقرار على طول الساحل الشمالي لإفريقيا ، حيث بدأوا ينتقمون لأنفسهم بالإغارة على شواطئ أسبانيا ، واغلاق السفن المسيحية وخاصة في مضيق جبل طارق وممر مالطة، وهما لهم الشاطئ الإفريقي بخلجانه الكثيرة وانكساراته ما يفي بغرضهم ، ونجحوا في هدفهم بل وأكثر من ذلك في مساعدة الأتراك الذين أصبحوا في سرعة الشركاء السائدين فيما سمي فيما بعد بالمحنة المسيحية بفضل قيادة



اخوان بربروسا المشهورين، وفي خلال بضعة سنين أصبح لكل ميناء فيما بين جربه في الشرق وسالى في الغرب أسطولها الخاص بالقرصان .

وفي خلال القرون الثلاثة التالية نجح أمراء القرصان في إيقاع الإضطراب بكل تجارة البحر المتوسط ، وفي الإغارة على شواطىء أوروبا وفي استرقاق مئات الألوف من المسيحيين في حرية تامة ، ولما لم تكن القوة الأوروبية بقادرة على تجميع نفسها والوقوف في وجه الخطر المشترك ، فقد قنعوا بطلب الامان لسفنهم وإطلاق سراح مواطنيهم بدفع الجزية والفدية إلى القرصان بل بعثوا بممثليهم الدبلوماسيين إلى القصور لإفريقية لتنظيم هذه الأمور، ولضمان إطلاق سراح آلاف الرقيق من المسيحيين الذين تحملوا ذل تسيير السفن الإسلامية ، أو فقدوا قوتهم داخل الحمامات . ومن الطبيعي أن تعاني التجارة من جراء ذلك في الوقت الذي لم ينكر على المغاربة حقهم في البضائع الأوربية المصنوعة حين طلبوها .

وفي القرن السابع عشر كان استبدال الغليونات المربعة ذات الأشرعة الكبيرة بالسفن الصغيرة سبباً في أن يفتح أمام القرصان حقل واسع لغاراتهم، وساعدهم في مغامراتهم البعيدة بعض رجال البحر من الإنجليز الذين استبعدوا حين انتهت أيام الإزابت العاصفة ، وأتى حكم جيمس الأول السلمي فلم يكن أمامهم إلا أن يعرضوا خدماتهم على القرصان لينقذوا أنفسهم من الموت جوعاً . وإذا ما جهز القرصان بمراكب أفضل وبملاحين أكثر خبرة بدأوا يغيرون على شواطىء بريطانيا والدانمرك وإيسلنده . وفي أيام شارل الثاني استولى قرصان سالى على جزيرة لندى Lundy واقشعر أهل كورك Cork حين دوت أصوات المؤذنين في مياه موانئهم الهادئة .

وبنمو القوة البحرية الأوربية قصر القرصان غاراتهم على مياه البحر المتوسط، وهناك ظلوا تهديداً قاسياً حتى ختام الحروب النابليونية . حين اتفقت الدول في مؤتمر فيينا على أن يوحّدوا جهودهم ضد العدو المشترك ، وعلى شاطئ غانه كان الموقف أكثر صعوبة للأوروبيين ، ففشلهم في كشف الداخل لم يكن يعزى إلى العقبات الطبيعية القوية والأنهار غير الصالحة للملاحة والغابات التي يصعب اختراقها والجو المميت ، بقدر ما تسبب عن العلاقة السيئة التي نشبت بين التجار البيض وسكان الشاطئ ، وفيما بين كشفهم لطريق الرأس وفقدهم إستقلالهم بواسطة أسبانيا ، كرس البرتغاليون جل نشاطهم وعملهم لاستغلال الهند ، حيث كانت انتصاراتهم أكثر ظهوراً ولعانا ، رغم قصر عمره عن إفريقيا . وبالرغم من أنهم اعتبروا الأخيرة (إفريقيا) كاستراحة في منتصف الطريق إلى الهند ، فقد كانوا موضع الحسد من غيرهم ، لإدعائهم احتكار تجارة ساحل غانة لاسيما وقد أصبح هذا المكان مورداً للرقيق الذي يبعثون به إلى الهند الغربية ، وبموافقة الغرب فتح سوق للرقيق في لشبونة وفي سنة ١٥٣٧ ، وتبادل هذا السوق عدداً من الزوج يتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفاً صدروا إلى أمريكا عبر المحيط الأطلنطي .

وكان إهمال البرتغاليين لمواد تجارية هامة كالذهب والعاج والصمغ هو الذي جذب المنافسين من البريطانيين والفرنسيين ، ثم الهولنديين بعد أن تحرروا من حكم الأسبان . فدخلوا الحقل ، وقبل أن يمر وقت طويل أصبحوا سادته وشهد الساحل نشاطاً كبيراً في مجال المنافسة الدولية . ونمت الحصون التي بنيت لتكون سجونا للرقيق ولحماية القادمين من مذابح القبائل الإفريقية الغاضبة ، ولم تلبث أن تطورت حتى غدت قلاصا صممت بهدف مقاومة هجمات الأوربيين المنافسين ، وما فعله بربروسا للقرصنة في



شمال إفريقيا فعليه هو كنس Hawkineses بلايموت بعد ذلك في نفس القرن لتجارة الرقيق في غرب إفريقيا ، فقد تبينوا مقدار الأرباح الهائلة التي يمكن أن تزداد عن طريق التنظيم الدقيق وطرق العمل و كان هذا سبباً من أسباب شعبية التجارة ، وأما جون الابن تنظيم الحركة عبر الأطلنطي وخدم حاجات الأسبان المستوطنين في الهند الغربية بكفاية لم يصل إليها الآخرون . وفي منتصف القرن الثامن عشر قدر عدد الزنوج الذين وصلوا أمريكا بمليون . وفي خلال القرن أرسلت إفريقيا مالا يقل عن ستة ملايين من الرقيق ، وعندما بدأت الحركة تضرب شعور الأوربيين حول نهاية القرن هبط عدد الرقيق المصدر إلى مائتي ألف .

وقد اعتمد تجار الرقيق على زعماء الساحل ليدوهم بالأعداد التي يطلبونها ، وقد حصل عليه هؤلاء الزعماء من الداخل الذي كان على الدوام ميداناً لحروب الصراع القبلي ، وعندما بدأ المستكشفون الكبار في السنين الأخيرة يشقون طريقهم إلى الداخل اكتشفوا أن طلب الرقيق على الشاطئ مازال ملجأ ، إلى حد أن القبائل التي تعيش على بعد مئات من الأميال من البحر كانت دائماً معرضة للغارات من أجل المحافظة على كيه الرقيق ، فعلى سبيل المثال أخبر السلطان بلو سلطان سكو توهي تبعد عن البحر بمسافة ستائة ميل — كلاتون ان شعبه باع رقيقاً إلى اليوروبا ، الذين عادوا فباعوه بدورهم إلى المسيحيين .

وتعد تجارة الرقيق مسؤولة عن فشل الأوربيين في الولوج إلى الداخل من ناحية شاطئ غانه ، وليس ذلك لسبب فظائع التجارة وكرهية الأهالي المرة للرجل الأبيض الذي خافوه . ولكن بسبب الخوف الطبيعي من زعماء الساحل الذين سوف يصبحون — إذا سمح للأوروبيين الدخول —

دخلاء يسرقون منهم مركزهم الممتاز المربح كوسطاء ، ولذا صمموا على أن يمنعوا الرجل الأبيض من كشف مصدر رقيقهم كما فعل تجار الساحل البربرى حين صمموا على إخفاء مصدر الذهب .

وإلى جانب معارضة الأهالى ، كانت هناك العقبات الطبيعية التى كان يجب التغلب عليها ، على طول الشاطئ . كانت الأمطار شديدة الضغط . وقبل استعمال الكينين لم يستطع الأوربيون أن يحافظوا على أنفسهم<sup>(١)</sup> ولكن من أجل تجارة الرقيق تغلبوا بسرعة على هذه العقبات ولذا لم يتأخر طويلا كشف الداخل . وتبعاً لهذه الظروف السائدة اقتضت أماكن استقرار الأوربيين على شاطئ غانه خلال القرون السادس عشر والثامن عشر على الشريط الساحلى فكان هذا إلى جانب فشل الحضارة الأوروبية فى سحق أمراء القرصان فى الشاطئ الشمالى هو السبب فى الجهل بالسودان الغربى حتى نهاية القرن الثامن عشر .

ولحسن الحظ كان هناك من البريطانيين من تبين أن خريطة الداخل (ما زالت فراغا واسعا) وضع فيه الجغرافيون - استناداً إلى الإدريسي وليو الإفريقى - بيد مترددة أسماء - قليلة لأجزاء لم تستكشف بعد ولشعوب غير مؤكدة . فمجرى النيجر وأمكنة بدئه ونهايته بل حتى وجوده كنهر مستقل لم تكن شيئاً مؤكداً ، ورغبة فى تخليص القرن من تهمة الجهل، رغب

(١) يعزى تفوق سالى فى أعمال القرصنة إلى التنظيم الكامل الذى خلفه آلاف المغاربة الذين استقروا هناك بعد خروجهم من اسبانيا ، فى سنة ١٦١٠ كانت غاراتهم على المياه الانجليزية الأولى من نوعها ، فى سنة ١٥٩٧ أرسل روبرت مسيل مثل غيره من مواطنيه سفينته ( الحب الصادق ) إلى مراكش لتعمل فى التجارة والقرصنة .



أفراد قليلون تلح عليهم الرغبة القوية في زيادة رصيد المعرفة الإنسانية في رسم خطة لجماعة تقوم باستكشاف داخل إفريقيا .

وتألفت في سنة ١٧٨٨ في لندن جمعية لكشف داخل إفريقيا ، هي التي عرفت باسم الجمعية الإفريقية ، وتحت الإدارة القوية لجماعة صغيرة من رجال العلم ، كان السير جوزيف بانكس Joseph Banks أكثرهم ظهوراً ، بدأت الجمعية العمل بجمع المعلومات التي تستطيع الحصول عليها عن الداخل من القناصل البريطانيين والتجار الوطنيين .

وكانت نتائج هذا الاقتراب الغريب غير العمل لهذه العملية الكبيرة قليلة ، إلى حدان أهملت ، وتقرر إرسال المستكشفين ، وكان أولهم جون ليديارد Johnledyard من أجل البحث عن النيجر عن طريق مصر ، ولكنه مات في القاهرة قبل أن يبدأ رحلته ، وحوولت محاولة أخرى من طرابلس بواسطة لو كاس فشلت أيضاً ، فقررت الجمعية أن تكون المحاولة القادمة من الغرب ولكن رجلهم المبحر هيو تون Houghton لم يكد يبدأ رحلته من غمبيا حتى فقد حياته بعد عبوره لقالمي .

وعند هذا الحد الذي بدا فيه أن الجمعية لن تصل مطلقاً إلى هدفها ، تقدم شاب اسكتلندي لا يزيد عن العشرين من عمره ، هو منجوبارك وعرض خدماته التي قبلت في الحال ، فأرسل إلى غمبيا يحمل تعليمات أن يشق طريقه إلى النيجر ويتتبع مجراه من المصب حتى المنبع ولا حاجة بنا لأن نعيد القصة المعروفة عن كيفية وصوله إلى النيجر بعد سنتين قضاهما في مخاطر لانهاية لها ، وهي صعب كانت كفيلة بتحطيم رجل أقل بطولة منه ، وفي العشرين من يوليو سنة ١٧٩٦ عندما إقترب من سيجو عاصمة بمبارا رأى (سرور بالغ) الهدف الذي يقصده

من رحلته والذي ظلوا يبحثون عنه . نهر النيجر العظيم يلمع تحت شمس الصباح وعرضه يبلغ عرض النيمس عند وستمنستر وهو يتجه إلى الشرق .

ولم يقنع بما وصل إليه، إذ رغم صحته العليلة وموارده المجهدة، استمر بارك في رحلته وصمم على مزيد من المعرفة عن النهر العظيم الذي كشفه . فكتب ( ممزقاً بالمرض مرهقاً بالجوع والتعب نصف طار وبدون أن يحمل ما كان ذا قيمة تنقصه المؤونة والملابس والمأوى ) ( تبينت أن في محاولة الوصول إلى جنى ما سوف يفقدني حياتي لا لهدف ، ولسوف تموت معي اكتشافاتي فكان الهدف مظلماً ) .

ولذا عاد في طريقه نحو الساحل، ولكنه كان مريضاً إلى حد أنه شك في إمكان وصوله، وإذا كان قد عاد فالفضل في ذلك إلى العناية التي بذلها له تاجر زنجي يجمع الرقيق ليبيعه إلى الأوروبيين في غمبيا . فظل تحت عنايته المستمرة مدة سبعة شهور عادت إليه صحته في ختامها . وكان وصوله إلى إنجلترا — بعد أن غاب عنها قرابة ثلاث سنين ونصف حتى لقد اعتبر ميتاً — مشيراً في حد ذاته، وأثارت اكتشافاته لنهر النيجر حماساً شديداً في إنجلترا بل خارجها أيضاً، ونشرت مذكراته — التي كان ينتظرها العالم في شوق عن كيفية وصوله إلى حل أحد أسرار العالم الجغرافي القديمة — في عام ١٧٩٩ مصحوبة بمذكرات طويلة عن النتائج العلمية للبعثة، كتبها الميجور جيمس رنل عضو الجمعية الجغرافية الملكية وأكبر جغرافيين هذا العصر . وإلى جانب إعادة بناء جغرافية السودان الغربي على ضوء الاكتشافات الجديدة دخل رنل بشجاعة إلى مشكلة نهاية النيجر، إذ كتب أن إعادة قراءة الإدريسي والمؤلفين العرب الآخرين في الظروف المتغيرة، تقودني أن أصرح أن لا مكان لشك في أن جوليبا Joliba أو النيجر ينتهي إلى بحيرات في الربع الشرقي لأفريقيا، ويبدو أن هذه البحيرات تقع في وانجارا وغانا، واعتبر هاتين الدولتين بمثابة مصرف شمال أفريقيا، الذي تنشر فيه مياه النيجر انتشاراً واسعاً مما



يجعلها عرضة للتبخر، وهذه النظرة التي لم تكن جديدة والتي يسندها ثقة عظيم هو رنل وجدت قبولاً واسعاً بالرغم من إنها كانت بعيدة عن الصدق ، كما تبدو لنا غامضة ، وكان هناك بعض العذر لخطأ رنل . وقد نشأ هذا الخطأ مبدئياً من خطأ وقع فيه ليو حين وضع وانجارا في منطقة الهوسا التي أشاعت الاضطراب — كما رأينا — بين الجغرافيين مدة ثلاثة قرون . فظن رنل أن وانجارا التي ذكرها الإدريسي والتي ذكرها ليو شيء واحد . وقبل الاعتقاد السائد أن مدينة كانو التي في الهوسا كانت حقيقة في غانا القديمة<sup>(١)</sup> وبناء على هذين الفرضين الخطأ لم يكن مدهشاً أن يفشل رنل في محاولته إيجاد المواثمة بين جغرافي العرب في العصور الوسطى والاستكشافات الحديثة .

وبينما كان بارك يستكشف النيجر ، كان هناك شاب ألماني آخر هو قردريك هورنمان يحاول الوصول إلى النيجر عن طريق القاهرة . وآخر ماسمع عنه هو يوميته التي أرسلها إلى الوطن من مرزوق في فزان المؤرخة في إبريل سنة ١٨٠٠ ، ولكن علم فيما بعد أنه نجح في هدفه وأنه وصل إلى نوب Nupe على النيجر الأدنى حيث مات ، وضاعت بذلك وثيقة عن أهم الرحلات في تاريخ الكشف الجغرافية ، وأثارت هذه اليوميات التي أرسلت من فزان ، تعارضاً جديداً حول نهاية النيجر بإحياء النظرية القديمة عن التقائه بالنيل ، وبالرغم من هذا فإن رنل — الذي كان له أن يقاتل هرطقة جديدة تقول أن النيجر هو الكونغو الذي لم يكن يعرف عنه سوى مخرجه الواسع — أقنع نفسه أن هورنمان قد زودنا بدليل جديد عن إنتهاء النيجر عن طريق التبخر في مملكة وانجارا .

وعوات الحكومة البريطانية — تدفعها الجمعية الأفريقية — على أن تبذل يداء بإرسال حملة إلى الساحل الغربي للوصول بحراً إلى نهاية النيجر . وقبل

منجوبارك — الذى كان قد أخذ إلى حياة الخمول كطبيب محترف فى بيبلس Peebles — منصب القيادة وبني خطته على أساس أن يأخذ طريقه إلى سيجو، وهناك يبنى قاربا يبحر به فى النهر مخترقا ممالك الهوسا ونوب Nupe وكاسينا ( كاتسينا ) إلى مملكة وانجارا ، وإذا كان النهر ينتهى هناك، فسيعود عن طريق النيجر، أو عبر الصحراء أو بواسطة النيل أو خليج بنين، وإذا صح أن النيجر هو الكونغو فإنه سيتتبعه حتى مصبه . وأبحر منجوبارك فى يناير سنة ١٨٠٥ — يصحبه زميلان اسكتلنديان وخمسة من الصناع البحريين الذين كانوا سيبنون له قاربه وإذا ما وصل إلى جورى Goree لحقت به فرقة مكونة من ضابط وخمسة وثلاثين رجلا من الحامية البريطانية وبحريان . ودليل واحد من الماندنجو هو الذى قبل أن ينضم إلى الحملة .

والفرقة البيضاء التى أضعفتها الأحوال السيئة التى لم تعد تفضلها حياة الحاميات فى المداريات، أثبتت فى سرعة ادعاءات قاسية كان بارك مسرورا بالتخلص منها، وبدأ الأعضاء سريعا فى الشفاء من الحمى والدوسنتاريا، وقبل مرور وقت طويل، أصبح كل واحد يائسا إلى حد أن لم يبق غير تصميم بارك القاطع على أن يحافظ على تحرك الحملة نحو أهدافها، ولم تلبث الحملة أن وصلت باماكو على النيجر فى الوقت الذى كان جميع الصناع وثلاث أرباع الجند قد ماتوا، وقاوم الباقون حتى وصلوا سنساندينج Sansanding، حيث بدأ بناء القوارب وحيث أرسل بارك آخر رسائله فى نوفمبر سنة ١٨٠٥، التى قال فيها ( آسف لأقول أن من بين الأربعة الأربعة أوروبيا الذين رحلوا جميعا فى حالة صحية طيبة خمسة فقط أحياء . وبالرغم من أن جميع الأوربيين الذين معى سيموتون ، وبالرغم من أنى نصف ميت فما زالت أتابر ، وإذا لم أنجح فى الوصول إلى الهدف من رحلتى فإنى سأموت عند النيجر ) .

وكما عرف كل العالم فإن القدر تقاضى الثمن الكامل الذى كان بارك



مستعداً لأن يدفعه ثمننا لفشلة. وحمل الرسالة — آخر خطاب لبارك إلى زوجته — إلى الساحل دليل أمين من الماندنجو، وقد ارسل بعد ذلك بمدة ليعود لبحث عن سيده . فعرف أنه بالرغم من المعارضة القوية التي أبدتها الوطنيون في الطريق فإن بارك وثلاثة معه من البيض بقوا ليتبعوا النيجر لألف ميل، ونجحوا في الوصول إلى شلالات بوسا، ولما وجدوا الضفتين قد غطاها الوطنيون الأعداء، لم يجرؤ أحد منهم على النزول، وربما خافوا أن لا يتحمل قاربهم اندفاع المياه البالغ القوة ، فإنهم واصلوا سيرهم إلى المنحدر وهلكوا ، وظن البعض أن المظاهر الوحشية التي أبدتها الوطنيون المسلحون عند الضفتين ، لم تكن أكثر من تحذير الرجال البيض عن الأخطار التي كانوا يتدفعون إليها ، ولكن في مقابل هذا يجب أن نذكر تصميم الأهالي في الأيام الأخيرة على تجاهل الحادثة تماماً .

وكانت رحلة بارك الثانية فشلاً تراجيدياً بكل معنى الكلمة ، إذ لم ينج أحد من البيض من الموت، وبالرغم من هذه الخسارة الجسيمة والمسافة الكبيرة التي سارتها ، فإنها لم تلق ضوءاً جديداً على نهاية النيجر، ولسبب سوء التقدير في أن بوسا تقع على بعد ثمانين ميلاً من تمبكتو بدلاً من ثمانمائة فإنه لم يتبين اتجاه النهر أو احتمال نجاح بارك ، وفي نفس الوقت فإن النظرية التي تقول بأن النيجر والكونغو نهر واحد — كانت لا تزال محتملة يؤيدها ثقة المستكشف العظيم.

ومن بين الكثيرين الذين تأثروا بشجاعة منجوبارك، والذين اهتموا بمسألة النيجر، رجل اسكتلندي ذو عقل متسائل هو جيمس ماك كوين James Mcqueen الذي عاش في جزائر الهند الغربية، وتحت رعايته عدد من الزنوج الأرقاء من بينهم بعض الماندنجو وبعض الهوسا ومنهم حصل على كل المعلومات التي يمكن أن يدلوا بها عن النيجر . وبمقارنة هذه المعلومات التي عرفها من الأوروبيين والتجار الأفريقيين في الشمال وتجار الساحل الغربي وصل إلى نتيجة أن النيجر يمكن أن ينتهي فقط في خليج غانة . ولكن العالم الذي كان

قد انخلع قلبه من جراء الفواجع المتكررة في حقل الاستكشافات ، لم يكن مستعداً لسمع تعاليم النظريين الجالسين على المقاعد المريحة ، ولذا ضاعت كل نتائج مجهودات مالك كوين التي كانت تغطي حقلاً أوسع من النيجر .

وفي سنة ١٨١٦ حاولت الحكومة البريطانية أن تجرب نظرية أن النيجر والكونغو نهر واحد، حين أرسلت حملة إلى كل من النهرين ووصلت الحملتان إلى نهاية مفاجئة دون أن يلقوا نوراً جديداً على المشكلة، وبعد سنتين أرسلت الحكومة حملة إلى الداخل عن طريق طرابلس ، كان على رأسها الكابتن ليون ولكنها لم تصل إلى أبعد من فزان ، وكان اشتراكها الوحيد في المشكلة هو النتيجة التي وصل إليها ليون وهي التي تقول أنه عن طريق أو آخر تتصل هذه المياه بالنيل الأعظم إلى الجنوب من دنقلة<sup>(١)</sup> .

وفي سنة ١٨٢١ أرسلت الحكومة حملة أخرى من طرابلس ، يقودها ميجور ديكسون دنهام Dixon Denham ومعه الملازم هيو كلابرتون Hugh Clapperton والدكتور أودني Oudney ، وبعد تأخير استمر شهرين في مرزوق حيث بذل كل جهد منهم من التقدم، وصلوا إلى تشاد حيث كانوا يؤملون أن يجدوا على الأقل مفتاحاً يحل مسألة النيجر . فقد كشف دنهام ( أن قلبي في داخلي معلق على الأمل لأنني أعتقد أن هذه البحيرة هي مفتاح للهدف العظيم الذي نبحث عنه ) وخرج كلابرتون وأودني ليكتشفا أرض الهوسا وليبحثا عن النيجر في الغرب . ومات أودني بالقرب من كاتاجوم Katagum ، ووصل كلابرتون إلى كانو حيث أخبر أن النيجر أو كورا Kworra كما كان يسمى في جزئه الأدنى — يتجدر إلى البحر في مكان يسمى ركاك Rakah في منطقة اليوروبا. التي زارتها سفن المسيحيين. ولكنه وجد الأهالي

---

(١) كان لدى الحملة أمل في أن تسمع شيئاً عن باري الذي اعتقد البعض أنه لا يزال حياً عند السلطان ( تمبكتو ) من أجل كفاءته في الجراحة .



غير متصلين بالنهر، بسبب تخوفهم من إعطاء أية معلومات سوف يستعملها الأجانب للاستيلاء على بلادهم .

ومن كابو سافر غرباً إلى سكو تو عاصمة محمد بلو Mahemmed Bello الزعيم المسلم أو الزعيم الروحي لكل حكام الهوسا من الفولاني، فرحب به هذا . ويقول كلابرتون أنه وجده ملماً جداً بأحوال البريطانيين ويرغب منهم في أن يرسلوا بسفنهم إلى ركاح لفتح طريق التجارة مع دولته . كما كان راعباً في أن يرسلوا إليه قنصلاً وطنياً ليستقر في سكو تو ، ووعد كلابرتون أن يساعده في الوصول إلى باوري Yawri ونوب من أجل كشف النيجر . ولكن لسوء الحظ مازال العرب الذين كانوا يعيشون معه يلحون عليه حتى غيروا رأيه، لأنهم رأوا بوضوح أن فتح البلاد للتجارة البريطانية—وهو الأمر الذي فهموه من رحلة كلابرتون — لن يؤدي إلا إلى الإضرار بمصالحهم . ولكن كلابرتون أبان لهم في وضوح أن ثمن الصداقة البريطانية هو إنتهاء تجارة الرقيق ، التي كان الفولاني يعتمدون عليها ولذا لم يعمل شيئاً من أجل إزالة المصاعب التي وضعت أمامه .

وبناء على طلب كلابرتون حصل بلو على خريطة لمجرى النيجر الأدنى، وبالرغم من أن السلطان قال أن النهر يجري إلى البحر عند فنده Fundah وهي بلدة تقع قريبة من مينائه ركاح . بينما بينت الخريطة أنه يصب في النيل، فقد أكد هذا ما سمعه دنهام في برنو، ولكن كلابرتون ظل ثابت الاعتقاد أن مصب النيجر سوف يوجد في نهاية خليج غانة . ولما وجد أنه من المستحيل عليه الوصول إلى مزيد من النجاح ، فقد اتصل بدنهام في يورنو وطاد معه إلى إنجلترا .

وفي سنة ١٨٢٥ طاد كلابرتون إلى ساحل فانامو فداً من قبل الحكومة، لبحث عن النيجر الأدنى من هناك ، وصحبه أربعة من الأوروبيين ، كان أحدهم خادماً له

هو ريتشارد لاندر ، وعند الساحل لم يجدوا أحداً يعرف شيئاً عن ركاح أو فنده اللتين قال عنهما بلو أنهما ميناءان فكانت خيبة لهم . فنزل في باداجرى Badagry وأقنع إلى الشمال . وكان أحد رفقاء كلابرتون قد نزل في ويداح Whydah وانقطعت أخباره . ومات أثنان عقب تركهم لباداجرى وبقي لاندر وحده فسافر معه شمالاً عبر مدينة اليوروبا الكبيرة أويو Oyo أو كاتنجا Katanga إلى النيجر فوصلا إلى بوسا .

وقد أثرت الرحلة خلال الحزام الغابي على صحتهم ولم يفدهما مناخ كانو وسكوتو اللتين زاراهما فيما بعد، في استعادة قوتهم ، لا سيما كلابرتون . وكان الاستقبال البارد الذي لقياه في سكوتو من جراء إنتشار أشاعة تقول أن البريطانيين ينوون عزل الفولاني سبباً في ازدياد صحة كلابرتون سوءاً ، فمات في أبريل سنة ١٨٢٧ ، ورغم أن النتائج التي وصل إليها كلابرتون كانت أقل من تلك التي وصل إليها بارك ، فإن اشتراكه في المعرفة الإنسانية لم تكن أقل أهمية ، ففي رحلتيه اللتين أظهر فيهما عزيمة غير عادية وشجاعة فائقة، اجتاز القارة من طرابلس إلى ساحل قانة فكان أول أوروبي وصل إلى السودان الغربي من الجنوب .

وعاد لاندر وهو مضطرب الصحة ، إلى كانو ومن هناك توجه إلى فنده نقطة التقاء النيجر ببنوى، حيث عزم على أن يقلع متتبعاً النهر إلى نهايته، التي ظن — كسيده — أنها لا بد أن تكون في خليج بنين . وعندما اقترب من النهر وكله أمل في أن يصل إلى حل أكبر المشكلات في هذه الأيام منع من مواصلة السير، فعاد ادراجه. وفي الحقيقة أنه وصل إلى الساحل عند باداجرى دون أن يعلم شيئاً جديداً عن النيجر وأخذ طريقه إلى إنجلترا .

كانت الرحلة غالية الثمن من حيث النفوس البشرية التي ضاعت، وخيبة في نتائجها . وتبخرت الآمال في قيام علاقات تجارية مع الفولاني كما لم تلق سوى أضواء قليلة جديدة على سر النيجر . إذ مازال هناك كثيرون يرفضون قبول



نظرية إنتهاء النهر في خليج بنين بالرغم من تأكيد كلابرتون لذلك . بسبب الإعتقاد أن هناك سلسلة من الجبال الجرانيتية تمنع طريقه . واعتقد في هذا الرأي الجنرال السير روفان دونكين Sir Rufane Donkin دون اعتبار لما حققه المستكشفون الكبار أخيراً في هذا الحقل، واستناداً إلى ثروة كبيرة من الكتابات القديمة صرح أن النيجر لا بد أنه يصب في البحر المتوسط في خليج سرتس ، وكان هذا شيئاً كثيراً حتى لمجلة كوارترلى ريفيو The Quarterly Review التي ظلت حتى هذا الوقت تناصر بحماس ، كل نظرية جديدة حول النيجر . فأنهالت التهكمات على الجنرال الذي أجاب بكل كلمة في كل لغة، ولكنه صمت أخيراً بسبب الوصول إلى الحل النهائي للمشكلة الأمر الذي توصلوا إليه في العام التالي .

كان ريتشارد لاندن شغوفاً بأن يعود إلى إفريقيا ليكمل العمل الذي بدأه وهو في خدمة كلابرتون ، دون أن يكون مزوداً بأية ميزة سواء في تعليمه أو مولده . فدخل في خدمة الحكومة بعد أن وعد بمكافأة قدرها مائة جنيه بعد عودته ، ومرتب ٢٥ جنيه لزوجته خلال غيابه . وأبحر إلى إفريقيا بصحبة أخيه جون الذي رفض تناول أى نوع من المكافأة ، وكانت الأوامر التي حملها لاندن تقضى بأن يشق طريقه إلى بوسا ، ومن هناك يتبع النهر حتى فنده . حيث يرى إذا كان يأخذ مجراه إلى بحيرة أو مستنقع، وإذا نجح في هدم خرافه وانجارا القديمة فله أن يتبع النهر حتى البحر أو يعود شرقاً إلى بحيرة تشاد .

وصل الأخوان إلى بوسا في منتصف سنة ١٨٣٠ ، ومن هناك تتبعوا النهر إلى مكان التقائه ببونوى . ولكن الأيو أسروهما، وحين استعادا حريتهما شقا طريقهما إلى البحر عن طريق النهر ومادا إلى إنجلترا في يونيو سنة ١٨٣١ وأعانا حل المشكلة التي استعصت على العالم لمدة طويلة .

وفي نفس الوقت وصل مخاطر آخر هو الميجور جوردون لاينج سكوت Major Gordon Laing Scot إلى تمبكتو في أغسطس سنة ١٨٢٦، إذ كان الموقف الدقيق في السودان الغربي قد أثار اهتمام العالم المتمددين، وقد بدأ رحلته من طرابلس ومنها إلى غدامس فعين صالح حيث هاجمه الطوارق، فكد يموت من جراء ما أصابه منهم، ولكنه لم يلبث أن قتل بيد الفرقة التي صحبته، وضاع كل ما كان يحمله من أوراق، وجهل العالم كل ما تم عن هذا المستكشف ورحلته التي كلفته حياته، وكان على الناس أن ينتظروا طويلا حتى يطفئوا شوقهم إلى تمبكتو.

وبعد موت لاينج بعام، بدأ رينيه كاييه René Caillié (وهو شاب فرنسي ذو أصل متواضع من ريو نوني Rio Nunéz) رحلته من أجل تحقيق الأطماع التي كانت تساوره بكشف المدينة الغامضة، فتكر في زى عربي وشق طريقه إلى جنى، ثم تتبع النهر في قارب حتى وصل إلى تمبكتو بعد عام من تركه للساحل. وقد شعر بالحزن حين رأى المدينة أقل رومانتيكية مما كان يؤمل هو ورفاقه، إذ يذكر (كونت لنفسى فكرة مختلفة تماما عن عظمة وثروة تمبكتو. ولكن المدينة لم تكن — عند النظرة الأولى — شيئا سوى مجموعة من المنازل سيئة الشكل مبنية من الطوب اللبن. ولم يكن هناك أثر أو علامة (لمعبد ليو الفخم). والقصر الملكي الذي بناه أفضل عمال غرناطة) ولم يكن هناك مما وصفه ليو سوى ندرة الملح، ووجد كاييه أن التجار المغاربة مازالوا يجمعون الثروات بتصدير الملح من تاوديني لقاء البضائع الأوروبية من مراكش وتونس وطرابلس. ثم عاد إلى وطنه عن طريق الصحراء عبر أروان Arawan وتغازة، بصحبة قافلة تضم ٤٠٠ رجلا، تحمل الرقيق والذهب والعاج والصمغ وريش النعام والأقمشة، إلى تافيلت Tafilelt في جنوب مراكش وبعد أن



قاسى الحرمان القاسى الذى كاد من جرائه أن يموت، ووصل إلى فاس ومنها عاد إلى فرنسا حيث وجدت قصته ما كان يؤمله من اهتمام .

وبالعثور على حل لمشكلتى مجرى ونهاية النيجر ، وباكتشاف أن تمبكتو لم تكن إلا مجموعة من الاكواخ المبنية من الطين ، تبخر الاهتمام بغرب إفريقيا، ونسى الناس هذه المساحة الواسعة التى تضم الجزء الأكبر من مجرى نهر النيجر التى كان من الواجب أن يستكشف ، والحق أن الأجزاء الأبعد من إفريقيا مازالت سرّاً ينتظراً لاكتشاف أكثر من أى جزء اكتشف فى الغرب، كان لا يزال يكتشف الزمبىزى وبعد قليل تكتشف مساقط فكتوريا بينما كان كراب krap وربمان Rebmann يكتشفان الغطاء عن العالم الذى يقع على خط الاستواء ، ولكن قممه مغطاة بالثلوج ومن هنا نما سبب للاعتقاد إنه فى قلب القارة التى ظن أنها مسرح لجفاف لا نهاية له يوجد بحر داخلى كبير .

وبينما كانت أنظار العالم المتمدن مركزة على المستكشفين الشجعان الذين يجوبون نصف القارة الجنوبي ، وصل إلى إنجلترا غير ملحوظ من أحد مسافر متعب كان قد قضى خمس سنوات مخوفة بالمخاطر فى داخل الجزء الشمالى الغربى من إفريقيا . وهو الدكتور هنرى بارت Henry Barth وهو شاب ألمانى لم تجذب اتجاهاته الظاهرة كاستكشف انتباه أحد .

كان بارت ومواطنه الدكتور أوفروج Overweg أعضاء فى بعثة يقودها جيمس ريتشاردسن James Richardson الذى كانت الحكومة البريطانية قد أرسلته إلى طرابلس فى سنة ١٨٤٩ من أجل التفاوض فى عقد معاهدات تجارية مع زعماء الداخل . وفى منتصف الطريق عبر الصحراء ، افترق الرحالة على نية الالتقاء ثانية فى السودان ، وقاد بارت الطريق إلى ايرى حيث قضى بعض الوقت فى اغادس ، واستمر فى رحلته جنوباً إلى الهوسا وتبين هدفه البعيد

بزيارة كانو عاصمة إفريقيا الوسطى. كما أطلق عليها، ووصل إليها أخيراً وهو يكاد يكون مفلساً، فاضطر إلى أن يقترض من الأمير ما يكفيه من الأصداف ليتمكن من الوصول إلى برتو، وقبل أن يصل إليها سمع عن موت ريتشاردسن فتسلم هو قيادة الحملة، فكان أول واجباته أن يعقد المعاهدات التجارية مع سلطان برنو، ووجد بارت أن رغبة أهل برنو في الاتجار مع أوروبا من أجل الحصول على الأسلحة النارية يشوبها الخوف من عداوة البريطانيين لتجارة الرقيق وهي التي يطلبون الأسلحة النارية من أجلها.

وخرج بارت لبحث عن بنوى الأعلى، أكبر روافد النيجر، إذ لم يكن يعرف عنه سوى جزؤه الأدنى، فوصل إلى يولا Yola ولكنه وجد الفولاني المحليين قد قابله بعداوة اضطرتهم إلى أن ينسحب في سرعة، ولكن اكتشافه لبنوى الأعلى — الذي وصفه بأنه ساعة من حياته تدعو إلى أكبر الفخر — كان هاماً بل أهم من أي فرع آخر للمعرفة للجغرافية.

وبعد أن اكتشف كل ما حول بحيرة تشاد — حيث شهد بعض فظائع تجارة الرقيق والبؤس الشنيع الذي تسببه هذه التجارة — وجد نفسه مفلساً مرة أخرى ومضطراً إلى أن يتخلى عن عزمه في السفر شرقاً إلى النيل، وفي اللحظة التي كان فيها يتجهز للعودة إلى إنجلترا، تسلم على غير انتظار بعض رسائل من اللورد بلمرستون وبعض الدولارات الكافية، وقد اقترحت هذه الرسائل عليه أن يحاول الوصول إلى تمبكتو بدلاً من الاتجاه إلى الشرق، فكان هذا الاقتراح غير المنتظر هو الذي حفز بارت بشدة. وسرته فكرة المتابعة في الحقل المجيد الذي سلكه منجوبارك، ولكن كان عليه أن يحاول محاولته منفرداً إذ مات أوفروج قبل أن يبدأ رحلته التي قدر لها أن تكون رحلة خطيرة.

وقاد بارت طريقه إلى زندر وكاتسينا وكانو وسكوتو، ثم إلى جواندو حيث عثر على نسخة من كتاب تاريخ السودان المشهور ثم أقبل إلى صاي حيث عبر



النيجر ، ودخل في منطقة منحني النيجر التي كانت في حالة صراع حطرة من جزاء الحرب التي نشبت بين فولاني ماسينا المتعصبين ، وجيرانهم الطوارق والعرب ، فبالرغم من أنه اتخذ اللباس العربي ، فإنه لم يحاول أن يخفي أنه مسيحي ، والفولاني لم يكونوا مطلقا في حالة تسمح لهم أن يتساحوا مع مسيحي في وسطهم ، ولذا لم يجد دائما إلا الاحتقار ، فكان ثمنا لأمل وحيد هو الوصول إلى تمبكتو ، ونجح في ذلك ولكن بعد أن ظل يعرض حياته للخطر بصفة مستمرة ، وعندما وصل كانت صحته قد انهارت ، كما لم يكن وصوله يعني الأمان ، لأن الناس سرعان ما اكتشفوا مسيحيته ، ولحسن الحظ كانت تمبكتو لا تزال مدينة توقر العلم ، وكان دفاع بارت الروحي عن إيمانه ومعرفته العميقة بالديانة الإسلامية قد أكسبته عطف المثقفين والمواطنين أصحاب النفوذ ، وأيضا حماية البكاي El Bekkai الذي دان له بوصوله سالما . وكان هذا البكاي شيخ الكونتا Kunta العربية وهم الذين كانوا — وحلفائهم البرابش والطوارق في مركز السيادة بالنسبة للفولاني ، وكانت المجهودات الأكيدة التي بذلها الآخرون ليستعيدوا سيادتهم للمدينة بدت على وشك أن تنجح وفرصة ذهبية لتهدئتهم ليس من السهل إهمالها ولكن عندما طلبوا تسليم هذا الكافر لهم رفض البكاي طلبهم .

وقضى بارت معهم ثمانية أشهر في تمبكتو وماحولها ، وبالرغم من القلق الذي سببه وجوده . فقد جمع معلومات عن المدينة وتاريخها ، وفي خلال هذه المدة رفض البكاي بشدة ، دون مراعاة لأي اعتبار لمصالحته الشخصية ، أن يسحب حمايته للمسيحي ، وقد حاول الفولاني أكثر من مرة أن يقبضوا عليه حيا أو ميتا . وبعد ست سنوات عندما كان المحارب التوكولوري المنتصر الحاج عمر يهدد تمبكتو ، أرسل البكاي بعثة عبر الصحراء إلى طرابلس يطلب مساعدة الملكة فيكتوريا التي كانت كما ذكر له بارت — أقوى ملكة في أوروبا . واليوم يرقد جسده

في مقبرة أقامها الفرنسيون لتخليد ذكرى خدماته للحضارة، وكنصير للمستكشف الألماني، وعندما استطاع أخيراً أن يهرب من تمبكتو ليبدأ رحلة العودة، سافر بارت عن طريق النيجر إلى الهوسا التي وجدها - كما ذكر هو - أكثر الأماكن ملائمة ليقم بها أجنبي أكثر من كل البلاد والتي زارها في أراضي الزنوج .

وواصل بارت سيره شرقاً إلى بورتو، وعبر الصحراء إلى طرابلس، وعاد إلى إنجلترا في سبتمبر سنة ١٨٥٥، وفي خلال الخمس سنين التي غابها عمل أكثر من أي أحد من أسلافه، ليحقق سر قلب إفريقيا الشمالية، ولكن ما حققه بارت من نجاح لم يفد إنجلترا إلا قليلاً، فعند عودته إلى لندن استقبله اللورد بليرستون واللورد كلارندون بالعطف، فكان هذا العلامة الوحيدة للاعتراف بجهوده، الذي أظهرته الحكومة التي خدمها بكل إخلاص والتي لم تصرف على بعثته سوى ألف جنيه، ووفاء لدينه كافأته الجمعية الجغرافية الملكية بأعلى تقديراتها، وحقاً لقد استحقها ولكن اسم بارت ظل مجهولاً للعامة، فقيام البعثة وجد بعض الذكريات في صحافة لندن، ولكن عودة الرجل الوحيد الذي نجح لم يشر إليها قط . إذ كان الإهتمام بغرب إفريقيا قد أصبح ضئيلاً جداً عند نشر مذكراته ( رحلات واستكشافات في شمال ووسط إفريقيا ) فذهبت دون أن يتنبه إليها أحد<sup>(١)</sup> حتى كأن هذه المجلدات الخمس التي وصفت في جهد تفاصيل كل مظهر للحياة في أجزاء غير مستكشفة، لا توازي شيئاً في عالم أدب الجغرافيا الاستكشافية وتبدو بعيدة عن أن تصدق إلى حد أن رجلاً كانت حياته في خطر مستمر استطاع أن يجمع منفرداً وثيقة على أصدق ما يكون صورة مما يعد ثروة جغرافية وبشرية وتاريخية عن ممالك وشعوب لم

---

(١) طبع الناشرون ٢٢٥٠ نسخة من المجلدات الثلاث الأولى، وألفاً فقط من المجلدين الآخرين ( من خطاب من شركة لونيجمان وجرين وشركاهما إلى المؤلف ) .



تمكن قد عرفت حتى الآن، والنتائج الجغرافية الخالصة لأعمال بارت حققت له شهرة دائمة، فالإلى جانب أنه هو الذى استكشف بنوى الأعلى، فإنه كان أول من وصف النيجر الأوسط الذى لم يره أحد إلا بارت، ووصف بدقة متناهية أنهاراً وجبالاً ومدناً كان أغلبها غير معروف من قبل، ولكن لسوء حظه لم يستكشف ما يكفى لأن يشير اهتمام أناس كانوا مشغولين بحقول أخرى. وظلت حتى استطاعت أجيال لاحقة أن تعرف أن هنرى بارت هو الذى رفع الحجاب نهائياً عن شمالى غرب إفريقيا أكثر من أى مستكشف شهير قبله.



١٠٠



## عثمان بن فوديو

استمرت الفوضى التي ترتبت على الحملات المغربية على النيجر الأوسط حتى القرن التاسع ، عشر في الوقت الذي تحرك فيه مركز الاهتمام السياسي شرقاً إلى الهوسا ، وهو الاسم الذي يطلقه شعب الهوسا على بلادهم . بينما يعرفونهم باسم الهاوساوا ، ولكن يعرفون عادة بالهوساس أو الهوسا . وهو اسم لغتهم التي يبدو أنها خليط من الزغاوة والتمبجاغ Taghawa and Timajagh مخففة بالعربية .

وسكان الهوسا من أصل مختلط ، وبالرغم من أنهم أصحاب لغة واحدة وثقافة مشتركة ، لم تقم بينهم مطلقاً وحدة سياسية ، فالدم المغربي يجري في عروقهم بالرغم من أنهم زنوج المظهر . وتقول الأساطير كيف أن بطلا بربريا هو أبو يزيد قدم من بورتو إلى المدينة القديمة داورا حيث ذبح الثعبان المقدس وتزوج من الملكة . ومن هذا الاتحاد نشأ مؤسس إمارات الهوسا السبع داورا Daura وكانو Kano وزازاو Zazaw أو زجزج Zegzeg وجوبر Gobir وكانسينا Katsina وبيرام Biram ورانو Rano ، وأصغر الولايات وهي كبي Kebbi ونوب Nupe وجواري Cwarj ويلوا Yelwa وإيلورين Ilorin وكوارارافا Kwararafa وزامفارا Zamfara التي كانت تعرف باسم بانزا بوكوي Banza Bokwoi أي السبعة غير الشرعية ، وكانت داورا دائماً تعتبر الملكة الرئيسية واعتبرتها الأخريات دائماً أكثر أماناً كنهم قداسة .

والتشابه كامل بين قصة أبو يزيد قاتل الثعبان وقصة ذا اليمين  
Za Aliamen ذابح صنغاي إله النهر، فكلا الأسطورتين ذات أصل في  
حملات البربر أو الزغاوة للسودان . ويحتمل أنها ألفت في القرن العاشر .  
فالزغاوة كانوا ملثمين أو طوارق أتوا من الغرب ، وجعلوا من أنفسهم  
طبقة حاكمة أرسقراطية في السودان من حدود إتيويا إلى السنغال ، وما  
زالوا إلى الآن يحتفظون بهذا الاسم في وادى فقط إلى الشرق من بحيرة  
تشاد ، وفي هوسا وما حولها من أقاليم دندى وبورجو حيث ماش عدد من  
الصناع المشتغلين بصناعة المعادن والجلود ، ويحملون جميعاً إسم زوجوران  
زوجو Zogoran Zugu أو زوجورما Zugurma أو زوروماوا  
Zaromawa وجوامبي Jawambe ، وكانوا مختلفين عن بقية السكان  
الذين كانوا من الزغاوة ، وادخال الحصان وكذلك فن حفر الآبار  
بالصخور يعزيان إليهما .

ويبدو أن الزغاوة الذين غزوا الهوسا — وهم الذين يطلق على نسلهم اسم  
هابي Habi — هم الذين اتخذوا من جوبر عاصمة لهم لنبلهم ، ولذا استقر هناك  
الايماجيفان ( الارسقراطية ) وربما كان هذا دليلاً على أن الساراكونا  
Sarakuna وهم الأسرة الحاكمة في جوبر كانت لهم علامة مميزة تحت إحدى  
عيونهم وهي تسمى تاكن كازا takinkaza وكانت توجد تحت  
أعين بعض فراعنة مصر ، وبالرغم من هذا فإن الجوبراوة كانوا محتقرين من  
الهوسا الآخرين .

ومصدر هام من مصادر تاريخ الهوسا حوليات كانو Kano  
Chronicles ، وهي تسجل حكم ثمان وأربعين من ملوك كانو من الباجودا  
Bagoda الملقبين بالساركي ( ٩٩٩ — ١٠٦٣ ) إلى محمود بلو ( ١٨٨٣ —  
١٨٩٢ ) . واستناداً إلى الأساطير المتوارثة أنشئت كانو بواسطة صناع



الحديد الذين عرفوا باسم اباجازاوا Abagazawa وهو اسم قبلى ما زال مستعملا فى كانو بواسطة عائلات الحدادين الذين مارسوا حرفتهم لأجيال غير محدودة وباجودا أول ملوك الهابى كان ابنا لداورا قاتل الثعبان .

ودخل الإسلام إلى الهوسا فى القرن الرابع عشر واعتنقته كانو عن طريق الوانجاراوا Wanjarawa أو الماندنجو ، القادمين من مالى ، وبالرغم من أن ثقافة الهوسا تأثرت إلى حد كبير بالإسلام وخاصة فى نظام الحكومة وإدارة القضاء إلا أن الأهالى لم يتحرروا تماما من معتقدات أسلافهم القديمة ، ولذا تسربوا إلى الوثنية وأمن بها كثيرون — كما يفعلون الآن فى المعتقدات الوثنية القديمة ، ومن المحتمل أن كانو وصلت إلى أقصى قوتها تحت حكم محمد رمفا Rinfah ( ١٤٦٣ - ١٤٩٩ ) الذى أصبح — كما كان اسكيا الكبير — تحت تأثير المغيلى . وحوالى سنة ١٦٠٠ — بعد غزو صنغاي للهوسا مباشرة — أصبحت كل الدولة تابعة للكاواراراوا Kwararafa أو الجوكون Jukons من حوض جونجولا بنوى Gongola Benue الذين احتلوا كانو فترة من الزمن ، وحوالى سنة ١٦٨٠ طرد البورنو الغزاة وأصبحت كانو تابعة لهم .

وكانت كاتسينا — عدوة كانو الرئيسية — قد خضعت هى الأخرى لصنغاي ولكنها قاومت الكواراراوا ، وفى القرن الثامن عشر لم تكن كاتسينا أقوى من كانو بكثير فحسب ولكنها كانت أحد الأسواق الهامة فى السودان الغربى ، وتمتع ببعض السمعة كمرکز للعلم وانتعشت على حساب تجارة الصحراء فأصبحت بصفتها الباب الشمالى للهوسا مركز تسويق هام . وأسماء ساحات المدينة — ومعظمها يرجع إلى هذا العهد — تظهر أن تجارتها الخارجية امتدت حتى الصحراء الشمالية وغربا حتى السنغال ، فهناك

تودون مالي Tudun Mali وتواتنكي Tawatinke أي ربيع أهل توات . وريع وانجاراوا وسارارين تسako Sararin Tsako أو معسكر طوارق كل أوى . وفي منتصف القرن تحرك الجوبروا الذين طردوا من مواطنهم السابقة في ايرى أو أشين Ashen جنوباً إلى زامفارا مما دفعهم إلى الصراع مع الكاوتسيناوا . فتلا ذلك حروب طويلة لم تسفر عن شيء . والتاريخ القديم لزازاو أو زجزج غامض ولكنها اكتسبت بعض الأهمية في القرن الخامس عشر تحت حكم الملكة القوية أمينة التي وجدت نفسها في حالة سلام مع جيرانها ، فطافت بأنحاء مملكتها تبحث لها عن عشيق أينما استقرت ، مثل ما فعلت دواجر Dwaker أميرة الصين المشهورة وكانت تقتله قبل رحيلها ، وربما تكون زاريا عاصمة زازاو Zazaw قد بقيت في القرن السادس عشر بواسطة باكوا Bakwa الذي ذكر أنه الحاكم الذي حرر شعبه من إرهاب غزوات الكاورارا فا .

وبالرغم من أن الزراعة كانت دائماً الحرفة الرئيسية للشعوب المتكلمة بالهوسا ، فقد اشتهروا دائماً وبحق أنهم صناع مهرة وتجار نشطين ، واشتهرت منتجاتهم الجميلة لحداديهم ونساجيهم وصباغيهم وديباغيهم وصناع الجلود ، جذبت تجاراً من الغرب وأعطت كثيراً من مدنها أهمية كبيرة ، ونشطت تجارتهم الخارجية أيضاً عن طريق كثير من تجارهم المحليين ، الذين حملوا مصنوعات بلادهم إلى كل البلاد المجاورة ، وجعلوا لغتهم سائدة lingua Franca لجزء كبير من السودان الغربي ، ومعروفة في جميع الأسواق من أم درمان حتى تمبكتو ومن طرابلس إلى خليج غانه .

وأهم ما ميز مدنها ، الحائط الذي تعود الاهالي أن يسوروا به مدنها وقراها ، وغالباً ما كان هذا السور مكوناً من أجزاء قد ضمت إلى بعضها

وسور كانوا — على سبيل المثال — كان قطره لا يقل عن ثلاثة عشر ميلا .

وبسبب تعود هذه المدن الخاضوع لمدد طويلة للسيادة الأجنبية ، فإن الرجل من الهوسا لم يكن إلا قليلا بمن يحكمه ، مادام يسمح له بأن يزرع حقله بسلام ، أو يقوم بصنع مواد التجارة أو يقبض على سوقه ، فبالرغم من أنه يخضع بصفة مستمرة لحكام من الأجانب فإن شعب الهوسا ظل يدير بنفسه شؤونه المحلية ، الأمر الذي مكّنه من تطوير نظامه الإجتماعي ، متأثراً إلى حد بعيد بالثقافة الإسلامية كما حسن إلى حد كبير نظام حكمته عن طريق توارث الموظفين الذين ما زالوا يحتفظون بألقابهم حتى اليوم .

وفي خلال القرن الثامن عشر استعادت كانوا تدريجياً سيادتها التجارية التي سلبتها إياها إلى حين إمارة كاتسينا ، التي جعلت اسمها معروفاً في أسواق البحر المتوسط لقرون مضت . ففي أيام ليو كان سكانها أكثر ثروة وحضارة من غيرهم ، وعلى مثال تمبكتو وجاو كستها شهرتها في المغرب جلالات لم يكن يضاهي ، إلى حد أن كلا برتون الذي كان أول أوروبي يسجل زيارته لكانو ، اعتقد أن دخول مدينة مشهورة كهذه مناسبة جدية بالتخليد ، فقد كتب يقول ( لبست حلة بحرية وجعلت نفسي رشيقاً بقدر ما سمحت الظروف . وفي الساعة الحادية عشر دخلنا كانوا العاصمة العظيمة لمملكة الهوسا ، ولكنني لم أكد أجتاز الأبواب حتى شعرت بالخيبة المرة . فمن الوصف العظيم الذي وصفها به العرب توقعت أن أرى مدينة ذات عظمة مدهشة ولكنني وجدت على العكس أن المدينة تبعد قرابة ربع الميل عن الأسوار ، وتفرقت مساكنها إلى مجموعات متباعدة في مجموعات كثيرة بينها برك عفته من الماء ، وضاعت حتى جميع المشاق التي تحملتها في عمل زيتني لأنني

( م ١٩ — المالك الإسلامية )



لم أجد فرداً واحداً يدير عينه لينظر إلى ، بل كان كل واحد يهتم بعمله الخاص ، مما سمح لي أن أمر بحالته دون ملاحظة أو إشارة .

وكانت زيارة كلا برتون لكانو قد حدثت في فترة الانتعاش التي أعقبت حوادث الهوسا المثيرة . ففي بداية القرن التاسع عشر كان الجوبروا في أقصى قوتهم في الشمال الشرقي . وكانت برنو السيد غير المنازع في الشمال الشرقي . تتسود كلا من كانو ومملكة جوكون التي يسكنها الكاورارافا والتي غرقت في الظلام ، وفي الجنوب كانت نوب لآزال مستقلة ، ولكن الحروب الأهلية قد أضعفتها ، وزاريا وكاتسينا كانتا مستقلتين إسمياً ولكن تحت نفوذ إن لم يكن تحت وصاية بورنو . وهكذا كان الموقف السياسي لولايات الهوسا حين هب الجهاد الفولاني عليها .

وصل الفولاني أو الفولبي كما يسمون أنفسهم إلى الهوسا من الغرب في القرن الثالث عشر ، وكانوا مقسمين إلى البوروروجي Bororroje أو فولاني البقرة Cow fulaw وفولاني الجدا fulanin Gidda أي فولاني المدينة ، وكان الأولون رعاة وكان قبولهم للوثنية وعزوفهم عن الحياة المستقرة قد مكناهم من أن يحتفظوا بدرجة عالية من الثقافة العنصرية ، بينما كان الآخرون مسلمين يحبون الحياة في المدينة والقرية ، مما أدى بهم إلى التصاهر مع شعوب مختلفة سكنوا هم بينهم ، فقدوا سحتهم الشاحبة والمميزات التي تميز بها جنسهم البوروروجي . والفولاني كاليهود والفجر شعب لا وطن له لم يتفرقوا — كالفجر — إلى مجموعات قبلية بالرغم من قرون النجول .

ولم يزجج تسرب الفولاني إلى الهوسا أحداً ، إذ حافظ البوروروجي على عزوفهم التقليدي ولكن فولاني الجدا إستقروا في المدن والقرى وتصاهروا

إلى أهلها كعادتهم، وتكاثر عددهم بمن قدم إليهم من الغرب لمدة طويلة، حتى إذا كانت نهاية القرن الثامن عشر كونوا عنصراً مناسباً في السكان — وبسبب تفوقهم الثقافي شغلوا كل المراكز العالية ذات النفوذ، وبالرغم من هذا فقد احتفظوا باحتقارهم التقليدي الذي يكنه الزراع للبدو والبعض للزنج وقيل فولاني الجدا كنوع من الأرستقراطية وقدر زراع الهوسا البوروروجي من أحل زيدهم ووفرة قطعانهم .

وكانت أحد عشائر الفولاني الجدا ذات الأثر الكبير هم زنوج التوروكي Torkoe أو تورنو كاوا وهم أهل تورو في حوض السنغال التي هي أول مواطنهم المعروفة، حيث اكتسبوا بشرتهم السوداء عن طريق الزواج من الزنوج المحليين . ومن تورو هاجروا تدريجياً نحو الشرق، تاركين خلفهم مواطنهم عند أعالي النيجر وأواسطه حتى وصلوا جويز حيث اتخذوها موطناً لهم وتحركت إحدى عشائرهم إلى اداماوا في حوض بنوي .

وينتمي عثمان بن فوديو بطل فولاني الهوسا الوطني إلى تورونك جويز . ولد في سنة ١٧٥٤ ونشأ مسلماً متمسكاً بعقيدته على المذهب المالكي، وأراد أن يرضى عاطفته بالدين الملتهب، باتخاذ حياة الدعوة وكانت طبيته وجاذبيته الشخصية سبباً في أن يكسب تلاميذاً وخاصة في جويز، حيث تشدد في مهاجمة ارتداد الجوبريين عن الإسلام إلى وثنية أسلافهم هابي، فأثار سخط تافاتا ملك جويز الذي كان نصيراً للوثنية، فأصدر تافاتا قراراً بأن من يولد مسلماً ليس له الحق في ممارسة الديانة الإسلامية، ومنع لبس الرجال للعمائم والنساء للحجاب، ولكن لم يكن هناك عداء صريح أو صراع بالذراع حتى خلف يوتفا Yunfa أباه تافاتا، وكان هذا تلميذاً لعثمان أو كما يسمى الآن شيخاً، ورأى نفوذ معلمه القديم في ازدياد مهدداً عرشه: فتآمر على قتله . ولكن فشل المؤامرة أكسبت الأستاذ مزيداً من العطف



حتى لقد أصبح بطلا شعبيا ، وإزاء ازدياد مد السخط عليه سار يوتقا إلى مدينة دجل حيث عاش الشيخ ، واضطره إلى الهرب . ويحدد ٢١ فبراير سنة ١٨٠٤ تاريخ هجرته أو هرب الشيخ من دجل Degel إلى جودو Judu ، حيث التف حوله تلاميذه الكثيرون ، حتى لقد وجد نفسه على رأس فرقة كبيرة من المحاربين ، كلهم يشتعل بالحماس الديني لسيدته ومستعد لأن يبذل حياته من أجل قضيتته .

وفي يونيو من السنة التالية هزم المسلمون يوتقا وجيشه على شواطئ تابكن كوتو Sabkin Kwoito ، وأقسموا وهم لا يزالون في أرض المعركة يمين الجهاد ضد الكفرة ، وأعلنوا قائدهم أميراً للمؤمنين أو ملكا للمسلمين وهو اللقب الذي حمله أسلافه السلاطين الحاكون لسكوتو . وصرح الشيخ ( لا تدعوا أحداً يظن إنني قبلت هذا المنصب كي أكون أكبر من أي فرد أو لكي يتسود عدى الآخرين ) .

وتسببت هزيمة الجوبريين في انتشار الخطر . وتنبه ملوك كاتسينا و كانو وزازاو وداورا وأدار إلى خطرهم ، فانقض كل منهم على أنصهار الشيخ في بلده ، وقام الفولاني ضد ملوكهم ، واشتعلت الحرب الأهلية في البلاد ولكن لم يكن كل الفولاني في صف الشيخ . بل انضم بعضهم إلى جوبريينا وقف كثير من الهوسا بين صفوف جيش الشيخ .

وباستئناف الجهاد أعطى الشيخ لكل من يثق به من أنصاره علما باركة ، وأمرهم أن يخلصوا العالم من الكفرة . فسرعان ما كسبوا لأنفسهم إمارات كاتسينا و كانو وزاريا وبرنو وهديجا وأدامارا وجومي وكاتاجوم ونوب وايلورين ودورا وكازورا ويوشي ومساو والآن يكاد يكون كل حاكم لأحد هذه الإمارات سليلا لحامل العلم .



وبالرغم من هذا النصر على الجويريين فشل الشيخ في الاستيلاء على العاصمة الكالاوا Al kalawa ، ثم هزم بعد ذلك هزيمة منكرة عند تسنتسوا Tsuntsuas ، وبالرغم من ذلك مازال سيل الأنصار ينصب عليه من أجزاء بعيدة عن الهوسا ، وقبل مرور وقت طويل أصبح له جيش أكبر من كل من تجمع حوله من قبل ، فسقطت له زاربا في سنة ١٨٠٤ كما استولى على كاتسينا في سنة ١٨٠٥ بعد حصار طويل . وفي نهاية العام هزمت قوات الفولاني ملك كانو في معركة ووضع في القيد كثير من جيش كانو الذي بلغ عشرة آلاف من حملة الحراب ، ولم يعد حملة الدروع أكثر من بقايا غير نظاميين تحت ضغط حملة الأقواس من الفولاني واحتلت مدينة كانو دون معارضة . وفي نفس العام هزمت قوات الشيخ هزيمة نكراء في ألواسا Alwassa بالقرب من جواندو gwandu . وتغلب عليهم خليط من الجويريين الكباوا Kebbawa يسندهم الطوارق واشتد المنتصرون في ضغطهم حتى لقد أصبح مركز الفولاني دقيقا .

وفي سنة ١٨٠٦ حاول الفولاني من جديد محاولة ناجحة ليكسروا قوة الجويريين بالاستيلاء على عاصمتهم ، ولكن في سنة ١٨٠٨ بعد تجهيزات قوية استولى بلو بن الشيخ على المدينة وذبح يوتفا ، وبسقوط الكالاوا التي لم تنق منها جوبر مطلقا لم يكن هناك ما يهدد سلطة الشيخ الذي أصبح مقامه أكثر ارتفاعا بوصول إير ملك أغادس وهو طارقي سليما من كل أذى ، وكان قد قدم جنوبا خصيصا ليقدم خضوعه له . ويعد الطوارق هذا علامة تقدير لفتح الدولة التي ظلوا يمارسون فيها حق الرعى الذي هو أساس اقتصادهم ، فأظهر ذلك للهوسا أن أي معارضة جديدة لن تجدى .

ولكن الشيخ لم يعد يشعر بالأمان طويلا ما دامت قوة برنو التي تقع على حدوده الشرقية لم تحطم . وخاصة أن بعض زعماء الهوسا كانوا لا يزالون

يتطلعون إلى المساعدة . فلم يضيع وقتاً في السير ضد أهل برنو فهزم جيشهم ولكنهم — كالهوسا — اتجهوا إلى الشرق طلباً للمساعدة من كانم التي كان يحكمها رجل ذو مقدرة كبيرة . وهو محمد الأمين أو الشيخ لامينو وهو المعروف في التاريخ باسم الكانمى، وكان مسلماً متعصباً ولكنه يدرك أن إichاءات الفولاني لن تقنع بفتح بورنو، فسار جنوباً وأعاد الفولاني إلى الهوسا . وعندما جددوا هجماتهم استطاع أن يخلص الدولة منهم ، وبالرغم من أن الفولاني استمروا يغيرون على برنو واحتلوا منطقة كبيرة على حدودها الغربية بنجاح عظيم إلا أنهم لم يهزموا الدولة .

ومنذ الأيام الأولى للجهاد كان الشيخ يتخذ من سكوتو مركزاً لقيادته ، ورغم أن الانتعاش قد أصغ على سكوتو جواً محترماً من القدم بدليل إشارة زوجدى Zogde صاحب خريطة كاتالان في سنة ١٣٧٥ وساجوتو فإنها لم تكن أكثر من معسكر للصيادين عند أقدام شجرة التمر هندی التي ظلت حتى سنة ١٩٥٠ ترى في رحاب المسجد وظلت مجرد معسكر حتى سنة ١٨٠٩ حين بنى بلو المدينة الحالية التي ظلت مركز ملك المسلمين<sup>(١)</sup> .

وكانت سكوتو أقرب ما تكون إلى الحدود القريبة لأمالك الشيخ الجديدة فلم يكن من المدهش أن تكون السنة التي بنيت فيها المدينة شهدت أيضاً فتح دندى Dendi ، بواسطة الشيخ ووزيره المدعو عبد الله الذى طارد الأعداء الهاربين عبر النيجر . وكتب عن ذلك بلو يقول ( وعندما وصلنا النهر

---

(١) وقد تكون سكوتو اسماً للمنطقة وفي يونيو سنة ١٦٩٤ سمع عمن تدعى عابشة Ayesha زعيمة قبيلة من الفولاني حملت اسم سكوتوما ومعناها حاكمة سكوتو ( بالر برنو الصحراء والسودان . ص ٣٩ ) .

خضع النهر لنا حتى اجتزناه. وعبرناه مرة أخرى، وفي ذهابنا وعودتنا لم تصل المياه إلى أعقابنا .

وبالرغم من هذه الحادثة (حين نتذكر أمثال هذه الحادثة في التاريخ وخاصة عبور الإسرائيليين للبحر الأحمر والاسكندر لبحر بانفليا) قد أصبحت تسمى العبور العجيب للنيجر، فهي ليست عجيبة كما تبدو، فبارت قد ذكر أن النيجر يمكن عبوره في بضعة أماكن بين توساي Tosaye وجاو، كما وجد الكابتن هل أحد أعضاء حملة حقل الزيت أنه عند نقطة التقاء النيجر بالبنوي يمكن عبور النيجر سيراً على الأقدام.

وإلى الغرب من النيجر كان هناك كثيرون من الفولاني بينهم عشيرة فورونكي حيث كسب الشيخ كثيراً من الأنصار، ولكن تأثيره في منطقة حنية النيجر لم يكن كبيراً بالرغم من أنه مارس سيادة إسمية على منطقة لبتاكو Liptako، حيث كانت دورى Dori تلعب دور المدينة الرئيسية، وبين أتباع الشيخ المبكرين كان هناك من يدعى أحمدو لوبو Ahmadu Lola وهو عالم من الفولاني أو ماسينا وقد عرف فيما بعد بالشيخ أحمدو ولما عاد من جوبريشتل من حماس شيخة للإصلاح اضطهده هو ومن تجمع حوله من تلاميذه أردو Orde ملك ماسينا الفولاني، وأرما ملك جني Arma of Jenne فأكسبه هذا الاضطهاد عطف كثيرين من السكان فأزعج أردو إلى حد أنه طلب المساعدة من سيدة ملك سيجو البامباري . كي يكبح جماح مد الاضطراب الزاحف أعلن الشيخ الجهاد، وهزم جيشهم وبالرغم من تفوق أعدائه عليه في العدد — وحرر ماسينا للمرة الأولى منذ القرن السابع عشر من وصاية سيجو البامباري . وأرسل الشيخ — بعد أن أصبحت حياته صورة طبق الأصل من حياة سيده اثنين من أخواته يسألان بركة الشيخ عثمان، فنحهما إياها، بعد ذلك تيقظ الاعتقاد الراسخ في أن الشيخ أحمدو كان أحد حملة إعلام الشيخ



فضم ذلك إلى صفة هؤلاء الذين ظلوا مخلصين لأردو فأسلموهم أسرى .  
فأصبح الشيخ الآن سيداً غير منازع لمسبنا، فحمل كسيده لقب أمير المؤمنين  
وجعل مركز قيادته في قرية تدعى حمد الله . وسار في حياة الفتح، الأمر الذي  
جعله سيداً لأملاك متسعة امتدت من تمبكتو حتى الفولتا الأسود .

وفي سنة ١٨١٠ اكتمل جهاد الشيخ عثمان . وككل غزاة السودان وجد  
الفولاني أنفسهم غير قادرين على اختراق غابات الجنوب . وكان هذا الحاجز  
الطبيعي في مثل هذه الحالة قد أصبح أكثر قوة بواسطة قوة اليوروبا الحربية  
المناسبة، وعلى طول مجرى البنوى بواسطة القبائل القوية الوثنية ساكنة التلال  
مثل السورا Sura والتنجالي Tongale . في الشرق وصل الفولاني إلى بولا  
واحتلوها ، وفي الشمال الشرقي وبالرغم من اختراقهم لطرق بورتو فإنهم لم  
يتسودوها . وفي الغرب استمروا يهزمون الكييارا الذين مازالت روح  
الكائنات حية فيهم بالرغم من قربهم إلى مواقع الفولاني الرئيسية الحصينة . إذ  
سقطت مدينتهم الهامة برنين كبي Bernin Kebli في يد الفولاني من أيام  
الجهاد الأولى ، ولكن بالرغم من خضوع كثير من الكيياوا فقد كان هناك  
جماعة من الخارجين الذين احتفظوا باستقلالهم—في أرجنغو Orgungu يقودهم  
أفراد طائفة الإسماعيلية إلى وقت مجيء البريطانيين أي بعد ذلك بقرن بالرغم  
من وقوعهم بين عاصمتي الفولاني التوأمتين سكوتو وجواندو .

أما وقد رضى الشيخ بما وصل إليه، التفت إلى تنظيم وإدارة إمبراطوريته  
فقسمها إلى قسمين ، شرقي عهد به إلى ابنه بلو، وغربي وضعه تحت يد أخيه  
وزيرى عبد الله . وجعل الأول سكوتو مركز قيادته بينما اختار الثانى  
جواندو في إقليم كبي ، وبين الاثنين تقع كيياوا الحصينة في أرجنغو، ولقرن  
نال حكمت إمبراطورية الفولاني من هاتين العاصمتين التوأمتين واستمدت  
الحكومة قدسيتها من الشريعة الإسلامية . وطلت كذلك في الهوسا . وكانت

الضريبة ومعظمها من الرقيق تدفع سنوياً إلى سكوتو وجواندو ، وكان على الأمراء تزويدها بالجيش المطلوب وطالما أدبت هذه الخدمات بانتظام حرصت الحكومة المركزية على التدخل بقدر يسير في شؤون الإدارات .

وإذا ما تم تنظيم هذه الإمبراطورية ، شعر الشيخ أن واجبه الديني قد انتهى ، فأمضى ما بقي له من العمر في خلوة يجد خطتها وإدارتها في الدرس والتجهد الرضي لروحه غير الدنيوية أكثر من الحوادث المثيرة التي سبق أن خططها ، وسيظل اسمه مقروناً بالشرف في الأرض التي تسودها من أجل تحقيق مثله العليا . وكان تأثيره واضحاً خلال حياته كما كان اسمه موضع الإكرام في الجزء الأكبر من السودان الغربي ولكنه الآن يكاد ينسى ولم يخلد ذكره وأعماله أفضل من مذكرات المستر دانييل الذي كانت تجاربه الطويلة كإداري في إمارات الفولاني تعطى وزناً لكلماته . فقد كتب يقول : ( عاش الشيخ ليري خاتمة أعمال حياته . وجد الإسلام تحت النير ، فارتفع به إلى عليين وبعد أن كان الفولاني قطعياً من البدو ، أصبحوا الطبقة الحاكمة في إمارات الهوسا . وكان رجلاً مخلص العقيدة ذا إيمان ديني عميق ، وثقته في الدعوة الإلهية لا حد لها ، وشخصيته تبعث الحياة في أنصاره في ثقة شبيهة بثقته في نفسه . وعاداته البسيطة وحياته الزاهرة خلقت تضارباً عميقاً مع الفخامة البربرية التي تأثر بها الحكم الوثنيون . وهو وإن لم يكن جندياً فهو يغزو نجاحه إلى الله . وبعد تقسيم إمبراطوريته انسحب من القيادة العاملة وكرس نفسه لحياة الدرس أولاً في سيفاوا Sifawa ثم في سكوتو . وهناك مات في سنة ١٨١٧ ودفن بين أسوار المدينة حيث قبره لا يزال يحج إليه ) .

وقد اتهم الفولاني أعدائهم ودون تحرز باستغلال الدين للوصول إلى القوة السياسية ، ومن بين هؤلاء الكانمي وهو مسلم مخلص . ولكنه أعلن أنهم الفولانيون ضد متهمهم ، ولكن أنكر أنهم كانوا خطراً يميز الجهاد ، فالكتاب



الذى ألفه بلو ( اتفاق الميسور ) يعلن الإخلاص المطلق للشيخ ، ويضع الأصل الدينى الحقيقى للجهاد فوق الشك ، وكان أنرا الحركة أن جمع الفولانى المتفرقين وربطهم فى رباط واحد ضد الهوسا . مما أعطى الجهاد ميزته القومية . ولكن لم يكن هذا ولا المساوىء التى اتهم بها الفولانى بكافية لأن تبديد الظلام حول الهدف الكبير التى رسمه .

وخلف الشيخ أبنة بلو الذى قضى العشرين سنة التى حكمها فى سحق الثورات التى قامت فى وجه الحكم الجدد ، وكان إداريا قديراً بل كان أكبر سلاطين سكوتو بلاجدال ، وكانت رعايته للفنون هى التى جذبت إلى قصره الدارسين من جميع الأقطار ، ومن بين من قدم تحت تأثيره الحاج عمر المجاهد التوكولورى الذى كسب لنفسه مملكة كبيرة فى أعالي النيجر فى منتصف القرن ، وكان قد قضى شبابه فى سكوتو تزوج إحدى قريبات بلو حين عاد من مكة .

وحين مات الحامل الأول للعلم بدأ الفولانى يفقدون حماسهم الدينى ، وحملت ثمرة انقصارهم كما هو الحال غالباً فى التاريخ بين ثناياها ضعفاً فى كل الصفات التى دانوا ببعضها لانتصارهم على ولايات الهوسا .

وكما ذكر أحد العرب الطرابلسيين لكلا برتون ، أن زعماء الفولانى قادوا شعبهم خلال المعارك حين كانوا فقراء ، ولكنهم منذ أن أثروا فضلوا أن يظلوا خلفه ودفعوه إلى الأمام ، حين أصبح هؤلاء يملكون الإقطاعات محاطين بالرقيق والخصيان والتحليلات يزرعون المزارع الواسعة التى أقاموا عليها أقرباءهم يباشرونها . وظل الجهاد ضد أعدائهم مستمراً ولكنه هبط إلى أن أصبح مجرد تجارة فى الرقيق وما أن انتهى الحماس الدينى حتى أصبح الفولانى ضحايا ثورات متعاقبة من الذين أخضعوهم وعندما ازداد عجزهم حتى عن أن يغيروا على جيранهم ، انخطوا إلى استرقاق فلاحهم . ومن الجهاد والحكم



البريطاني استمر استجلاب الأمراء للرقيق من أجل أن يرضوا رغباتهم المحلية ولكي يحولوه إلى سلعة تجارية في أسواق الرقيق ، مما أدى إلى هبوط عدد السكان وإلى خراب المساحات الواسعة التي في أيديهم وخارجها ، وبالتدريج فقدت الحكومة المركزية كلا من الرغبة والقوة في تسود الأمراء وسحق قوتهم . وعندما قدم الحكم البريطاني في بداية القرن العشرين وجد كثيرين من الأمراء يهددون الملوك المسلمين .

وبالرغم من إنتشار التدهور والفوضى ، كان هناك لحسن الحظ قليل من القادة من الفولاني الجدا الذين استمروا متمسكين بالتقاليد النبيلة للشيخ ، والذي زودوا الأجيال التالية بالايحاء . وانعكس هذا في التميز الذي ظهر في شغل كثير من الفولاني لمراكز ذات مسؤولية كبيرة ، تحتاج إلى كفاءة إدارية ، واستمر اليوروجي الذين لم يكونوا قد لعبوا أي دور في هذا الارتفاع السياسي الذي جلب القوة والثروة لأقربائهم ، يرعون قطعانهم بين الأشجار ومازلنا نجدهم يعيشون نفس المعيشة البسيطة التي عاشها أسلافهم ويحتفظون بنقاوة عنصرهم التي فقدتها الفولاني وإن لم تكن ضرورية لفنائهم .



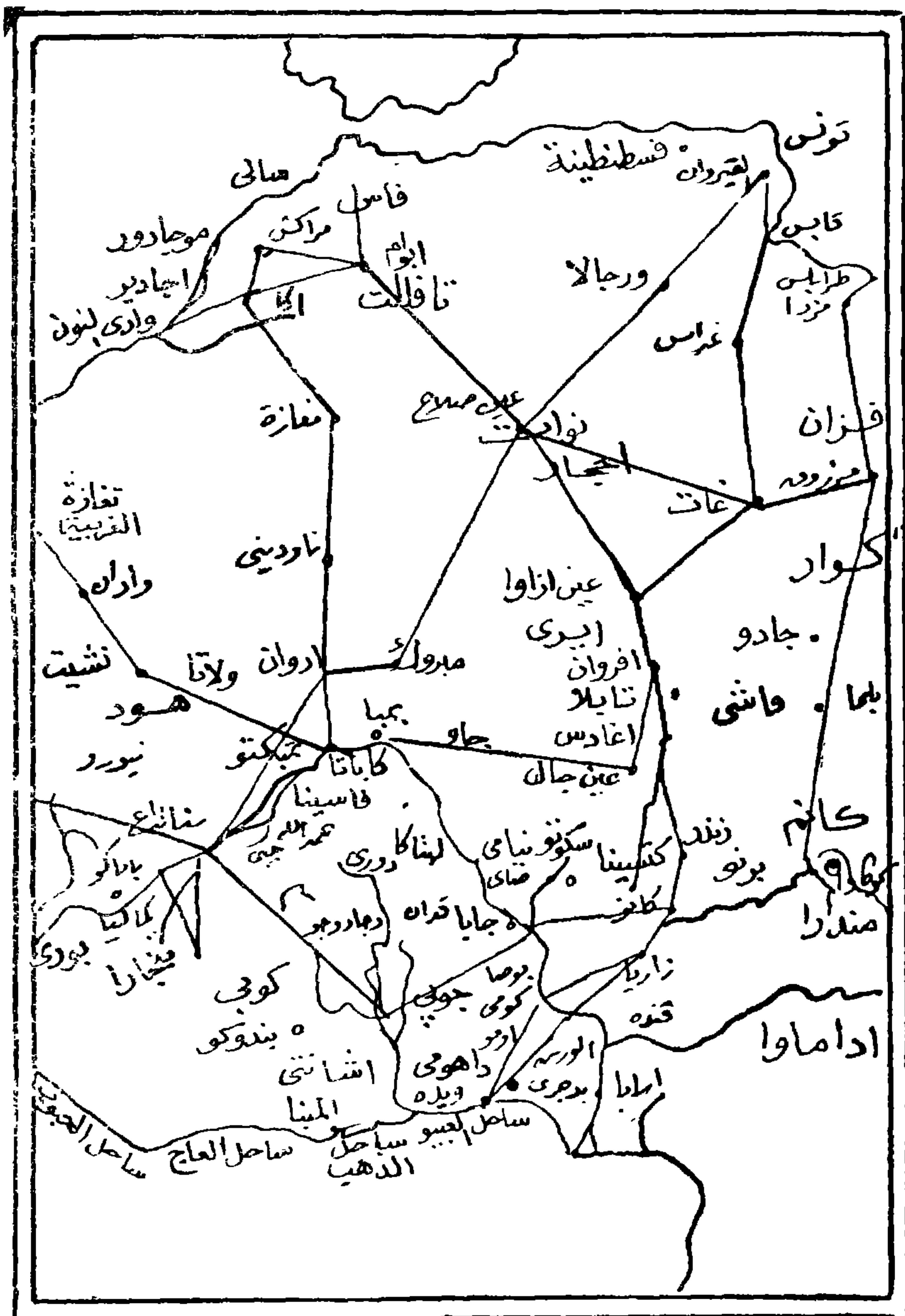


## آخر القوافل

تحالفت رغبة العالم الغربي في الحصول على منتجات إفريقيا مع الغريزة التجارية لشعوبها، سواء من يقطن منهم شمال الصحراء أو جنوبها ليجعلا من التجارة الخارجية عاملاً مسيطرًا في تاريخ الركن الشمالى الغربى من القارة، فقد وصلت التجارة بين طرفى الصحراء التى هى أكبر الحواجز للانتقال البشرى وربطت المغرب بالسودان من أجل إثراء كليهما . فكانت تجارة الصحراء بمثابة مغناطيس جذب إلى المغرب تجار أوروبا ، وملا الموانى كما ملا طرق الساحل الغربى من طرابلس حتى أغادير بسفن المسيحيين ، وقد حملت إلى السودانيين مع منتجات البحر المتوسط ثقافة مسلمى الشمال ، وهى التى تحكمت أكثر من أى شىء آخر فى تطورهم الاجتماعى والسياسى ، وأوحت التجارة أيضاً بالتقدم الذى به رفع الحجاب عن الداخل أمام العقول الغربية المنقبة بعد قرون من الجمود والتأخر . وعلى أثر المستكشفين المنتصرين أتى مواطنوهم فى قوة مسلحة ليفزوا ويحتلوا وليغيروا تدريجياً طابع الحياة الإفريقية . ولم يكن هناك من حقل للنشاط البشرى تأثر بمجىء الأوروبيين أكثر من تجارة الداخل، التى كانت حتى هذا الوقت مستبعدة تماماً ، فطرقه وقواربه وسككه الحديدية فتحت المخرج إلى ساحل غابى وصرفت التجارة عن طريق السودان وخربت طرق القوافل، وهى الوسيلة القديمة لانتقال التجارة والثقافة ومن الأفضل إذن أن تلى نظرة أخيرة على تجارة الداخل كما وجدها المستكشفون عندما كانت مظاهرها العامة مازالت كما كانت منذ قرون .

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان الجزء الأكبر من حركة





شكل ٧ أهداف طرقة القوافل  
في القرن التاسع عشر

القوافل بين الساحل المغربى والسودان مركزاً على ثلاث طرق لا بد أنها تعد من أقدم الطرق فى العالم . طريق تغازة تمبكتو فى الغرب وغدامس وإيرى إلى الهوسا فى الوسط وطريق فزان كوار إلى برنو فى الشرق . وهو طريق جارامانتس القديم ، وعلى طول كل واحد من هذه الطرق كانت هناك مراحل خالية من الماء لا بد أن القوافل كانت تتجازها وهى معرضة للخطر ، وبالرغم من هذا فإن تجربة الزمن أثبتت أنها آمنة بقدر الطرق القصيرة للتجار . وكل طريق كان يستغرق شهرين لقافلة الجمال ، ومن وقت لآخر استعملت طرق أقصر ولكن لتجر بسبب قلة المرعى أو الآبار أو بسبب اختلافات سياسة الصحراء ، وفى هذه الطرق الثلاث القديمة كانت هناك الثقة من العثور على الماء والمرعى ، حيث كانت يتوقع ، وفى وجه هذه الظروف الاضطرابية لم تكن الحروب أو السرقة لترغم قوافل التجار المسافرين بصفة دائمة على التوقف فقد تحملت كل هذا خلال العصور .

وكان أهم هذه الطرق هو الطريق ، الممتد من تغازة إلى تمبكتو هو الشهير بتجارة الذهب ، وما زال أهم الطرق من ناحية الثقافة وكان خراب سجلها فى السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر — وهى التى كانت تعاني التدهور منذ أيام ليو — قد منع هذا الطريق من نهايته التاريخية الشمالية ، إذا احتلت مكانها إلى حتما مدينة إبوام المجاورة ، ولكن ترك أغلب التجارة تافيلت واتجه بعضها إلى عين صلاح عاصمة ثوات التى كانت سهلة الوصول إليها من مراكش على طول وادى سورة ، واتجه بعضها الآخر غرباً إلى لكتاوا Lektawa فى وادى درعة وإلى وادى نن Nun وهو مركز جديد يقع بالقرب من الساحل على بعد بضعة أميال من رأس نن الذى أسسه بعض اللاجئيين فراراً من ظلم الاضطهادات التى أوقعها بهم سلطان منهم .

وقد سافر التجار المشتغلون بالتجارة من وادى نن وإبوام مع السودان



عبر عكه Akka التي ورثت أعمال سجلماسة، في تهيئة وتجهيز قوافل الصحراء . منذ هذا الوقت على طول الطريق القديم عبر تغازة وتاوديني إلى تمبكتو . فبدلاً من الاتجاه غرباً إلى تاوديني ثم ولا تا ( مثل وادان التي اضمحلت الآن وإن كانت لا تزال تذكر من أجل صياغها ) تبع الطريق المنهج المباشر عبر وادان ، وهنا التقى به طريقان آخران أحدهما يشق ثوات ومبروك إلى تمبكتو والآخر يأتي من سنسادنج Sansadnig على النيجر الأعلى ولم تقلل الحركة خلال القرون من أخطار طريق تغازة — تمبكتو . ففي سنة ١٨٠٥ هلكت عطشا قافلة مكونة من ألفي رجل و ١٨٠٠ جملاً كانت عائدة من تمبكتو على هذا الطريق ولم ينج منها إنسان أو حيوان .

ويدين هذا الطريق الذي يسوده عرب البرايش باستمرار انتعاشه إلى الذهب والملح غير المجروش الذي في الداخل، وقد قيل كثير عن تجارة الذهب وأيضاً عن حركة الاتجار في الملح . ولكن انتشرت أكثر ما يكون عن تجارة الذهب ، وكان الملح للإفريقيين أكثر أهمية بكثير، حتى لم يعد هناك من الأقوال أكثر من أن الذهب كان يقدر بواسطة السودانيين كقوة شرائية للملح . وبشدة طلبهم له الأمر الذي لم يكونوا بقادرين على سده . فكان أساس تجارتهم الداخلية والخارجية، ولم تكن أحد منهما تتم تماماً دون الأخرى مما ينم عن شدة احتياجهم لهذه المادة الضرورية لحياة الإنسان .

وعبارة البكرى أن الفراوين Ferawi اعتادوا أن يبادلوا بالذهب ما يوازي وزنه ملحاً، لم تكن مبالغة كبيرة فهناك عبارة مشابهة عن مالى عن بعض خرائط يهودية تمت إلى السنين الأولى من القرن السادس عشر ، سواء كانت أو لم تكن ترديداً لعبارة البكرى . ومنذ قرن واحد فقط وجد أحد المسافرين الأوروبيين وهو الفرنسي رافينل Raffenel نفسه يعاني قلة الملح فكان مستعداً تماماً لأن يعقد نفس الصفقة، وهؤلاء الذين عاينوها يستطيعون



أن يتبينوا شدة الاحتياج للملح لهؤلاء الذين حرموا من الحصول على كمية مناسبة . ففي السودان الغربى كان الملح من الأشياء الكمالية التى لم يحصل عليها إلا الأغنياء .

ولم تكن موارد الملح الوحيدة الطبيعية فى كل غرب السودان فقيرة، ولكنها مركزة فى منطقة صغيرة فى وسط الإقليم تماماً، إذ أنها كانت حقول الملح فى دلول فوغا Da'llul Fogha فى دندى وجارتها فاداما Fadama أو مستنقع برنين كبي Bernin Kebbi وكانت ذا التربة المزوجة بكميات وافرة من الملح إلى حد أن يصبح الحصول على الملح سهلاً بطريق التبخير ، ولكن هذه كانت موارد فقيرة وكافية فقط للحاجات المحلية ، وفى مكان آخر كان يمكن الحصول عليه عن طريق التجارة ، أما إذا استحال كما كان يحدث كثيراً مع القبائل الضعيفة المعزولة . فكان يمكن الحصول عليه فى كميات صغيرة من بين هشيم الحشائش والذرة وبعض الشجيرات ومن مخلفات الماشية .

ويجب أن نتذكر أنه حين أخرج المغاربة صنگاي من تغازة فى القرن السادس عشر فإنهم فتحوا مناجم شهيرة فى تاودينى . وأصبحت إلى جدم<sup>(١)</sup> المورد الرئيسى لتموين ممالك السودان الأوسط، وكانت تحمل نهراً إلى باماكو التى وجد يارك أنها كانت تمون من تاودينى ، وبملح البحر من ريوجراندى . وكان يحصل على الملح أيضاً من سبكة عجيل فى الصحراء إلى الشمال الغربى، ولكن الصحراء كانت مورداً لا ينضب يعتمد عليه كحاجة ضرورية للحياة، وكانت المناجم عرضة للهجوم عليها من المغيرين ، وكمياتها تحت رحمة سياسة الصحراء كما كان المشتغلون بها عرضة للموت إذا لم تصلهم المؤونة فى الوقت المناسب كما حدث فى بعض الأوقات فى تاودينى . وفى بداية القرن التاسع عشر

---

(١) مازال أهل تمبكتو يحصلون على كمياتهم من الملح من تاودينى .  
( م ٢٠ — الممالك الإسلامية )

أدت هذه المخاطر إلى تصدير الملح من مراکش إلى السودان حيث باده المغاربة بمعدل رطل من الملح مقابل أوقية من الذهب .

وتدين تمبكتو بانتعاشها إلى الذهب والملح كما فعلت الطرق القديمة التي كانت تمبكتو في نهايتها . فلا النبو ولا الصناعة بل اعتمدت على ما يرد إليها من الطعام وعلى تجارة المرور فكانها كانت إذن مخزنا يستمد أهميته من موقعه في نقطة تسهل الوصول إلى النيجر من المغرب ، وإلى مركزها الصحراوي في واحة توات . بينما جلب إليها طريق تغازة الملح وتجارة الذهب من البحر المتوسط الأرز من النيجر والذرة والذهب والرقيق والعاج وحبوب الكولا من سانساندنج وجنى ، وربطها بمصر طريق الشرق وسار هذا الطريق عبر ايرى وغات إلى غدامس وسيدامس الرومانية ، وما زال للتجار سيطرة وثيقة على التجارة في الداخل ، وفي أيام بارث كانت تمبكتو تستورد حبوب الكولا من تنجربلا Taugrela وهي بعيدة في ظهر ساحل العاج والقطنيات الإنجليزية والأدوات الحادة من موجدور ، وكانت تتاجر أيضا مع الوكالات الأوربية في السنغال ، وأنهار غمبيا عبر سانساندنج وباماكو كانت المدى الجغرافي واتساع تجارتها الخارجية ملفتا لأهميتها .

يحتمل أن يكون طريق غدامس ايرى أقل قدما من طريق تغازة حيث يمر فوق طرق صخرية تبرهن مساراتها الممزقة على قدمه وعلى ثقل الحركة التي دارت فوقه ، ويبدو أن طريقها لم يختلف فبين غدامس وغات سيطر طوارق ازجى المتوحشون Azgei Tuareg — في النصف الأول من القرن الماضي — وفيما بين غات وايرى حيث تمر أسوأ طرق الصحراء في العالم تقع منطقة كل أوى في منتصف الطريق . وفي أزاوا أواسيو Asiaw يتصل بها طريق توات ايرى الذي اخترق رصيف أحجار وتحكم فيها طوارق الأحجار . ويدخل الطريق الرئيسى إلى ايرى في ايفروان

Iefruan وكانت نقطة اتصال هامة ، لأن الطريق هنا متصل بطريق الحج القديم القادم من تمبكتو الذى يدخل ابرى من عين جال In gal ماراً بأزاوا Azawa وغات ومرزوق وعجيله وسيوه ثم القاهرة ، ولما كانت المنطقة حول أغادس غير مناسبة للجمال الثقيلة الحمل ، فإن الطريق دار حول العاصمة التى تقع إلى الغرب منها ببضعة أميال . وكانت نهاية الطريق الجنوبية هى كاتسينا ، ولكن حلت كانو محلها فى الفترة التى تلت جهاد الفولانى وكسوق رئيسية للهوسا ، وامتد الطريق إلى الأولى . ولكن عن طريق زندر Zunder وبالمرور على كاتسينا وكان يتحكم فيه بين كانو وابرى طوارق كل جرس Kel geres .

وفى أيام امبراطورية صنفاى انتعشت أغادس كمخزن رئيسى لتجارة ذهب جاو، التى جرت مع طرابلس ومصر، وقضت فتوح المغرب على هذه التجارة وأقفرت أغادس ، ولكن تركت لها أهميتها السياسية دون أن تتأثر، وما بى لأغادس من الإلتعاش فى القرن التاسع عشر فإنه جاء أساسا من تجارة الملح من كوار الهوسا . ويدين شعب أغادس لسيطرتهم على هذه التجارة المحلية المربحة إلى أساسهم الرعوى فى أرض المراعى التى أمدت بالغذاء القطعان الكبيرة من الجمال التى لم تكن تجارة الذهب لتسير إلا بها فى كل خريف تخرج قافلة كبيرة تعرف بعزلاى Azlai أو تغالام Taghalam من ابرى بحثا عن الملح من بلما Bilma عاصمة كوار لأسواق الهوسا . ولايحتمل أن يكون لمكان آخر فى العالم فرص تجارية تقارن بتلك التى مع العزلاى إذ لم تكن تقل عن عشرين ألف جمل والتى استمرت حتى سنة ١٩٠٨ حين أخذت فى التدهور .

وكن يسبق قيام العزلاى تجهيزات كبيرة، فاجتماع عدد كبير من الجمال وأغلبها من كل جرس وقبائل ايتسان Itsan استلزم وقتا طويلا إذ كانت



تجتمع في تابلو Tal-ello في وسط ايرى حيث كانت هناك مراعى كافية لهذه الرحلة الشاقة ، بالرغم من أن الرحلة الدائرية إلى كوار والعودة إلى ايرى كانت تستغرق ثلاثة أسابيع كما كانت تتطلب طاقة كبيرة وطريق عزلاى كانت تدل عليه أكوام كثيرة من هياكل عظام الجمال .

ومن الطبيعى أن القوافل الكبيرة كانت عرضة لأن يصيبها الكثير ، فهى عرضة لأن ينقض عليها الطوارق ، وهم وان لم يكونوا مهتمين بالإغارة نفسها إلا أنهم يستفيدون فائدة كبيرة على حساب تجار الملح .

وخرج العزلاى في اكتوبر يقودهم الملك توراوا Twrarwa ملك أغادس ووزير أمينو كال Aminoka أى السلطان . وحملت من القمح والأقمشة من الهوسا ليعادلوها بها الملح وكميات كبيرة من العلف إذ لم يكن هناك مرعى في كور Kauar حيث كانت الجمال القليلة تتغذى على البلح ، ووصلت فاشى Fachu وهو مركز خارجى من كور بعد خمسة أيام ، وهناك انضمت إلى العزلاى قافلة أخرى من داماجارام Damagaram ودخلت بلما بعد ثلاثة أيام . وفجأة ظهر شيء عجيب غير عادى . فالحداء الذى تعود المجاورون أن يستعمله لتحذير أهالى بلما قبل وصول القافلة ليومين : أعلن عن وصول العزلاى كما اعتاد أن يعمل عند وصول قافلة كبيرة غير عادية من الغرب<sup>(١)</sup> وتدع القافلة عند عودتها الى ايرى نفس الطريق . وبعد أن استراحت فى أغادس وعلى رأسها جزء كبير من العزلاى ومعهم ملك توراوا انجبت جنوبا الى سكونو ثم إلى كانوا حيث

---

(١) كانت هذه الظاهرة غير العادية تدو أنها تنتهى إلى نفس النهاية مثل الرمال الحادة . وهى إلى حد ما تقارن بتلين فى روس شابر Ross Seire يصرح كل إلى الآخر واستناداً إلى الدكتور فريزر رالج ( حينما حول الثلج تهب رياح من لشرق يشده ويتغير الجو ونحافى القدم ) .

كان الملح يباع لتوزيعه على كل جهات الهوسا وما يجاورها وعادت الجمال إلى ايرى بالأقمشة والقمح<sup>(١)</sup> .

وفي القرن التاسع عشر كانت كاتو المدينة التجارية الرئيسية في السودان الغربي وأكثر أهمية من تمبكتو . وقد قدر بارت سكانها — سواء من الهوسا المقيمين أو العناصر الأجنبية التي كونت جالية كبيرة من العرب الطرابلسيين الأتراء بثلاثين ألفاً . وعند قدوم الفصل الجاف وافتتاح الطرق التجارية يتضاعف العدد بمن يقدم إليها من التجار، وكانو مركز منطقة زراعية غنية تنتج من الطعام ما يكفي كل سكانها، بل تنتج أيضاً فائضاً للتصدير، ولكنها تدين بانتعاشها إلى الصناعة والمهارة غير العادية لصناعتها من الهوسا وخاصة النساجين والصباغين<sup>(٢)</sup> الذين أشد الطلب على بضائعهم في اكل شمال وغرب أفريقيا . إذ كتب بارت يقول ( وميزة كانو الكبرى هي أن التجارة والمصنوعات تذهب بدايد وغالباً ما تكون كل عائلة لها نصيب فيها . حقيقة أنه يوجد شيء عظيم في هذا النوع من الصناعة التي تنتشر شمالاً حتى مرزوق وغات بل حتى طرابلس، وغرباً ليس فقط إلى تمبكتو بل إلى حدما حتى سواحل الأطلنطي، وسكان أرجوين يلبسون الأقمشة المنسوجة والمصبوغة في كانو أما في الشرق فحتى بورنو بالرغم من أنها تنافس الصناعة المحلية للدولة ، أما في الجنوب فلا نجد إلا الوثنيين العراة الذين لا يلبسون شيئاً ) .

ومعظم ما يرد إلى كانو من الشمال يأتي عن طريق أيرى والباقي عن كور

---

(١) لأجل قصة تجارة الملح في الوقت الحاضر في كور ( أنظر مقالاً للكاتب جراندين مجلة ليفان الجزء ٣ ) ص ٤٨٨ — ٥٢٢ — ١٩٥١ .

(٢) كانت مهارة الصباغين موضع التقدير إلى حد أن الأقمشة التي كانت ترسل من غدامس إلى كانو تصبغها من أجل أسواق طرابلس، فجلود كانو ذات الألوان الباقة كانت تجد رواجاً واسعاً عند مساحل البحر المتوسط .



وبرنو وعدا الملح هالك خيط رفيع من حرير طرابلس وقدر كبير من البضائع الأوروبية وتتضمن الأخيرة قطنيات منشستر والحرير الفرنسي والخرز الزجاجي القادم من البندقية وتريستا ، والورق والمرايا والابرمن النمسا إلى جانب كميات من البهار والسكر والشاي . وكانت كانوا سوقا هامة للنظرون القادم من تشاد وجبوب الكولا .

وكان سكان كانوا يتحكمون في تجارة جبوب الكولا الثمينة التي يأتي معظمها من جوانجا Gwanga في ظهير ساحل الذهب . وكانت هذه الجبوب التي تسميها الأهالي والتجار العرب الأوائل بالهورو تستعمل في السودان الغربي منذ وقت مبكر . فالجبوب التوأم التي في الداخل كانت تعتبر شعاراً للصداقة . ولم يكن يتم مجلس دون وجود الكولا . ولذا اكتسبت الجبوب أهمية في الاحتفالات وأصبح الناس يقسمون اليمين على الكولا ، فالأفريقيون يعجبون بدقيقتها المر ، فهي ولا شك تتحمل طول الرحلة ولذا فهي تعتبر — في منطقة واسعة — علاجاً للضعف . فبالرغم من مصاريف نقلها الكثيرة ، احتفظت بثمانها المرتفع وظلت لمدة طويلة مادة كمالية لا يستطيع الحصول عليها غير الأثرياء ، كما أصبحت — بل مازالت — ضرورة لعدد كبير من السكان .

وكانت جبوب الكولا أحد ثلاث سلع تجارية اعتادت أن تخترق الجزء الشمالي الغربي من أفريقيا من غانة إلى شاطئ البحر المتوسط ، وكانت المواد الأخرى هي الخرز الزجاجي البندقي، والحرير الخام الطرابلسي الذي وجد طريقة إلى جوانجا لمبادلتها بالكولا وإلى باداجري على ساحل العبيد وقد أصبحت هذه الأخيرة المركز الرئيسي لتجارة الرقيق للأوروبيين .

وبين كانوا وباداجري لا يوجد طريق محدد تماماً للتجارة . فالمدنيتان منفصلتان بحزام من الأشجار والغابات المطرية تسكنه اليوروبا وبضع قبائل



أخرى أصغر شأنًا وهم في حرب دائمة مع بعضهم . وكان اجتياز هذا الحزام يعتبر مخاطرة، ولذا تسربت التجارة في خفة وسرية على طول الطرق غير المحددة . فمن المدهش ولو إلى قدر يسير أن نجد منطقة اعتبرها السودانيون صعبة الاجتياز قد اثبتت لعدة قرون أنها صعبة الاختراق أمام الأوروبيين المشتغلين بالتجارة على ساحل غانة ، وكان النيجر يعبر عند بعض المعابر التي كان أهمها عند رباح بالقرب من جيا الحالية Jebba و كومي Komie ( ونبجرك Wongerque ) جنوب بوسا تماما . وكان هناك معبر آخر أقل أهمية بعيد نحو أعالي النهر عند إيلو Ilo ، ومن كومي اتخذ طريقه إلى الشمال الشرقي عبر برنين جوارى وزاريا إلى كانو، بينما تتبع طريق آخر الضفة اليسرى للنهر عبر يورى إلى شمال غرب الهوسا ، حيث يلتقي بطريق الكولا الرئيسى القادم من جوانجا إلى كانو . وكان هذان الطريقان معا ومعهما ثالث قادم من واجادو وفادان جورما تكون أهم الطرق التجارية التي تقود إلى الهوسا من الغرب والتقت كلها بالقرب من جييجا أو عندها Jega .

وجييجا اليوم مدينة صغيرة جداً، ولكنها كانت — استناداً إلى بارت الذى كتب فى منتصف القرن الماضى — مكاناً هاماً ، وبسبب أهمية تجارتها جذبت أنظار أوروبا لسنين طويلة طيبة ، وقد فشل دلجان Diligent فى بحثه من أجل محاولة كشف كيف ومتى وصلت جييجا إلى أن تجذب الأنظار فى أوروبا فى عصر كان ما يعرف عن هذا الجزء من أفريقيا قليلاً، إذ لم يشر إليها كلابرتون أولاندر ولكن لا شك انها كانت هامة .

وشغلت جييجا فى الهوسا والأقاليم التى تجاورها مركزاً تجارياً يلى كانو مباشرة ، وهى بالاشتراك مع باماكو وواجادوجو وفادان جورما وجايا تقع على الخط الثانى عشر شمالاً من خطوط العرض . وليس من المدهش أن تقع هذه الاسواق الخمسة الرئيسية كلها على نفس خط العرض أو قريبة جداً منه

ويخترق هذا الخط منطقة أحراش تفصل السافانا عن الغابات . وهي تقسم هيفاين Hyphaene ومنطقة البلح في الشمال عن منطقة نخيل الزيت في الجنوب ، والحيوانات ذات السنم عن الحيوانات التي بدونه ، وهي تحدد على وجه التقريب الحد الجنوبي لمنطقة النقل بالجمال والحد الشمالي لمنطقة ذباب تسي تسي<sup>(١)</sup> وأغلب من يسكن شمال هذا الخط مسلمون وإلى جنوبه وثنيون .

ومنطقة الأحراش الوسطى تسكنها قبائل ذات أصل مختلف ، يحبط بهم من الخارج مسلمون ، ولكن من يسكن الوسط لهم ميل كبير نحو الوثنية وعرض ومرونة نظراتهم الوثنية خلقت في مدنها جواً ملائماً للتجارة بين المسلمين المشتغلين بتجارة الرقيق والوثنيين الذين هم مادة هذه التجارة ، وضرورة التجارة بين الاثنين التي تغلبت على كل اعتبارات الجنس والعقيدة والسياسة لا بد أن تملأ ، وميزة خط العرض الثاني عشر التي هيأت لنمو الأسواق الضرورية كانت مناسبة إلى درجة غير عادية . فهنا كانت الكولا ونير الذهب والرقيق تتبادل بالملح والنظرون والبضائع الأوروبية القادمة من مناطق نائية في الشمال<sup>(٢)</sup> .

---

(١) العابا أو الماني تقع إلى الشمال من واحد وجو بثلاثة أميال ويطلب من الواحد منهم بحكم العادة أن يحتفظ بحمل واحد على الأقل . ثم يستبدل به آخر .

(٢) ميزة الخط الثاني عشر التي يبدو أنها غابت عن المؤرخين ليست خاصة بالسودان الغربي . بل — استناداً إلى هارولد ماكايكل — امتدت إلى وادي النيل ، حيث الأحوال — على حافتي الخط — أصبحت دون المدارية ، مع زيادة كمية المطر في الجنوب فأصبحت لذلك الغابات أكثر كثافة والأرض أكثر انكساراً . وحلت التربة مكان الرمل . كما حلت الماشية مكان الجمل . والحروف .

Anglo Egyptian Sudan, p. 13.

وأكثر من ذلك . يعتبر خط ١٢ في قانون المعاشات خطأ فاصلاً يحصل من يخدم جنوبه على معاش إصاوي .

وبالرغم من أن كانوا تقع هي الأخرى على الخط الثاني عشر فهي لا تقارن  
بالأسواق الكبيرة الأخرى التي تقع على نفس الخط ، وبسبب ارتفاعها فهي  
تنتمي جغرافيا إلى منطقة السفانا أكثر من انتمائها إلى منطقة الشجيرات .  
وكما رأينا فهي تدين بانتعاشها إلى مهارة صناعتها وإلى تروتها الزراعية وليس  
إلى موقعها الجغرافي كما هو الحال في جييجا .

ولكن جييجا لها ميزة خاصة بها، إذ أن خلوها من اتسى تسى جعل الوصول  
إليها سهلا بحيوانات الثقل من الشمال . كما أن موقعها على رأس طريق ملاحى  
على جولبين جندى Golbin Gindi وهو فرع من النيجر يمكن الوصول إليها  
من غابات الجنوب . وهي إلى حد ما قريبة من مناجم الملح في دلول وموقعها  
جيد لاصطياد تجارة جوانجا وبادا جري، وقد جذب جوها الهادى، كل التجارة  
التي يمكن أن تذهب — بسبب التعصب والقتال — إلى سكوتو وجواندو  
عاصمتى الفولاني المجاورتين . وسكانها من الجباناوا Cimbanawa تقصهم  
روح الجدل الدينى ولهذا أصبحتا شعب أسواق الحدود .

ولأنهم نصف مسلمين ونصف وثنيين يميلون إلى الكسل غير ميالين إلى التقدم  
قنعوا بأن يتركوا تجارة بلدهم إلى تجار أجانب، وبالرغم من هذا فإن جييجا لم  
تجن الفائدة الكاملة من مزاياها الكثيرة حتى إلى وقت أن اجتاحت الفولاني برنين  
كيبى في سنة ١٨٠٥ واقفلت ميناء الأخيرة منذ أيام الرومان ، ولم يذكر  
الطريق بين فزان و كور القديم كثيرا في الوثائق التاريخية . ولكن لاشك أنه  
كان يستعمل بصفة مستمرة لأنه أسهل طرق قوافل الصحراء اجتيازاً .  
وفي بداية القرن التاسع عشر استعاد كثيراً من أهميته الأولى بسبب  
العلاقات الحسنة التي أقامها أتراك طرابلس مع سلطان برنو . ولا يشك أحد  
في طلب الأولين المستمر للرقيق وتحكم في هذا الطريق إسمياً التيبو زنوج  
تبستى أصحاب العداوة المرة الموروثة لطوارق ايرى . فالغارات المتبادلة



ملأت الطريق ذهابا وإيابا ، وعوض المغيرون الفاشلون خيبتهم بنهب القوافل المارة ، وبالرغم من هذا فبقدر ما استمرت الصداقة بين الأتراك وأهل برنو ظل هذا الطريق المباشر المتجه من غدامس إلى إيري . ولكن انتهى كل هذا في منتصف القرن بانتهاء العلاقة بين طرابلس وبرنو التي هددت بأن تقود غارة تركية على الأخيرة ، وبعد هذا تحولت معظم الحركة جنوب مرزوق إلى طريق غدامس إيري .

وبالرغم من أن طريق فزان — كور حمل كمية هائلة من الملح المتجه جنوبا من بلما فهو ولا شك كان طريقاً للرقيق . فكل أوروبي سافر على هذا الطريق الملطخ بالدم سجل فزعه من آلاف الهياكل البشرية التي انتثرت على جانبيه . وكان معظمها لنساء وفتيات صغيرات ، وكانت تكثر بصفة خاصة حول الآبار مما يدل على أن الجهد الأخير الذي بذل من أجل الوصول إلى الماء أدى بهن إلى الموت نتيجة الإجهاد .

وقد اشتد طلب الساحل الشمالى لإفريقيا على الرقيق الزنجى من أجل الاستعمال المحلى، ولكن أكثر من ذلك لأجل التصدير إلى مصر وتركيا، فلا أدعى إلى الدهشة إذن لكل من تجول في منطقة الهوسا أن يجد أن ثمن رقيق الهوسا كان أعلى من أى رقيق آخر . وقد فضل الرجال لمهارتهم وذكايتهم ، والنساء لجمالهن ومرجهن ونظافتهن . وقد امتد هذا التفضيل إلى مراكش، حيث سجل كل من جاكسون في بداية القرن التاسع عشر وهاريس في نهايته، الأثمان العالية التي تدفع للهوسا في أسواق الرقيق المحلية ، وكانت حركة الرقيق عبر الصحراء مخصصة لطريق فزان — كور ولكن هذا الطريق حمل الجزء الأكبر منها بسبب الاستبعاد العملى لمنتجات السودان الأخرى . ففي أيام دنيام رفض تجار الشمال المشتغلون بالتجارة مع برنو أن يدفعوا أثمان تجارتهم إلا بالرقيق الذي أصبح — تبعاً لذلك — أهم عمله في الدولة .

ولأجل مصالحهم رأى التجار أن يكون رقيقهم في حالة جيدة قبل أن بدأوا عبور الصحراء، فقيدوا الرجال — الذين كانوا غالباً من الشباب — بقيود من حديد وبسلاسل في رقابهم بينما سمح للنساء والبنات بالسير في حرية . وتحمل الأقوياء السير في الصحراء حتى إذا وصلوا إلى فزان لم يكونوا أكثر من هياكل حية ، وهناك يستريحون ويسمنون ليبيعوا برمج يصل إلى ٥٠٠٪.

و فرع هام آخر من هذه التجارة هو تجارة الخصيان . الذين يطلبون في الحاح من أجل حراسة الحرم . إذ كانت العادة في السودان أن يخلصوا أشد الأولاد والشبان سواداً من بين من يقبض عليهم في الغارات ، وبعض القبائل — وخاصة الموسى جعلت الخصى عقاب بعض الجرائم . ولا شك أن الغرض من ذلك كان بعث النشاط في هذا النوع من التجارة . ولم ينج من الموت نتيجة لهذه العملية غير ١٠٪ لما كانت تجري عليه من طرق قاسية<sup>(١)</sup> . وكان الموسى يتميزون بمهارتهم إلى درجة غير عادية في هذه العملية ، وقد احتفظوا بطريقتهم سرّاً<sup>(٢)</sup> وقد تمتعوا ومعهم أهل برنو بسمعة طالية في هذه التجارة التي كان معظم زبائنها أتراكاً ومصريين ومغاربة، ويروى ليو الإفريقي كيف أنه اشترى مرة خصياً من بعض القبائل المتوحشة على ساحل طرابلس . ولكن التجارة كانت أقدم من ذلك بكثير . ففي القرن التاسع مثلاً ذبح إبراهيم بن أحمد الصقلي في يوم واحد ثلاثمائة من خصيانه السود، وكان ينافس المشتريين الأجانب طلب قوى محلي ، لأن الخصيان كانوا

---

(١) أكد أحد أهالي كانو للمؤلف في سنة ١٩١٩ أنه خلال خصى مائة من وثني ننجي Nengi لم ينج إلا عشرة . وكانت العملية قد جرت — كما قال — كأحسن ما يكون، وذكر بارت من ناحية أخرى أنه لا ينجو في العادة إلا أقل من عشرة .

(٢) يذكر جوتييه Gauttier دهمشه السفير الفرنسي في القسطنطينية في سنة ١٩٠٠ من وصول خصيان من الموسى من السودان الفرنسي . ( مجلة . أفريقيا الزنجية الغربية . باريس سنة ١٩٣٥ ص ١٣٩ ) .



كثيرى الاستعمال فى السودان، كما فى أى قطر إسلامى آخر . وإستناداً إلى ذنهام، كان لدى سلطان برنو مائتان من الخصيان ، وكان التجار الأتراك يدفعون عن الواحد مبلغاً يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ دولاراً، وقبل أن تنتهم لسودانيين بمثل هذه التجارة المشينة يجب أن نتذكر أنها كانت تمارس فى أوروبا المسيحية خلال العصور الوسطى ، وكانت هناك مؤسسات كبيرة غالباً ما كانت تحت إدارة اليهود فى فرنسا وخاصة فى فردان تمتد مسلمى أسبانيا بالخصيان .

وفرقه الألمان فى كنيسة سستين Sistine وهم نحر الموسيقى والعار الأدبى للخورس البابوى بى حتى نهاية القرن التاسع عشر ولكن خصى الأولاد استمر فى إيطاليا لمدة طويلة بعد ذلك .

وبالإضافة إلى شدة الطلب على الرقيق من أجل تصديره إلى الشمال الإسلامى والجنوب المسيحى فقد كانت هناك حاجة محلية ملحة له فى السودان ، حيث ملك كثير من الزعماء آلافاً من الرقيق، وعلى ذلك أصبحت الغارات على القبائل الوثنية فى التلال والغابات الشغل الشاغل للمسلمين فى كل السودان الغربى، وكانت الغارات تنفذ سراً وفق خطة دقيقة حين تحاصر القرية فى ظلام الليل بقوة كبيرة وفى حالة نجاح الخطة لا تنجو ضحية واحدة حين ينقض الغزاة على ضحاياهم انقضاضاً مفاجئاً عند الفجر<sup>(١)</sup> . ولا يؤخذ غير الشبان والنساء، أما كبار السن فكانوا يذبحون لقلّة ثمنهم وكونهم غير قابلين للبيع . وشهد بارت فى بورنو منظرأً مثيراً لمائة وسبعين رجلاً فى مقتبل العمر تركوا والدم ينزف منهم حتى الموت بعد غارة من هذه الغارات، وبالقرب من الساحل حيث كان الأوروبيون متشوقين للشراء لكل زنجى قادر لم يكن يحدث هذا وكل

---

(١) كان من العادة أن يركب الحيلة مهوراً فى هذه الغارات، لأن استعداد الحيل لأن نصل يجعلها تنذر القرى باقترابهم .



هذه الوحشية القاسية كانت تنفذ باسم الدين . وكما قال اللورد لوجارد أنها أشنع تهمة ضد المسلمين في إفريقيا إلى حد أنها شجعت الرق وأعطت له مبرراً دينياً .

وكان قضاء الأوروبيين على تجارة الرقيق عاملاً في سرعة إنهيار طرق القوافل الصحراوية ، وذلك بسبب اعتمادها المستمر على الواحات التي انتعشت منذ زمن بفضل عمل الرقيق ، إذ لم يكن للعرب أو الطوارق هم الذين زرعوا هذه الواحات بل رقيقهم الزنجي من البوزو والهاراتين Buzu aud Haratin ، ولما لم يعد البدو يقادرون على شراء الرقيق أو القبض عليه بدأت الواحات تختفي وطرق القوافل تموت .

والسبب الرئيسي لتدهور طرق القوافل كان بلا شك منافسه الطرق البحرية في البحر المتوسط ، ما دامت الطرق التجارية من الساحل الغربي إلى السودان قد فتحت وحمل إلى الأسواق الشمالية الذهب والعاج وريش النعام وهي كل ما بقي من تجارة الصحراء عن طريق جبل طارق الطويل . ولكنه أرخص وأكثر أمناً ، وامتلاء أسواق السودان بالملح الأوروبي قضى على كثير من الطرق الصحراوية المحلية ولكن لم يحطمها كلية . كما رأينا ، واختفت الحركة عبر الصحراء وكان الأثر السياسي لهذا الاختفاء النهائي للطريق التقليدي للتجارة عميقاً . فتتجات الواحات الزراعية المتواضعة التي كان يحصل عليها بأسعار عالية لا تتفق مع العائد الضعيف أصبحت هامة بالنسبة لاقتصاد الطوارق الفقير ، واستمرار استقلالهم كان لا يزال أكثر ضرورة لهم بسبب فائدته من ناحية وتقديمه من ناحية أخرى لحركة القوافل . فعملهم — كنقله التجارة وحاملها ومنظمها وناهيها والمغيرين عليها — كانت جزءاً ضرورياً لحياتهم . فإذا ذابت هذه الموارد وأخذت الواحات تنكمش ولم تعد إلا قلة من القوافل لتزود بالجمال والبضائع



—٣١٨—

تسرق وتنهب، فأنهار في سرعة الحاجز الضيق الذي كان يفصل في الصحراء بين الموت جوعاً والثروة، واضطرت الحاجة الملحة شعوب الصحراء إلى الإغارة على بعضهم، والقوضى التي لم يعرفها البدو خلال تاريخهم الطويل أصبحت عامة. وأصبحت الصحراء تغلي كما كانت حين حاول الرومان أن ينكروا على البدو مراعيهم التقليدية. ولكن على نطاق أوسع والغارات على الزراع المستقرين وصلت حداً بحيث لم يعد استطاع وقفها في حدود الصحراء، واستمرت الواحات تنكش والآبار تنضب وينابيع الماء تجف. وبسبب إهمال الناس لها أصبحت الصحراء أكثر فقراً من أي وقت آخر. والعلاقات التي ربطت بين الساحل البربري والسودان لقرون لا تحصى تحطمت إلى الأبد.





شكل ٨ غزب أفريقيا







صفحة	الموضوع
٧	مقدمة المؤلف
١٠	مرضعة الأسود العجفاء
٢٧	ساليا قوت والذهب
٤٧	الرومان وجارامانتس
٧١	الطوارق
٧٧	العرب
٩١	المرابطون
١٠٧	ذهب غانا
١١٥	منسا موسى
١٢٣	ابن بطوطة
١٣١	صنغاي
١٤٥	كشف ساحل غانة
١٥٧	ليو الإفريقي
١٧٣	مولاي أحمد المنصور
١٨١	تقازة
١٨٩	جيش الصحراء
٢٠١	غزو السودان
٢١٥	سقوط صنغاي
٢٣١	السلطان الذهبي
٢٤٧	وانجارا
٢٦٣	النيجر
٢٨٥	عثمان بن فودي
٣٠١	آخر القوافل

